برتراند راسل

السعادة في عالم مضطرب

تقديم وتحرير

د. ناجي توفيق

الكتاب: السعادة في عالم مضطرب

الكاتب: برتراند راسل

تقديم وتحرير: د. ناجي توفيق

الطبعة: ٢٠٢١



الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

راسل، برتراند

السعادة في عالم مضطرب / برتراند راسل، تقديم وتحرير: د. ناجي توفيق

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٢٤ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٤ – ٠٩٩ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٠١٠ / ٢٠٢٠

السعادة في عالم مضطرب



تقديم

عاش برتراند راسل قرابة القرن من الزمان، وكان أحد العقول المضيئة اللامعة في تاريخ البشرية، في عام ١٩٥٠م، مُنح جائزة نوبل في الآداب،وذلك لكتاباته المتنوعة والمهمة حيث انتصر للمثل الإنسانية وحرية الفكر.

وكان يبلغ من العمر يومئذ ٧٨ عامًا، ويوم تسلمه الجائزة تحدث بعفوية وانطلاق شاب في مقتبل العمر، فقال عن الدوافع التي تقود السلوك البشري:

"كل النشاط البشري مدفوعٌ بالرغبة، هنالك نظرية زائفة كليًا طُرحت من قبل بعض الأخلاقيين المخلصين مفادها أنه من الممكن مقاومة الرغبة لأجل الواجب أو المبدأ الأخلاقي. لست أقول إنها زائفة لأنه لا يوجد إنسان يتصرف وفق شعور الواجب، بل لأن الواجب لا يملك تأثيرًا عليه إلا إذا أراد هو ذلك. إذا أردت معرفة كيف سيتصرف البشر، عليك ألا تكتفي بمعرفة ظروفهم المادية، بل يجب أن تعرف منظومة رغباتهم وقواهم النسبية".

تلك كانت خلاصة الأفكار التي طرحها برتراند راسل طوال حياته، سواء في أعماله الأدبية أو في كتبه الفلسفية، على أن هناك مبدأ عامًا دعا إله في كتاباته المختلفة، ولعل اعتناقه هو سر السعادة التي يهدف إليها في هذا الكتاب، هذا المبدأ هو أن يسعى الإنسان إلى التخلى عن

قيود الزمن وعن الصفات الأنانية وأن يتطلع إلى حياة أرحب وأشمل، يحس معها بأنه لا ينتمي إلى إقليم معين، أو زمن بعينه وإنما إلى الإنسانية بأسرها، وأن يكون سلوكه في المواقف المختلفة متمشيًا مع الإيمان.

سيرة ومؤثرات

هو برتراند آرثر ويليام راسل المولود في الثامن عشر من شهر مايو في عام ١٨٧٢،في أسرة شهيرة تنتمي إلى الفرع الأصغر من نبلاء بيدفورد. وجده لأبيه هو اللورد جون راسل الذي اشتهر بدعوته لقانون الإصلاح في عام ١٨٣٢، وهو القانون الذي كان بمثابة الخطوة الأولى في طريق إضفاء الطابع الديمقراطي على البرلمان الإنجليزي. وقد شغل اللورد جون منصب رئيس الوزراء مرتين، الأولى من ١٨٤٦ إلى ١٨٥٢ و الثانية من ١٨٦٥ إلى ١٨٦٦، ومنحته الملكة فيكتوريا لقب إيرل.

أما جد راسل لأمه فهو اللورد ستانلي أوف ألديرلي، وكان حليفا سياسيا للورد جون. وكان والدا راسل زوجين مثيرين للجدل؛ نتيجة لالتزامهما بالقضايا التقدمية مثل تنظيم الأسرة وحق التصويت للنساء.

وقد تُوفِّيتْ أم راسل وأخته إثر إصابتهما بمرض الدفتيريا في ١٨٧٤ حين كان في الثانية من عمره، وتُوفِّي أبوه بعد ذلك بثمانية عشر شهرًا. كان أمبيرلي قد خصَّص اثنين من اللاأدريين أوصياء على أبنائه ولكن جديه، الإيرل راسل وزوجته، رفضا رفضًا قاطعًا، ورفعا دعوى لإسقاط وصية أمبيرلي، وأخذا أحفادهما ليقيموا معهما في منزلهما في بيمبروك لودج، وهو منزل ملكي يقع في حديقة ريتشموند بارك.

وتُوفِّي جده بعد ذلك بثلاث سنوات فقط، وأصبح برتراند خاضعًا تمامًا لتأثير جدته المتزمِّتة التي تعتنق مذهب الكنيسة المشيخية الاسكتلندية، وكانت ابنة إيرل أوف مينتو الثاني. وغالبًا ما يمكن تفسير شخصية راسل، بالرجوع إلى أصوله الأرستقراطية؛ ولكن التكوين الأوَّلي لشخصيته جاء نتيجة المذهب البيوريتاني المتشدد الذي كانت تعتنقه جدته، وهو المذهب الذي كان يميز الطبقة الوسطى أكثر مما كان يميز الطبقة العُليا الأرستقراطية في العصر الفيكتوري.

وقد كتبت له جدته على الصفحة البيضاء في مقدمة الكتاب المقدس الذي أهدته إياه في ذكرى ميلاده الثانية عشرة نصًّا من أهم النصوص المفضلة لديها: "لا تتبع الكثيرين إلى فعل الشر"، وظل هذا النص من المبادئ التي ظل يتبعها راسل طوال حياته.

وراسل في كتابه "الطريق إلى السعادة " يستعيد تجربته ابتداء من طفولته التعيسة، والتي ترجع تعاستها إلى تزمت الجدة وفرضها التعاليم البيوريتانية عليه، فيقول في الكتاب: "مثل الآخرين الذين تلقوا تربية بيوريتانية كان لديّ عادة التأمل في خطاياي وحماقاتي وعيوبي، ولقد بدوت لنفسي بلا شك شخصًا بائسًا.

وتدريجيًّا تعلمت كيف أكون غير مبالٍ تجاه نقائصي، وتوجهت لتركيز انتباهي كليًّا على أمور خارجية: على العالم، وعلى فروع المعرفة المختلفة، وعلى الأشخاص الذين أشعر نحوهم بالحب.

والأمور الخارجية لها أسباب ألمها الخاصة بها؛ فالعالم قد يكون غارقًا في الحروب، وتحقيق المعرفة قد يكون صعبًا، والأصدقاء قد نفقدهم بالموت، غير أن آلامًا من هذا النوع لا تدمر المزية الأساسية للحياة مثلما تفعل تلك الآلام الناشئة عن اشمئزاز الإنسان من نفسه".

الطريق إلى السعادة

هذا الكتاب من أكثر كتب برتراند راسل انتشارا، فمنذ صدور طبعته الأولى والقراء يقبلون عليه فتعددت طبعاته، وهو الأمر نفسه الذي تكرر في كل اللغات التي ترجم لها، ومنها العربية، وقد ترجم إليها أكثر من مرة وصدرت كل ترجمة باسم مختلف، فهناك "الطريق إلى السعادة" وهو عنوان الترجمة الأولى الصادرة في القاهرة في عام ١٩٥٨، قبل أن تتعدد الترجمات والعناوين مثل غزو السعادة، والفوز بالسعادة، وانتصار السعادة، فالسعادة هي موضوع الكتاب وهي سر رواجه باعتبارها هدفا منشودا من كل البشر.

ويبدأ راسل كتابه بمفتتح قصير جدا، يقرر فيه أن يكف عن أن يكون فيلسوفًا، وأن يتكلم عن تجربته الخاصة في السعادة. فيتناولها بطريقة شاملة يجتمع فيها الحس الأدبي بالتحليل النفسي بالتأمل الفلسفي. ويبلغ به التواضع مبلغا كبيرا حينما يقول: "لا توجد فلسفة عميقة ولا معرفة واسعة في الصفحات التالية من الكتاب، وإنما بعض الإشارات المستوحاة مما آمل أن يكون إدراكًا سليمًا".

ويوضح دافعه للبحث في موضوع السعادة تحديدا بقوله "في مثل هذا العالم المليء بالمشكلات مما يمكن تلافيه ولا يمكن تلافيه، والمرض، والأزمات النفسية والصراع والفقر وسوء النوايا مثل ذلك العالم يحتاج فيه الإنسان حتى يكون سعيدًا إلى إيجاد طريقة للتغلب على المسببات المتعددة للتعاسة، والتي تهاجم كل إنسان".

ويوضح هدفه بقوله: "إن غرضي من الكتاب هو التماس علاج لتلك التعاسة اليومية العادية التي يعاني منها معظم الناس في البلاد المتحضرة، والتي مع عدم وجود سبب خارجي لها لا يطيقها الناس؛ لأنها تبدو لهم وكأن لا مفر منها. وأنا أؤمن أن هذه التعاسة منشؤها إلى حد كبير الأخطاء المتعلقة بالنظرة إلى العالم، والأخلاق، والعادات الحياتية بما يحطم اللذة الطبيعية تجاه الأمور الممكنة والتي تعتمد عليها بشكل كبير سعادة الإنسان أو الحيوان. هذه الأمور تقع في مستطاع الفرد العادي، وما أنويه هو أن أقترح التغييرات التي يكون من خلالها في مقدور الفرد، ومع توفر مقومات معقولة للحياة، أن يحقق سعادته".

ويرى برتراند راسل أن تحقيق السعادة ليس أمرا سهلا، ولذلك فهي تحتاج إلى ما يشبه الغزو لتحقيقها. وكما يقول "فالسعادة ليست شيئًا كالثمرة الناضجة التي تسقط في فمك بفعل المصادفات السعيدة".

والكتاب ينقسم داخليا إلى قسمين أولهما عن أسباب التعاسة باعتبارها غيابا للسعادة، ويرى أن نمط الحياة المعاصرة في المجتمعات الحديثة مسؤول بشكل كبير عن حالة التعاسة العامة، ويرى أيضا أن الانهماك في الذات إلى درجة تجاهل ما سواها تحدث لدى الشخص

الذي يرتبط بعدة اضطرابات نفسية متنوعة، مثل الاكتئاب والقلق والنرجسية لأن مثل هذا التركيز يبعث بأفكار وإحساساتٍ نفسية شديدة السلبية عندما يكون هناك ما يهدد الذات حتى لو كان أمرًا يحدث لكل الناس، ككلمة قاسية أو خسارة مالية متوقعة أو شعور بالذنب.

وللتعاسة مسببات كثيرة، يعالج الكتاب منها منها التعاسة باسم الفهم العميق، والمنافسة، والسأم والحسد والشعور بالإثم والتعب وهوس الاضطهاد، والخوف من الرأي العام.

أما القسم الثاني، فهو عن موجبات السعادة، وعنوانه "هل السعادة ما تزال ممكنة؟، ويرى راسل أن السعادة الإنسانية ما زالت مستطاعة على ألا نفرض لها شكلًا واحدًا، فإمكانات السعادة متعددة، وأمرها بسيط نسبيًّا، إن تخلصنا من أي فكرة مسبقة تحجب عن أعيننا مثل تلك البساطة. والسعادة لديه نوعين توجد بينهما درجات وسطى، النوعان أحدهما حيواني والآخر روحاني، ويقول "ولعل أبسط طريق لوصف الفرق بين النوعين من السعادة هو القول بأن نوعًا منهما متاح لأي إنسان بينما النوع الآخر متاح للذين يمكنهم القراءة والكتابة فقط، فعندما كنت صبيًا عرفت رجل كان يتفجر سعادة وكان عمله هو حفر الآبار، ولقد كان طويلا جدًا وله عضلات غير معقولة، ولم يكن يستطيع القراءة أو الكتابة، وعندما سمح له في عام ١٨٨٥ بالإدلاء بصوته في انتخابات البرلمان علم لأول مرة بوجود مثل هذه المؤسسات.

لم تعتمد سعادته على مصادر فكرية، ولم ترتكز على الاعتقاد في القانون الطبيعي، أو كمال الأنواع أو ملكية العامة للمنافع العامة أو الانتصار الحتمي للسبتيين أو لأي من الطوائف الأخرى، وهى الأمور التي يعتبرها المفكرون ضرورية لاستمتاعهم بالحياة، كانت سعادته تعتمد على القوة البدنية، والكفاية من العمل، وفي التغلب على العقبات غير المنيعة في صورة صخرة".

ومن أهم أسباب السعادة من وجهة نظر الكتاب ومؤلفه يتمثل في الاهتمام بالآخرين، وعن ذلك يقول راسل: "يجب أن يكون الاهتمام بالآخرين طبيعيًا، وألا ينبثق من فكرة التضحية بالذات التي يحتمها الإحساس بالواجب. فالإحساس بالواجب يكون مفيدًا في العمل ولكنه يكون عدائيًا في العلاقات الشخصية. إذ يرغب الناس في أن يكونوا محبوبين وليسو محتملين باستسلام صبور، وربما كان حب كثير من الناس تلقائيًا وبدون مجهود أعظم مصادر السعادة الشخصية".

د. ناجي توفيق

مفتتح

لا تتضمن صفحات هذا الكتاب شيئًا يحتاج فهمه إلى فلسفة عميقة، أو علم واسع؛ لأني لم أقصد من كتابته إلى هؤلاء القوم الذين يعدون أنفسهم من الخاصة، أو إلى أولئك الذين يعتبرون المشاكل العملية موضوعًا جذابًا للثرثرة وتبادل الحديث، وإنما قصدت من كتابة هذا الكتاب إلى إظهار بعض الآراء التي نتجت – فيما أعتقد – عن شيء من الحس والذوق العام.

وأستطيع أن أقول أني آمنت بهذه الآراء عن خبرة، بعد أن طبقتها على تجاربي الشخصية، وأني اقتربت من السعادة حين لاءمت بينها وبين حياتي الخاصة.

وإن هذا ليبعث في الأمل في أن يجد هؤلاء الملايين من الرجال والنساء الذين يساورهم الشقاء في حياتهم طريقًا واضح المعالم نحو حياة أفضل وأكثر إنتاجًا.

برتراند راسل

الجزء الأول

أسباب التعاسة

ما الذي يتعس الناس؟

يشعر الحيوان بالسعادة حينما يتوفر له الغذاء الكافي، وكذلك يجب أن يتمتع الإنسان بالسعادة حين تسد هذه الحاجات، ولكن الواقع عكس ذلك في معظم الأحيان. فإذا كنت شقيًا فإن هناك ما يدعوك إلى أن تعتقد أنك لست فريدا في هذا الشعور، أما إذا كنت سعيدًا فلتسأل نفسك كم من الأصدقاء يشاركك هذا الأحساس؟ فإذا أتممت عرضك لأصدقائك، فلتعلم نفسك الفراسة؟ ولتنظر في وجوه الناس الذين تلتقي بهم في يوم من أيامك العادية، وقديمًا قال الشاعر بليك: في كل وجه من الوجوه التي أراها أستطيع أن أتبين علامات الضعف وإمارات الأسى وإنه وإن تميزت هذه العلامات بعضها عن البعض الآخر، فإنها تجتمع حول مدلول واحد؟ هو الشقاء.

فإن سرت ذات يوم قليلًا في الميدان الرئيسي خلال عطلة نهاية الأسبوع، أو غشيت حلقة من حلقات الرقص ذات مساء، وتناسيت كل شيء عن نفسك وإحساسك بذاتك، حينذاك ستدرك أن كل فرد من هذه الجماهير له مشكلته الخاصة.

ففي ساعات العمل ستلتقي بأناس يشعرون بالقلق، والتوعك قد استولى عليهم الكفاح في سبيل العمل، فهم لا يحسون ميلًا إلى المرح كما لا يولون رفقاءهم أي انتباه. وإذا خرجت إلى الطريق العام خلال يوم من أيام اجازتك، استطعت أن تتبين جماعات مُختلفة من الرجال

والنساء، كل منهم قد اتخذ مظهرًا حسنًا، ومظهر البعض منهم يدل على الثراء العظيم، وقد شغلوا جميعًا في متابعة اللذة والسرور، وجميعهم في ذلك يسيرون على وتيرة واحدة، هي الوتيرة التي تسير عليها أبطأ سيارة في موكب ضخم من السيارات، ذلك أن قائد هذه السيارة لا يستطيع أن يتبين شيئًا مما حوله؛ لأنه إذا التفت يمنة أو يسرة فمعنى ذلك وقوع حادثة، وينتج عن ذلك أن قائد كل سيارة في الموكب له هن واحد هو أن يتقدم السيارات الأخرى، ومع ذلك فمن المحقق أنه لا يستطيع ذلك لازدحام المكان.

وأسباب الشقاء على اختلاف مظاهره ترجع أولًا إلى النظام الاجتماعي ثم إلى التكوين النفسي للفرد وهو بطبيعة الحال خاضع لتأثير النظام الاجتماعي. ولقد سبق أن تناولت في بعض كتاباتي التغيرات التي يجب أن تشمل المجتمع لتحقيق السعادة، ولا أود أن أتحدث في هذا الكتاب عن مشاكل الحرب، والاستغلال الاقتصادي، ولا عن نظم التعليم المختلة، فأنه مما لا شك فيه أن الحاجة أصبحت ملحة في هذا العصر إلى وسيلة من الوسائل لمنع الحرب ولكن تحقيق ذلك يعد مستحيلًا في مجتمع يؤمن رجاله بأن الموت أفضل لديهم من الحياة، كما أن محاربة الفقر أمر ضروري، ولكن ما هي الفائدة التي نجنيها إذا حققنا الثروة لكل إنسان بينما يعاني الأغنياء في حياتهم بعض ألوان الشقاء أما بالنسبة لنظم التعليم المختلة فأنه لا يرجى من رجال نشأوا في ظل هذا النظم أن يحيدوا عنها.

كل هذه الاعتبارات تدعونا لتركيز اهتمامنا في مشاكل الفرد، وأن نسأل أنفسنا عن الخطوات التي يجب أن يتبعها رجل أو إمرأة تعيش في هذا المجتمع المضطرب لتحقيق السعادة؟ وسأقصر حديثي حين أتناول الإجابة على هذا السؤال في هذه الصفحات على أولئك الأشخاص الذين لا يعانون فقرًا مدقعًا يشل حياتهم شللًا تامًا، وإنما سأفرض أن لكل منهم دخلًا يستطيع أن يسد به حاجته، كما سأفرض أنه يتمتع بصحة عادية تمكنه من قضاء أموره بنفسه.

ولن أتناول في هذه الصفحات الموضوعات التي تتصل بالكوارث الفادحة كأن يفقد المرء كل أبنائه أو يدنس شرفه، فتلك موضوعات ينبغي أن يفرد الإنسان لها بابًا خاصًا في الحديث، وهي موضوعات مهمة ما في ذلك شك، ولكنها تخرج عن نطاق حديثنا في هذا الكتاب، وإنما نود في هذه الصفحات أن نعالج هذا الشعور بالشقاء الذي يعانيه سكان البلاد المتحضرة في حياتهم اليومية، والذي لا يعرفون له أسبابًا ظاهرة.

ويرجع هذا الشعور أولًا وقبل كل شيء إلى الفهم الخاطئ لحقائق الكون، وإلى إتخاذ بعض المثل الأخلاقية الجوفاء، واصطناع بعض الأساليب التي لا هدف لها في الحياة، وكل هذا يؤدي من غير شك إلى تحطيم أي شعور بالبهجة أو الارتياح عند القيام بعمل ما، ذلك الشعور الذي لابُد منه، والذي يتوقف عليه إلى حد كبير اتجاه الإنسان إلى السعادة، ويستطيع الفرد أن يغير بما له من قدرة كامنة هذا الفهم الخاطئ للحياة، وأن يتغلب على هذه المثل الجوفاء، والتقاليد البالية، ونحن هنا في هذا الكتاب نقترح بعض الوسائل التي يستطيع الإنسان أن يتخذها

للتغلب على مثل هذه المشاكل.

ولعل أبلغ مقدمة يمكن أن أقدم بها لهذه الفلسفة التي أدعو إليها هو أن أبدأ بالحديث عن نفسي، فإني لم أولد سعيدًا، وعندما بلغت الخامسة كان يخطر لي أني لو عمرت إلى السبعين، فمعنى ذلك أني ذقت حتى الآن جزءًا من أربعة عشر جزء من حياة ستكون من غير شك مليئة بالشرور والاضطراب.

ولما مررت بمرحلة المراهقة كنت أمقت الحياة مقتًا شديدًا حتى أني فكرت مرات ومرات في الانتحار، ولم يمنعني من ذلك إلا أني كنت أميل ميلًا شديدًا إلى تعلم الرياضة والحساب، أما الآن فإني أجد في الحياة متعة تزداد على مر الزمن، ويرجع ذاك – إلى حد ما – إلى أني تبينت الأشياء التي كنت أرغب في تحقيقها رغبة شديدة، وإلى أن تمكنت تدريجيًا من تحقيق هذه الأشياء، كما يرجع إلى أني تمكنت من أن ألغي من نفسي إلغاء بعض الأشياء التي كنت أتمناها، وذلك بعد أن ثبت أن تحقيقها شيء بعيد المنال.

غير أن هذه المتعة ترجع في أساسها إلى أني لا أشغل بالتفكير في نفسي إلا قليلًا، ولقد كانت النشأة المتزمتة التي نشأتها جديرة بأن تحملني على التفكير في خطاياي، وهفواتي ونقائصي والواقع أنه كان يبدو لي أحيانًا أني امرؤ سيء الحظ للغاية ولكني تعلمت بالتدريج أن أقلل من اهتمامي بنفسي وبنقائصي كما أمكنني أن أتدرب على تركيز اهتمامي في الموضوعات الخارجية، كالموقف الدولي مثلًا، أو في مختلف نواحي المعرفة، أو في الأفراد الذين أشعر نحوهم بعطف خاص.

وإذا كانت هذه الأشياء الخارجية تحمل معها بعض انطباعات الألم، كأن تجتاح العالم حرب مريرة، أو أن يشعر الإنسان بقصور عن إشباع رغبته في المعرفة، أو أن يموت أحد الأصدقاء الأعزاء، فأن هذا النوع من الألم ليس مما يحطم جوهر الحياة بالنسبة للفرد؛ لأن هناك نوعًا واحدًا من الألم من خصائصه أن يفقد الإنسان القدرة على تذوق الحياة، وهو احتقار المرء لنفسه.

واهتمام المرء بما يدور خارج نطاق نفسه، يدفعه إلى القيام بنشاط متعدد النواحي، وهذا النشاط أساس هام من الأسس التي تبعد المرء عن الشعور بالضيق والملل.

أما إذا قصر المرء اهتمامه على نفسه فلن يدفع به ذلك إلى الأمام، وإنما قد يدعوه إلى كتابة اليوميات، أو إلى أن يحلل نفسه تحليلًا ذاتيًا، ومن الجائز أن يدفعه إلى الترهب، وحقيقة الأمر أن الراهب لا يحس بالسعادة إلا إذا أنسته حياة الدير الرتيبة تفكيره في نفسه، وممعنى ذلك أنه كان من الممكن له أن يحس بهذه السعادة التي أحسها في رهبانيته إذا اشتغل كناسًا، أو إذا اتخذ لنفسه عملًا من هذا القبيل.

والنتيجة التي نخرج بها من ذلك هو أن النظام الذي يتخذه الإنسان في حياته هو الوسيلة الوحيدة المؤدية إلى السعادة بالنسبة لأولئك الذين يشغلهم تفكيرهم في أنفسهم عن أي شيء آخر. والاهتمام بالذات له ظواهر متعددة، لعل أبرزها هو الشعور بالخطيئة، والنرجسية وجنون العظمة.

فإذا تحدثت عن الشخص الخاطئ، فإني لا أعني ذلك الرجل الذي يرتكب الخطايا فإن كل فرد منا عرضة لذلك، وإنما أعني ذلك الرجل الذي أخذ به الشعور بالخطيئة كل مأخذ، فإن مثل هذا الرجل يظل يستنزل على نفسه اللعنات، وهو يظن أنها لعنات الله، ذلك أنه يقارن دائمًا بين المثل الأعلى الذي صنعه لنفسه وبين واقع أمره، فإذا رأى الفارق شاسعًا بين وضعه الحالي، وبين الصورة التي اتخذها نبراسًا له منذ أن ولدته أمه؟ فإنه سيشعر دائمًا بالخطيئة، وخاصة إذا انطلق شعوره الباطن تحت تأثير الخمر أو غيرها من المؤثرات، وذلك لأنه لا يزال يؤمن في أعماق نفسه بالتقاليد التي فرضتها عليه بيئته في عهد الطفولة، تلك التقاليد التي حدث من حريته في كل شيء وحرمته عليه أنواعًا من اللذة والسرور، يحبها ويميل إلى مزاولتها، وهو مع ذلك قد يزاول هذه الأنواع وفي نفسه شيء كثير من الألم، يختلط بالأحساس بالضعة، غير أن هناك شيئًا واحدًا تركته له هذه التقاليد ولم تضع له حدًا، وهو الشعور بالرضا والاطمئنان الذي يخالجه حين كانت تداعبه أمه، وطبيعي أن الوقت سيأتي حين يفتقد المرء هذا الشعور فلا يجده، فيضطره الأمر إلى ارتكاب ما يسمى في عرف المجتمع بالخطيئة، ولعله يرتكبها في اندفاع شديد، فإذا شعر هذا النوع من الرجال بالحب، فإنه يطلب من حبيبته حنان الأمومة، ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يتقبل منها هذا الشعور؛ لأنه لا يحترم أي امرأة تنحصر علاقته بها في الناحية الجنسية، وينتهي به الأمر إلى أن يصبح قاسيًا، جافي الطبع، شديد الإحساس بالذنب، ولوم النفس.

ولعل هذا هو الأساس في دراسة نفسية الأحداث والمجرمين، فأن المشكلة تبدأ لديهم بأن يتخيلوا أشياء لا يمكن تحقيقها في الواقع، كحب الأم الذي يوشك أن يملك عليهم حياتهم كلها، وأن يقترن ذلك الحب بمجموعة بالية من التقاليد، وأني لأعتقد أن الخطوة الأولى لتحرير هؤلاء التعساء هي التخلص من هذه المعتقدات ومن سيطرتها القوية على حياتهم ومشاعرهم.

أما إذا تحدثنا عن مرضى النرجسية فأنه في بعض نواحيه على طرفي نقيضي مع مرض الشعور بالخطيئة، وتتلخص أعراض هذا المرض في الإعجاب الدائم بالنفس، وميل الشخص إلى أن يعجب به من حوله وهذا شيء طبيعي في حد ذاته، ولكنه إذا زاد عن الحد المعقول فإنه يصبح مرضًا خطيرًا، فهناك عدد كبير من النساء، وخاصة سيدات المجتمع منهن، قد فقدن أي قدرة على الحب، وأخذتهن رغبة جامحة في أن يوليهن جميع الرجال كل الحب والإعجاب، فإذا أيقنت أي امرأة من هؤلاء أن ثمة رجل يحبها لم تعد تلتفت إليه بعد ذلك؛ لأنها قد أرضت حاجتها بالنسبة إليه، ويمكن أن نقول هذه الحقيقة عن بعض الرجال.

وقد كان هذا الموضوع هو الفكرة التي نسجت عليها قصة بعنوان "علاقات خطرة" تناولت طبيعة الحب بين أبناء الطبقة الارستقراطية في فرنسا قبيل ثورتها، فحيث يبلغ الاعتداد بالنفس بالإنسان مبلغه، يفقد المرء اهتمامه بالأشخاص الآخرين من حوله ومن ثم فأنه يفقد أي رغبة في تبادل العطف والحب مع إخوانه من بني البشر، وقد يدفع إعجاب الناس بالمثالين والرسامين المشاهير مريض النرجسية إلى أن يتخذ من

النحت والرسم دراسة له، ولكن لما كان هذا الفن بالنسبة إليه وسيلة لا غاية، فأن الدراسة في حد ذاتها لا تثير في نفسه أي شعور بالارتياح وتكون النتيجة المحتمة أن يبدأ الإنسان بالفشل وأن يتلقى بدلًا من الإعجاب والتقدير السخرية والاستهزاء.

ذلك أن أهم أسباب النجاح في العمل هو أن يشعر المرء بميل حقيقي نحو عمله، وأن يجد توافقًا بين ميوله، وبين طبيعة هذا العمل الذي يأخذ بأسبابه.

ولعل هذا هو السبب في أن عددًا كبيرًا من الساسة فشلوا في حياتهم، بعد أن كانت البشائر تدل على عكس ذلك، فأن إعجابهم بأنفسهم تملك عليهم شعورهم، بدلًا من أن يوجه هذا الشعور نحو المجتمع الذي يعيشون من أجله ومعنى ذلك أن الرجل الذي يشغل بنفسه عن الناس لا يحوز نقتهم، ولا يشعر الناس بأي إعجاب به، ومن المحقق أنه لن يستطيع أن يدرك أي نجاح نتيجة لذلك، فالغرور حين يجاوز حدًا معينًا يقتل أي شعور باللذة والارتياح يحس به الانسان عندما يزاول أي نشاط، وينتهي الأمر إلى الشعور بالضيق والقلق وينشأ هذا الشعور عامة عن فقدان الثقة في النفس، كما إن علاجه ينحصر في إعادة هذه الثقة، ويكون ذلك بأن يحاول الإنسان بقدر الإمكان أن يكون سلوكه ناتجًا عن دوافع موضوعية بحتة، لا تحددها نفس الفرد وميولها ومشتهياتها.

ويختلف الشخص المريض بحب العظمة عن مريض النرجسية في أنه يرغب في أن يخافه الناس، لا أن يحبوه؛ لأنه يفضل أن يكون شخصًا قويًا مهيبًا لديهم على أن محبوبًا منهم، وإلى هذا النوع من الناس ينتمي عدد كبير من المجانين كما ينتمي إليه أكثر عظماء التاريخ.

على أن حب العظمة في ذاته مطلب طبيعي من مطالب النفس الإنسانية، غير أن نتائجه تسوء إذا زاد عن الحد المألوف، أو إذا إصطدم بوعي غير كامل بالحقيقة الواقعة، وإذا حدث ذلك فأنه سيؤدي بالإنسان إلى حياة شقية تعيسة، فقد يتمتع المجنون الذي يتصور نفسه ملكًا متوجًا بشيء من الإحساس بالرضا، ولكن ليس من شك في أن هذا الإحساس ليس مما يرتضيه لنفسه إنسان عاقل.

وكان الإسكندر المقدوني ينتمي إلى ذلك الضرب من الناس الذين يحبون العظمة، ولكنه افترق عن المجنون في شيء واحد، وهو أنه استطاع بما له من هيبة أن يحقق الأحلام التي تدور في خلده، ولكن هذه الأحلام ظلت تتسع وتتسع حتى خرجت عن الدائرة التي يمكن أن يدور في فلكها النشاط الإنساني، وذلك بعد ما زعم الإسكندر الأكبر لنفسه وللناس أنه أصبح في مصاف الآلهة، بعد أن فاز بانتصاراته الباهرة، ولكن هل كان الإسكندر الأكبر رجلًا سعيدًا؟ لعل هناك من الدلائل ما يشير إلى عكس ذلك، هناك اعتياده الخمر، وثوراته العنيفة الجامحة، وبعده عن النساء، وأخيرًا ادعاؤه الألوهية، كل ذلك من غير شك يدعونا للاعتقاد بأن الاسكندر المقدوني لم يكن سعيدًا، فإن الشعور بالارتياح لا يتولد من تنمية إحدى نوازع الطبيعة البشرية على حساب النوازع

الأخرى، كما إنه لا يتولد إذا اعتبر الفرد هذا العالم ميدانًا فسيحًا جعل له يرضي فيه شعوره بالعظمة.

والواقع أن مجنون العظمة ما هو إلا ضحية لبعض عوامل الاضطهاد الشديد فقد عانى نابليون في حياته الدراسية شعورًا شديدًا بالنقص، وذلك حين كان زملاؤه في المدرسة من أبناء الطبقة الثرية بينما كان هو ينتمي إلى عائلة فقيرة محتاجة، ولما أتيح له فيما بعد أن يصدر أوامره بعودة اللاجئين الفرنسيين الذين هجروا بلادهم خلال الثورة، داخله شعور بالزهو إذا رأى زملاءه السابقين في الدراسة من أبناء الارستقراط يركعون أمامه، ولكن هذا الطموح ساقه إلى طموح أكبر وانتهى به الأمر إلى المنفى في جزيرة سانت هيلينا.

ومن الطبيعي أن تمتلئ حياة الفرد بالمصاعب والعقبات، إذا سيطر عليه الشعور بالعظمة؛ لأنه ما من إنسان يستطيع أن يكون قادرًا على كل شيء ومن ثم فإنه تجاهل هذه الحقيقة يعني في حد ذاته الإصابة بالجنون، وعلى ذلك فإذا عرف الإنسان قدر ذاته فهو سعيد حقًا أما إذا آمن بقوته وعظمته وخرج عن النطاق المألوف فسينتهي به الأمر إلى مأساة مروعة.

الأسباب النفسية للشقاء إذن كثيرة ومتعددة، غير أن هناك عاملًا واحدًا يربط بينهما، فالرجل الشقي حقًا هو ذلك الرجل الذي حرم في شبابه مطلبًا طبيعيًا من مطالب حياته، فكانت النتيجة أنه قدر هذا المطلب بقيمة أكبر مما هو أهل له بالفعل، واندفع بعد ذلك إلى تحقيقه على حساب المطالب الطبيعية الأخرى.

وفي عصرنا الحديث مظهر آخر من مظاهر الشقاء، فهناك صنف من الناس يداخله شعور بالانهيار التام إلى درجة يصعب معها عليه أن يحدد لنفسه وسيلة يصل بها إلى الرضا والمتاع إنما يصبح كل همه في الحياة أن يبقى ممورًا لا ذكر له، وأن يستعين عليها بوسائل تجعله في الواقع في عداد الأموات.

فاحتساء الخمر مثلًا هو إحدى وسائل الانتحار، والنشوة التي يشعر بها الفرد حينذاك إن هي إلا سعادة مؤقتة، أو هي في حقيقة الأمر لحظة يخف فيها شعور الإنسان بالشقاء.

وإذا كان مريض النرجسية، أو المجنون بحب العظمة يؤمنان بإمكان تحقيق السعادة، أو كانا يتخذان لذلك طريق غير سوي، فأن السكير ومن على شاكلته قد فقدوا كل أمل في الوصول إلى السعادة، ولذلك فأن أول خطوة تتخذ في علاجه هو إقناعه بأن السعادة شيء يمكن تحقيقه. ولعل هناك بعض القوم ممن يحسون الشقاء، يباهون بهذه الحقيقة وهم في ذلك أشبه بالثعلب الذي فقد ذنبه، ويمكن أن نقنع هؤلاء بأنه في الإمكان دائمًا أن ننمي ذنبًا جديدًا، فالقليل من الناس من يختار طريق الشقاء إذا خير بين الطريقين، وهم موجودون بالفعل، وإن كان ذلك لا يدعونا إلى أن نعلق أهمية على آرائهم.

ولذلك سأتوجه إلى أولئك الذين يفضلون طريق السعادة، ولست أعلم ما إذا كنت سأصل بهم إلى النهاية المنشودة، ولكنها محاولة لابد منها.

الشقاء البايروني

من الطبيعي في هذه الأيام، أن يفترض الناس أن الحكماء منا هم أولئك الذين يزعمون لأنفسهم أنهم تذوقوا من الحياة كل ما يمكن أن تمنحهم، وأنه لم يتبق شيء بعد ذلك يصلح لأن يكون هدفًا في الحياة، وهؤلاء الناس أشقياء في واقع الأمر، وإن كانوا يباهون بهذا الشقاء، ويعزونه إلى طبيعة الكون، ثم يعتقدون بعد ذلك أن مسلكهم في الحياة هو الاتجاه الذي يجب أن يتخذه لنفسه إنسان يعرف حقائق الأمور، ولعل هذا الارتياح الذي يجدونه في شقائهم هو الذي لا يدع مجالًا لدى بعض الناس للشك في طبيعة هذه السعادة، وقد يكون إحساس هؤلاء الأشقياء بالتفضيل والحكمة عوض عما هم فيه من شقاء، ولكن ذلك لا يعوضهم عما يفتقدونه من إحساس بمباهج الحياة، والواقع أني لا أعتقد أن هناك شيئًا من الفضل في أن يتمتع الإنسان بالشقاء، فالرجل العاقل يود أن يصبح سعيدًا بأكبر قدر تسمح به الظروف، فإذا شعر بأن التأمل في طبيعة الكون سيقود إلى الألم إذا زاد عن حد مُعين، فأنه سيتأمل شيئًا آخر غير هذه الطبيعة، وهذا هو ما أود إثباته في هذا الفصل من الكتاب، إني أود أن أقنع القارئ بأن العقل لا يتعارض مع السعادة مهما كانت الأحوال، بل أكثر من ذلك أود أن أقنعه بأن أولئك الذين يلقون اللوم على طبيعة الكون حين يتحدثون عن الشقاء، إنما يضعون العربة أمام الحصان، ولا يدركون أن شقاءهم يرجع في حقيقة الأمر إلى سبب

خفي لا يشعرون به، وأن هذا هو الذي يؤدي بهم إلى الاهتمام المظلم من العالم الذي يعيشون فيه.

وهذا الاتجاه الذي أود أن أتحدث عنه الآن هو الذي أوضحه الكاتب الأمريكي الحديث جوزيف وود كراتش للأمريكيين المحدثين في كتابه عن المزاج الحديث كما أوضحه للبريطانيين في أوائل القرن التاسع عشر الشاعر بايرون، وأوضحه كاتب سفر الجامعة لبني البشر في العالم. قال كراتش "ليس للإنسان مكان في هذا الكون لأن الهدف الذي نحيا من أجله لا قيمة له، ولكننا رغم ذلك لسنا نادمين على كوننا من البشر، ونفضل أن نموت آدميين على أن نعيش كفصائل الحيوان".

وقال بايرن: لا يستطيع العالم أن يمنح من البهجة شيئًا كتلك التي استردها. وذلك حين يخبو توهج الفكر في ظلمات الشعور. وقال كاتب سفر الجامعة: "لست أدري ما السبب الذي دعاني لامتدح الموتى، وأن أفضلهم على الأحياء الذين ما زالوا يضربون في الحياة. فأفضل من هؤلاء وأولاء أولئك الذين لم تولدوا بعد، لأنهم لم يطلعوا بعد على فنون الشر التي تجري تحت الشمس".

وقد وصل هؤلاء الثلاثة من المتشائمين إلى هذه النتيجة بعد أن عرضوا لمباهج الحياة المختلفة، فقد غشا مستر كراتش أكثر الدوائر ثقافة في مدينة نيويورك وطاف بايرون بالقارة الأوروبية حتى وصل إلى اليونان، كما كان له الكثير من مغامرات الحب، أما كاتب سفر الجامعة فقد تابع اللذة في صور متعددة، عاقر الخمر كما استمتع بالموسيقى،

واتخذ لنفسه برك المياه، كما كان له من الخدم والحشم الكثير ولم تفارقه حكمته خلال كل هذه التجارب، ومع ذلك فقد شعر أن كل ذلك إنما هو هباء، حتى الحكمة ذاتها، ويبدو أن حكمته سببت له بعض الضيق، فحاول أن يتخلص منها ولكنه لم ينجح في ذلك. وإنه لمن حسن طالع الأدباء أن الناس لا يقرأون الآن هذه النصوص القديمة فلولا نهوا إلى أن كل جديد لا فائدة منه؟ وإن كل إنتاج أدبي حديث عديم الجدوى، ولو أننا استطعنا هنا أن نوضح أن ما جاء في سفر الجامعة ليس هو الطريق الوحيد إلى الحكمة، فإن ذلك سيغنينا عن تناول ما كتب بعد ذلك تعبيرًا عن الحالة النفسية التشاؤمية، وهنا يجب أن نفرق من بين ما نعنيه بالحالة النفسية وبين نفس التعبير العقلي لهذه الحالة، فأنت لا تستطيع أن تناقش شخصًا يقيم تحت تأثير حالة نفسية معينة؛ لأن هذه الحالة قد تزايله إثر حادث سعيد، أو بعد تحسن حالته الجسمانية، ولكنك لن تستطيع تغييرها عن طريق النقاش والجدل، ولقد مرت بي فترات من الزمن اعترتني فيها هذه الروح التي يشعر الإنسان معها بأن كل شيء إلى الفناء، ولكني تغلبت عليها لا عن طريق الفلسفة، بل عن طريق الحاجة الملحة إلى العمل والنشاط، فإذا أصيب ابن لك بمرض، فإنه ما من شك في أنك ستشعر بالشقاء، غير أن ذلك لن يدعوك للإيمان بأن كل شيء إلى الفناء؟ بل على العكس من ذلك فإنك ستؤمن بضرورة إعادة الصحة إلى ابنك بغض النظر عما إذا كان للحياة الإنسانية قيمة، أو لم يكن لها هذه القيمة، وقد يخالج الرجل الغني أحيانًا شعور بتفاهة الحياة، ولكن لو حدث أن فقد هذا الرجل ماله، فإنه حتمًا سيبذل الجهد

للحصول على وجبة طعامه التالية.

والواقع أن الشعور بتفاهة الحياة إنما يتولد عندما يحس المرء بأن حاجاته الطبيعية قد سدت بأجمعها؛ لأن الحيوان البشري قد هيئت نفسه لشيء من الصراع في سبيل الحياة، فإذا أصبحت ظروفه المعيشية ميسرة بحيث لا يصبح فيها مجال للصراع، فإن الحيوان البشري إذن سيفتقد عاملًا هامًا من عوامل السعادة، والرجل الذي يستطيع بسهولة أن يحقق الأغراض التي يشعر بالحاجة إليها، يصل دائمًا إلى تحقيق هذه الأغراض ليس هو السعادة، كما ينتهي إلى أن الحياة الإنسانية مقفرة بائسة؛ لأن إشباع الرغبات فيها ليس مقرونًا بالراحة والاستقرار، وهو في هذا ينسى أو يتناسى أن افتقاد بعض الأشياء في الحياة هو أحد الأسس الهامة في الشعور بالسعادة. فإذا أردنا أن نعيد هذه المعاني بالصورة التي قد يكتب بها أحد الفلاسفة المحدثين لكانت كما يلي:

إن الإنسان في نشاط دائم، كما أن المادة في حركة دائمة، ولكن كل شيء زائل، وإن كانت الأشياء الجديدة لا تختلف في قليل أو في كثير عما سلفها، وأن الإنسان ليموت ويأتي خلفه لينتفع بما أتى من أعمال، وإن الأنهار لتجري إلى البحر، غير أن مياهها لا تبقى هناك في ثبات، وهكذا تسير الدورة، يولد الرجال والأشياء ليموتوا دون أي تقدم، ودون أن ينتجوا شيئًا أزليًا، وتمر الأيام والأعوام، ولو أحسنت الأنهار لتوقفت عن الجريان، ولو أحسن سليمان لما زرع شجر الفاكهة لينتفع به ابنه من بعده.

ولكن إذا تناولنا الأمر من وجهة نظر أخرى لاختلف أشد الاختلاف فقد نسأل أنفسنا ألا يوجد حقًا شيء جديد تحت الشمس؟ إذن ما هذا الحديث عن ناطحات السحاب، وعن الطائرات، وعن الأحاديث الإذاعية التي يتقدم بها السياسيون؟ وماذا كان يعلم سليمان عن كل هذه الأشياء؟

فلو أنه سمع عن طريق الإذاعة الحديث الذي وجهته الملكة شيئًا لرعيتها عندما عادت من أراضيه، أما كان ذلك يخفف من شعوره بالوحدة بين شجيراته، ولو أنه امتلك إحدى وكالات الأنباء أما كان يستطيع أن يعلم شيئًا مما يقال عن فنه الهندسي، والنعيم الذي يعيش فيه نساؤه؟ أكان يُمكنه بعد أن يرى هذا كله أن يقول ألا شيء جديد تحت الشمس؟ ومن الجائز ألا يكون لهذه الأشياء وتأثيرها في تحويله عن التشاؤم، وإنما قد تتخذ الروح التشاؤمية عنده تعبيرًا آخر، والواقع أن أحد دوافع التشاؤم عند مستر كراتش هو امتلاء العالم بالمستحدثات، فإذا كان إقفار العالم من الأشياء الجديدة أو امتلاؤه بها يدفع إلى القلق فأن ذلك سيقودنا حتمًا إلى الاعتقاد بأن كلا السببين لا يؤدي إلى الشقاء.

ولنعيد النظر مرة أخرى في القاعدة التي اتخذها كاتب سفر الجامعة أساسًا لليأس وهي "أن الأنهار تصب في البحر، ولكن البحر لا يمتلئ، وأن الأنهار تعود إلى المكان الذي بدأت منه"، تقول هذه القاعدة أن الترحال شيء ممل ولكن الناس يرحلون إلى المصيف في الصيف، ثم يعودون إلى حيث كانوا في الشتاء، غير أن ذلك لا يعني أن ارتياد

المصايف أمر يقع في غير محله، ولو قسم للمياه أن تحس وتشعر، لكان من المحقق أنها ستستمتع بالرحلة كما استمتع بها السحاب في إحدى قصائد شللي المشهورة، وإذا تناولنا ما يقوله مؤلف سفر الجامعة عن الألم الذي يخالج الإنسان عندما يحس أنه سيترك كل شيء في العالم لمن سيخلفه، فهناك أمران ينبغي الإشارة إليهما، أولهما أنه ما من شك في أن الوريث سيشعر بشيء من الرضا لما تملكت يداه، كذلك لا ينبغي اعتبار الزوال في ذاته أساسًا للتشاؤم إلا إذا حلت أمور أسوء من الأمور التي مضت، أما إذا تبدل الحال إلى حال أحسن فهناك سبب قوي يدعو إلى التفاؤل لا إلى التشاؤم، ولكن ماذا يكون الأمر إذا تساوت الأشياء الذاهبة مع الأشياء القادمة كما يفترض سليمان؟ ألا يدعونا ذلك إلى الاعتقاد بأنه لا قيمة للحياة؟ الواقع أن المسألة على العكس من ذلك، ويمكننا ادراك هذه الحقيقة إذا ألغينا تلك العادة الخاطئة، عادة النظر إلى المستقبل، وتقييم الحاضر بمقدار ما يقدمه بين يدي المستقبل، فقيمه الكل من قيمة الجزء، ولا يمكننا أن نقيس الحياة بالقياس الذي نقيس به إحدى المسرحيات التي يمر فيها البطل والبطلة بسلسلة من الأحداث والتجارب التي تنتهي آخر الأمر إلى نهاية موفقة سليمة، فأنا أعيش اليوم لآخذ بحظي في الحياة، وغدا يتبعني ابني لينال حظه في الحياة، ثم يتبعه ابنه بعد ذلك، هذا هو الموقف، إن المأساة في حقيقة الأمر تأتي من عكس ذلك، فإذا عشت أنا إلى الأبد فإن مباهج الحياة ستعقد لذتها بالنسبة إلي، أما والحالة هذه، فأن هذه المباهج ستظل دائمًا ناضجة.

لقد أدفأت يداي أمام نار الحياة

وقد خبت هذه النار فأنا الآن على أهبة الرحيل.

وإذا كان للعقل أن يتحكم في الميول والعواطف، فهناك من الأسباب ما يدعونا إلى التفاؤل، كما يدعونا بعض الأسباب إلى التشاؤم.

سفر الجامعة إذن يتضمن بعض عناصر المأساة ويتناول مستر كراتش في كتابة عن "المزاج الحديث" الناحية العاطفية في الموضوع، ولعل أهم دوافع الحزن عند كراتش هو تداعي بعض المثل إلى وضعت أسسها خلال العصور الوسطى.

يقول كراتش: "أما عن العصر الحديث، التعس، الذي تسيطر عليه أشباح قدمت من العالم الفاني، فأن مثله مثل المراهق الذي لم يتعلم بعد كيف يلائم نفسه مع بيئته دون أن يعتمد على ذكريات طفولته". ولعل هذه الحقيقة صحيحة بالنسبة لطبقة بعينها نالت حظًا من المعرفة بالأدب، والتي لم تطلع على تطور العلم الحديث، ودربت منذ الصغر على أن نقيس معتقداتها بمقياس العاطفة، ولا تستطيع هذه الطبقة أن تتخلص من رغبتها من الأمن والطمأنينة، وهي رغبة لا يمكن تحقيقها في العالم الحديث.

هُناك إذن فكرة سيطرت على كراتش وأمثاله من الأدباء، وهي أن العلم لم يف بالوعود التي تقدم بها، ولايدلنا كراتش عن ماهية هذه الوعود، وإن كان يعتقد – فيما يبدو– أن بعض المفكرين من أمثال داروين وهكسلي توقعوا مُنذ ستين سنة أن يصل العلم إلى نتائج سيئة، ولكنه لم يصل إليها، أما أنا فأعتقد أن هذه فكرة خاطئة من أساسها،

فكرة اختلقها بعض الكتاب ورجال الدين ليوحوا إلى العالم أنهم يقومون بعمل جليل الشأن.

غير أنه لا يمكن أن ننكر أن العالم ملئ بالمشائمين في الوقت الحاضر، وكان قد العالم كذلك في الفترات التي قل فيها دخل الفرد، ومستر كراتش رجل أمريكي، وقد زاد دخل الأمريكيين بصفة عامة خلال الحرب، أما في القارة الأوروبية فقد ذاقت الطبقة المثقفة مرارة كبيرة، كما داخل كل فرد شعور بعدم الاستقرار، ولعل هذه الأسباب الاجتماعية تتدخل في التأثير على روح العصر أكثر مما تتدخل المعتقدات التي تسود العصر حول ماهية الكون وطبيعته، وقليل من العصور ما يفوق القرن الثالث عشر في اليأس والتشائم، رغم أن الإيمان الذي يندبه اليوم مستر كراتش كان متأصلًا في ذلك الوقت في نفوس الناس،إذا استثنينا الامبراطور وبعض حاشية من الايطاليين، وكذلك قال روجرز باكون: إن الخطايا تنتشر في هذه الأيام أكثر مما كانت منتشرة في العصور الماضية، والخطيئة شيء يتعارض مع الحكمة، وإذا عرضنا لما يحدث في العالم، وفحصناه فحصًا دقيقًا، لرأينا الانهيار التام الذي يبدأ من الرأس، فالرذائل تلطخ البلاط، كما يسيطر عليه الجشع، وإذا كان هذا هو الحال مع رأس القوم، فما بالك بالقوم أنفسهم، أنظر إلى القسس وكيف أنهم يجرون وراء المال، ويتركون عملهم الأصلي وهو شفاء الأرواح، تعال بنا لنرى رجال الدين دون أن نستثني أحدًا منهم، إنهم متكبرون بخلاء، يرتكبون المعاصي، وحينما اجتمع بعض القسس ككما هو الحال في باريس وأكسفورد نشروا في عامة الناس روح الشجار

والخلاف، وهم لا يبالون ما يعملون ما داموا يشبعون نزواتهم، وتحدث باكون عن الحكماء الوثنيين في العصور القديمة فقال "لقد كانت حياة هؤلاء أحسن من حياتنا، لقد كانوا مهذبين يكرهون العالم بما فيه من لذات وثراء وترف، وهذا ما نستنتجه قراءة ما كتبه أرسطو، وسنكا وتولي وابن سينا والفرابي، وأفلاطون وسقراط وغيرهم، وهكذا استطاع هؤلاء أن يصلوا إلى أسرار الحكمة وأصول المعرفة" ويمثل رأي روجرز بيكون اتجاه معاصريه من رجال الأدب، وكلهم كان يغاير العصر الذي عاش فيه مغايرة تامة، ولست أزعم بالمرة أن هذا النوع من التشاؤم كان له أساس متيافيزيقي، وإنما كل أسبابه تتلخص في الحرب والفقر والعنف.

ويتناول كراتش في أحد فصوله الشيقة موضوع الحب، فأهل العصر الفيكتوري كانوا يعتقدون أن الحب شيء عظيم، أما نحن من بني العصر الحديث الذين سفسطوا كل شيء، فقد أخذنا بالتحليل والدراسة.

"فكان الحب يمثل بالنسبة لأكثر الفكتوريين ارتيابًا – بعض عناصر الإله الذي افتقدوه، وكان كفيلًا بأن يحول أشدهم عنادًا إلى التصوف كما كان يثير فيهم إحساسًا بالجلال، لا يثيره فيهم أي شيء آخر، ذلك أنهم يدركون في أعماق نفوسهم أن للحب عليهم واجب الولاء، وكان الحب – كالإله – يتطلب منهم كل أنواع التضحية، وكالإله أيضًا كان يثيب المؤمن فيتيح له فهمًا صحيحًا لمظاهر الحياة المختلفة، أما نحن فقد اعتدنا أن نرى العالم بغير إله، ولكننا لم نتعود بعد أن نعيش في عالم بغير حب، وإذا عشنا لنرى مثل هذا العالم فإننا حينذاك سندرك ما هو الإلحاد".

وتختلف صورة العصر الفكتوري عند الشباب المعاصرين عن صورته بالنسبة لأولئك اللذين عاشوا فيه بالفعل، ولا زالت أذكر سيدتين عجوزين تمثلان ناحيتين مختلفتين للعصر، عرفتهما في شبابي، كانت أولاهما من المتطهرين .. أما الثانية فكانت من مدرسة فولتير، كانت الأولى تأسف لأن طائفة كبيرة من قصائد الشعر تتناول موضوع الحب وهو في رأيها موضوع سخيف أما الثانية فكانت تقول (ما من إنسان يستطيع أن يعارضني فيما أقول فأنا أفترض أنه ليس هناك حرج في ألا يتبع الإنسان الوصية السابعة أو السادسة وعلى كل حال فالمسألة تتطلب موافقة الجانب الآخر.

وكلا وجهتي النظر هاتين لا تشبه ما قاله كراتش، ووصفه بأنه رأى الفكتوريين ومن الواضح أن أراءه مشتقة مما كتبه بعض الكتاب الذين لا يمثلون البيئة التي نشأوا فيها، ولعل واحدًا منهم –على ما نعتقد– هو روبرت براوننج، وإن كنت لا أستطيع أن أقاوم اعتقادي بأن هناك شيئًا عقيمًا في طبيعة الحب عن هذا الشاعر.

شكرًا الله، فأن أحقر مخلوقاته

له روح ذات جانبين، أولهما لمواجهة العالم

والثاني لمواجهة المرأة التي يحبها

وهو في هذا يفترض أن الاتجاه العدائي هو الاتجاه الوحيد الذي يمكن أن يتخذه المرء نحو العالم، وحين نسأله لماذا؟ يقول براوننج إن السبب هو قسوة العالم، أما نحن فنقول أن السبب في ذلك هو أن العالم لا يمكن أن يقبلك كما ترى نفسك وقد يتبادل فردان شعور

الإعجاب كما فعل براوننج وزوجه كما إنه من الأشياء الطيبة أن يشعر أن هناك فردًا آخر يطري عمله سواء استحق هذا الإطراء أم لم يستحقه، غير أنه ليس من شك أيضًا في أن براوننج نفسه أحس أنه أمرؤ ذو رجولة حين هاجم فتزجرالد في عبارات تفوق الحد بعد أن جرؤ فتزجرالد على ألا يعجب بقصيده أوررا لي كتبها التي زوج براوننج.

فأنا إذن لا أعتقد، ولا أستطيع أن أعتقد أن توقف ملكات النقد عند الجانبين أمر محبب، فهي هنا تقوم على الخوف وعلى الرغبة في أن يجد المرء ملاذًا بعيدًا عن ضربات النقد الصريح، وهذا الشعور بالارتياح هو نفس الشعور والذي يخالج أولئك الذين طعنوا في السن وظلوا مع ذلك عزابًا يلتمسون الأنس إلى جانب المدفأة.

ولقد عشت مدة طويلة في العصر الفكتوري حتى بلغت درجة لا يمكن معها أن أعد من المحدثين كما وصفهم مستر كراتش، ومع ذلك فأنا لم أفقد إيماني بالحب، ولكن طبيعة الحب الذي أؤمن بهتختلف عن طبيعة الحب عند أهل العصر الفكتوري، إن الحب الذي أؤمن به حب مغامر ولكنه مفتوح العينين، يسمح بوجود الخير، ومع ذلك فهو يسمح أيضًا بوجود الشر، وهو حب ليس بالقدسي المطهر، الواقع أن إلحاق صفات القداسة بالحب إنما جاء عند الفكتوريين من إيمانهم العميق بحقيقة معينة، وهي أن كل ما يتعلق بالحب يعد شرًا، وهم لذلك قد بالغوا في الصفات التي يمكن إلحاقها بالحب حتى يصبح شيئًا مقبولًا لديهم،ففي ذلك الوقت كان الكبت الجنسي أشد مما هو عليه الآن، ومن هنا بالغ الناس في أهمية الجنس، أما الآن فأننا نمر بفترة تعاني شيئًا

من الاضطراب، فقد خلف الناس وراءهم معتقداتهم القديمة، دون استبدالها بأخرى وهم لذلك في حيرة يزيد فيها أن المثل القديمة ما زالت كامنة في أعماق نفوسهم، فإذا صادفتهم المشاكل انتابهم اليأس والألم المضني.

ولست أعتقد أن عدد هؤلاء القوم كبير، وإن كنت أعتقد أن منهم أفرادًا مذكورين، وإذا قارنا بين طبقة الميسورين من الشباب في القرن الحالي وبين هذه الطبقة خلال العصر الفكتوري وجدنا أن الشباب المعاصر أكثر سعادة مما كان عليه الشباب منذ ستين سنة، وأكثر تعمقًا في فهم قيمة الحب، ومن الأسباب التي تدعو بعض الناس إلى التجهم أسباب ترتبط بسيطرة المثل العليا القديمة على وجودهم اللاشعوري وافتقادهم لنظام أخلاقي معقول يستطيعون به تنظيم سلوكهم، وعلاج هذا الشعور لا يكون بالبكاء على الماضي، ولكن بتقبل الحاضر في شجاعة، وبالعزم على اقتلاع التقاليد والمعتقدات البالية من أصولها المختفية في نفس الإنسان.

وليس من السهل أن نوجز الأسباب التي تدفع الإنسان إلى الإيمان بقيمة الحب، ولكن ذلك لا يمنعنا من المحاولة، فينبغي أولًا أن نعتبر الحب ذاته مصدرًا من مصادر الارتياح أولًا وقبل كل شيء، وهذا أمر ضروري نبني عليه تقديرنا للحب، وإن لم يكن في ذاته أهم وجه من وجوه التقدير.

أيها الحب! إنهم يخطئون في حقك كثيرًا ...

أولئك الذين يقولون أن لذتك مريرة

حين تفوق ثمرتك الجنية كل ما عداها

ولم يقصد الكاتب المجهول لهذه الأبيات أن يجد حلًا لمشكلة الإلحاد أو مفتاحًا لأسرار العالم، وإنما كل ما في الأمر أنه كان يروح عن نفسه.

وكما أن الحب مصدر من مصادر الارتياح، فإن فقدان الحب سبب هام من أسباب الألم.

وتجيء القيمة الثانية للحب من أنه يزيد في قيمة المتع الأخرى، كالموسيقى ومشرق الشمس من وراء الجبال، وأشعة القمر التي تنعكس على سطح البحر.

والرجل الذي لم يمتع نفسه بمثل هذه الأشياء الجميلة وهو في صحبة امرأة يحبها يكون إذن قد حرم نفسه من التأثير السحري الذي تحدثه هذه الأشياء.

أضف إلى ذلك أن الحب عامل هام في تحطيم نطاق الأنا؛ لأنه يتضمن في حد ذاته تعاونًا بيولوجيًا تصبح فيه عواطف الفرد ضرورة لتحقيق الأغراض الغريزية لفرد يكمله، ولقد شهد العالم في فترات مختلفة بعض الفلسفات الفردية المتباينة بعضها نبيل، والبعض الآخر ليس كذلك، فالرواقيون، والمسيحيون الأولون كانوا يعتقدون أن الإنسان يستطيع تحقيق الخير المطلق عن طريق إرادته وحدها أو على الأقل دون أي مساعدة إنسانية أخرى، وآمنت بعض الفلسفات الأخرى بأن القوة

هي هدف الحياة، إذ أن اللذة هي هذا الهدف، وهذه الاتجاهات كلها فردية، بمعنى أن الخير الذي تهدف إليه يفترض تحقيقه في كل فرد على حدة، وليس في الأفراد كمجتمع عام، وهذه في رأيي فلسفات خاطئة، لا من ناحية النظر في الأخلاقي فحسب، بل باعتبارها تعبيرًا عن الجزء العلوي من غرائزنا.

الإنسان يعتمد في حياته على التعاون، والحب هو أول مظهر من مظاهر العاطفة التي تؤدي إلى التعاون، وكل من مارس هذه العاطفة في أي درجة من درجاتها لن يرضى عن تلك الفلسفة التي تعترض إمكان تحقيق الخير المطلق دون الرجوع إلى شريكه في الحب، ومن هنا كانت قوة الحب الأبوي، وإن كان العطف الأبوي في ذاته إنما هو نتاج للحب المتبادل بين الأبوين، وأنا لا أزعم هنا أن الحب في أجل صوره شيء عادي، ولكني أؤكد أن هذا النوع من الحب يظهرنا على بعض القيم التي لولاها لما عرفناها، كما أن له قيمته التي لا يمكن أن يدركها الشك، وإن كان المتشككون الذين لا يستطيعون إدراك هذه القيم يعزون بهذا إلى مذهبهم في الشك.

إن الحـــــب الحقيقـــــي إنمـــا هـــو نـــار أزليـــة

تحتـــرق أبـــدًا فـــي العقـــل لا تضـعف ولا تمـوت ولا تبـرد

ولا تنقلب أبدًا عن طبيعتها

ولأتناول الآن ما ذكره مستر كراتش في كتابه عن المأساة، فهو يقول وأنا لا أستطيع أن أخالفه في هذا القول أن مسرحية ابسن عن "الأشباح" أقل في قيمتها عن "الملك لير" التي كتبها شكسبير.

ويضيف مستر كراتش أنه لو ملك ابسن من القدرة على التعبير أكثر مما له، لما استطاع أن يصل إلى مرتبة شكسبير، فإن ابسن ومعاصريه لم يكن لديهم المادة التي خلق منها شكسبير مسرحياته، كما لم يكن لديهم فهم شكسبير لطبيعة الإنسان، وعواطفه الكبيرة، ولا تصويره للحياة البشرية بما لها من مجال واسع، فأن فهما لله والطبيعة والإنسان قد تضاءل على مر القرون، ولا يرجع ذلك إلى أن إتجاهنا الواقعي في الفن قادنا إلى حصر مجالنا في المستويات الوضيعة من الناس، ولكن هذا المستوى ذاته يعد نتيجة لنفس العامل الذي أدى إلى اعتناقنا المذاهب الواقعية في الفن، تلك المذاهب التي نعلل بها نظرتنا إلى الحياة.

وليس من شك في أن المأساة القديمة التي تتخذ الأمراء، وما يلم بهم موضوعًا لها لا تصلح لعصرنا الحاضر، ولا يرجع السبب في ذلك إلى تدهور في نظرتنا إلى الحياة، ولكن عكس ذلك صحيح فنحن لا نعد الآن بعض الأشخاص بعينهم عظماء في الأرض، بينما يكدح الآخرون من بني البشر ليصنعوا عظمة هؤلاء الأشخاص.

يقول شكسبير:

حـــــين يمــــــوت الفقــــــراء لا نـــــــــرى الشـــــــــهب
غيــــــر أن الســـــماء نفســـــها تلهــــب عنـــد مــــوت الأمــــراء

وفي عهد شكسبير كانت هذه الكلمات تعبر عن اتجاه يعتنقه معظم الناس، كما كان يؤمن به شكسبير إيماناً عميقًا، وعلى هذا الأساس يكون موت سينا الشاعر شيئًا طريفًا، بينما ينطوي موت قيصر وبروتس وكاسيوس على مأساة، ولقد فقد موت الفرد بالنسبة إلينا مغزاه الكوني ذلك لأننا أصبحنا ديموقراطيين لا من حيث المظهر الخارجي فحسب، بل من حيث العقيدة والمبدأ أيضًا، فالمأساة الحقة في العصر الحاضر إذن هي تلك التي تتناول المجتمع لا الفرد مثل من ذلك كتاب لارنست تولر.

ولا أدعي هنا أن هذا الكتاب يساوي في المنزلة أروع الكتب التي كتبت في أزهى العصور الماضية، ولكني أعتقد أنه من الممكن مقارنته بها فهو كتاب نبيل عميق واقعي، يتناول بعض الأفعال البطولية التي تثير عناصر الشفقة والخوف في نفس القارئ فيشعر بالتطهر الذي قال به أرسطو.

وهناك أمثلة قليلة لهذا النوع من المأساة الحديثة، لأنه يجب التخلي أولًا عن الصنعة القديمة والتقاليد البالية على ألا يحل محلها استخدام طرق عادية في الكتابة تدل على شيء بسيط من الثقافة.

فكتابة المأساة تتطلب الإحساس بالمأساة والإحساس بالمأساة معناه الإدراك التام للعالم الذي نعيش فيه، لا عن طريق العقل فحسب بل عن طريق الدم والجسد أيضًا.

ويتحدث مستر كراتش في بعض الأحيان عن اليأس، وأن المرء ليتأثر بعض الشيء لما يؤمن به كراتش من إقفار العالم، وإن كان هذا الإقفار يرجع في حقيقة الأمر إلى أن كراتشي وأمثاله من الفئة المتأدبة لا تستطيع أن تستثير في نفوسها العواصف الدفينة تحت المؤثرات الحاضرة، فهذه المؤثرات ما زالت قائمة، وإن لم يكن ذلك بين الفئة المتأدبة؛ لأن هذه الفئة ليست وثيقة الصلة بحياة المجتمع، وهذه الصلة أمر ضروري إذا كان لعواطف الإنسان أن تتخذ صفة الجدية والعمق اللذين تنبع منها المأساة والحياة السعيدة معًا.

وإلى الشباب الموهوبين الذين يحيرهم شعورهم بالفراغ، والذين يحسون ألا عمل لهم في الحياة أقول: خلوا عن أنفسهم محاولة الكتابة، فاعملوا بالقرصنة أو نصبوا أنفسكم ملوكًا على بورنيو، أو اشتغلوا عمالًا في روسيا السوفيتية، اتخذوا لأنفسكم نظامًا في الحياة يستغرق كل قواكم الجسدية، وأنا لا أوصي كل امرئ بأن يتخذ لنفسه هذا النظام، بل أوصى به كل فرد يقاسي من المرض الذي شخصه جوزيف كراتشي في كتابه، وأنا أعتقد أنه في خلال سنوات من هذه الحياة الشاقة، سيجد الموهوب نفسه مدفوعًا إلى الكتابة، رغم الجهود التي بذلها للإقلاع عنها وحينذاك فقط سيدرك أن لما يكتبه قيمة جديدة حقًا.

التنافس

لو توجهت بالسؤال لأي رجل أعمال في انجلترا عن ذلك العامل الذي يؤثر أكبر الأثر في استمتاعه بالمعيشة لقال: "إنه الكفاح في سبيل الحياة"، وهو يقول ذلك مطمئنًا لما قال مؤمنًا به ولعل هذه الحقيقة صحيحة من ناحية معينة، ولكنها خاطئة من ناحية أخرى شديدة الأهمية، ذلك أن الكفاح في سبيل الحياة شيء طبيعي الحدوث، وقد يحدث لأي منا إذا تعثر حظه.

وقد حدث هذا بالفعل للبطل الذي صوره الكاتب الإنجليزي كونراد واسمه فولك، ذلك الرجل الذي وجد على ظهر إحدى السفن وهو يحمل السلاح مع زميل له دون أن يجدا شيئًا يأكلانه سوى الآخرين من الرجال، وحين استنفذ كل ما لديهما من طعام، بدأ بينهما كفاح حقيقي في سبيل الحياة انتهى بنصر فولك الذي أصبح بعد ذلك رجلًا نباتيًا.

وليس هذا النوع من الكفاح هو الذي يعنيه رجل الأعمال، وهذا التعبير قد اصطنعه رجل الأعمال لنفسه حتى يعطي صبغة الأهمية لشيء تافه في جوهره، ولتسأله كم من الرجال في طبقته مات من الجوع، ولتسأله أيضًا ما الذي حدث لأصدقائه الذين فقدوا ثراءهم؟ إن كل إنسان يعلم أن الذي أصيب في ماله يحيا حياة أكثر اطمئنانًا من حياة ذلك الرجل الذي لم تتح له الفرصة قط ليصبح من الأغنياء والذي يعنيه الناس إذن حيث يتحدثون عن الكفاح في سبيل الحياة هو في الواقع

التنافس على النجاح، ذلك أن الناس لا يخشون خلال هذا الصراع أن يضطرهم الأمر إلى افتقاد وجبة طعامهم التالية وإنما يخشون تفوق أقرانهم عليهم.

وإنه لمن الغريب حقًا ألا يستطيع الناس أن يتصوروا أنهم لا يقعون في حقيقة الأمر تحت سيطرة قوة دافعة لا يستطيعون منها فرارًا، وإنما كل ما في الأمر أنهم لا يدركون أن العجلة التي يرتبطون بها لا تسير بهم إلى الأمام، وأنا أعني حين أقول هذا أن هؤلاء الناس الذين يمكنهم دخلهم من الحياة الرخية، إذا اختاروا لأنفسهم ذلك، ولعلهم يتصورون أن اتخاذ هذا السبيل أمر يدعو إلى الخجل كالفرار نم وجه العدو إبان المعركة، وإذا سألتهم عن الدافع الاجتماعي الذي يحدو بهم إلى العمل المضني، فإنهم لن يحيروا جوابًا.

ولندرس حياة أحد هؤلاء على سبيل المثال، إن له سكنًا مريحًا وامرأة جذابة وأطفالًا وادعين، وهو يستيقظ في الصباح الباكر قبل أن يستيقظ أهل منزله ليسرع إلى محل عمله، وهناك يصطنع سلوك العظمة تمامًا كما يفعل الرؤساء الكبار، فهو يصلب فكيه، ويتخذ طريقة قاطعة في الحديث ويلبس رداء من التحفظ يهدف من ورائه إلى التأثير في كل فرد إلا ساعي مكتبه، وهو يملي الخطابات، ويحادث الشخصيات الكبيرة على التليفون، وهو يدرس السوق، كما يتناول طعام غذائه عادة مع شخص يتعاقد معه أو يود التعاقد على إحدى الصفقات، وتمضي الأمور على هذا النظام طيلة اليوم ثم يصل إلى بيته منهوكًا ليرتدي ملابس السهرة وعليه إذا حان العشاء أن يتظاهر بالاشتراك مع عدد آخر من

الرجال المنهوكين بأنه يجد المتعة في صحبة السيدات ثم أخيرًا يستغرق صاحبنا في نوم يمتد لبضع ساعات قليلة.

ما الذي يعلمه مثل هذا الفرد عن أبنائه؟ إنه يقضي طيلة أيام الأسبوع في مكتبه، أما أيام الآحاد فهو يمضيها في لعب الجولف، وما الذي يعلمه عن زوجته؟ إنه يتركها في الصباح نائمة، أما الأمسيات فهما يقضيانهما في ممارسة الواجبات الاجتماعية التي تمنع من أي حديث ودي مشترك، وليس له من الأصدقاء المقربين أحدًا إلا بعض الرجال الذين يعرفهم معرفة عابرة، إنه لا يعرف من الربيع وجماله إلا المدى الذي يؤثر به ذلك الفصل من السنة على ارتفاع الأسعار وانخفاضها في السوق، ومن الجائز أنه يكون قد زار القارة الأوروبية ولكنه لم يرها في حقيقة الأمر إلا من خلال عينين أثر فيهما الإجهاد والتعب، أما الكتب فهي بالنسبة إليه شيء لا قيمة له، والموسيقى يعدها شيئًا لا صلة له بالحياة، وتمر السنة أثر السنة ويزداد شعوره بالوحدة يومًا بعد يوم، وتصبح حياته خارج العمل أكثر اختلالًا، ولقد تعرفت في القارة الأوروبيةإلى هذا الصنف من الرجال، وكيف يحيا حياته بين زوجته وأولاده بعد أن يتوسط عمره، وبدا من الواضح أنهم قد أقنعوا المسكين بأن الوقت قد حان ليربح نفسه من عناء العمل، وتجمعت حوله الأم وبناتها في شيء من النشوة، ليلفتن نظره إلى هذا أو ذاك من الأشياء التي تسترعي انتباههن، أما الأب المسكين فقد كان شديد الإجهاد والتعب، وكان ذهنه منصرفًا إلى مجريات الأمور في المكتب، أو إلى الجديد في عالم البيسبول وينتهي الأمر بالنساء إلى تركه، وإلى الحكم على الرجال

جميعًا بأنهم مُنافقون ولا يخطر على أذهانهم قط أن الرجل ضحية لأطماعهن، والواقع أن هذه ليست هي الحقيقة، وكذلك ليست المرأة الهندية التي تحرق جسدها بعد موت زوجها ضحية كما يعدها الأوروبي لأن تسعة على الأقل من كل عشر هنديات من اللاتي يضحين في سبيل أزواجهن، قد فعلن ذلك عن إرادة، وطوعًا لأمر الدين، والدين الذي يؤمن به رجل الأعمال يتطلب منه جمع المال، وهو لذلك يستمرئ العذاب كما تستمرئه المرأة الهندية.

وإذا أراد رجل الأعمال الأمريكي أن يحس بالسعادة، فإن أول خطوة يجب عليه اتخاذها هو أن بغير مبادئ دينه، فطالما كان هذا الرجل يؤمن المنافسة في سبيل النجاح، فإن حياته ستظل دائمًا في قلق وشقاء، ولنضرب مثلًا بسيطًا وهو طريقة استغلال المال، فإن معظم الأمريكيين يفضلون الحصول على ربح قدره ٨% من عملية مغامرة، على أن يحصلوا على ٤% من عملية مضمونة طويلة المدى، وينتج عن ذلك أن تذهب المغامرة بنقودهم، وبالتالي يزداد الشعور بالقلق والتوتر، وأنا أعتقد أن وجه الفائدة في المال إنما يعود إلى شيء واحد وهو الحصول على الراحة والأمن، أما رجل الأعمال في العصر الحديث فهو يهدف من استغلال المال إلى زيادة ثروته، وإلى المظاهر الخلابة، وإلى التفوق على أقرانه، والميزان الاجتماعي في أمريكا في ذبذبة مستمرة، ولذلك فإن اتجاهات الناس وميولهم أقل استقرارًا منها في مجتمع أكثر ثباتًا.

ورغم أن المال في حد ذاته ليس كافيًا ليصبح الناس عظماء إلا أن العظمة لا يمكن تحقيقها دون المال، بل أكثر من ذلك إن المال أصبح هو المقياس الذي تقاس به المقدرة الفعلية للإنسان، فالرجل الذي يستطيع تكوين الثراء الضخم يعد رجلًا ماهرًا، بينما يعد الرجل الذي لا يستطيع الحصول على الثروة عكس ذلك، ولا يحب أمرؤ أن يوصف بالغفلة، ولهذا فإذا كانت السوق في حالة من عدم الاستقرار، فإن رجل الأعمال في العصر الحديث يخالجه شعور شبيه بذلك الشعور الذي يحسه الطالب أمام الامتحان.

وإني أعتقد أن ثمت عنصرًا من عناصر الخوف الذي لا سبب له يمد أصوله في نفس رجل الأعمال نتيجة للقلق الذي يتهدده بالنسبة لمستقبله.

وقد صور هذا الإحساس الكاتب أرنولد بينيت في شخصية كلاي هانجر الذي كان يخشى دائمًا أن يموت في أحد الملاجئ رغم ما بلغه من الثراء، وإني لا أشك إطلاقًا في أن أولئك الذين أحسوا الفقر في مطلع حياتهم يخالجهم دائمًا شعور الفزع عندما يتمثلون هذا الإحساس بالنسبة لأبنائهم، وهم لذلك يدأبون في حياتهم ليجنبوا أطفالهم غوائل الفاقة، ولعل هذا الخوف من الفقر أمر طبيعي عند هذا الصنف من الناس، غير أن حدوثه شيء بعيد الاحتمال بالنسبة لمن نشأ وترعرع في أحضان الثروة.

ولعل المشكلة تبدأ عندما تتخذ المنافسة أساسًا للإحساس بالسعادة في الحياة، ولا أنكر أن النجاح ييسر السبيل للحصول على السعادة،فأنه من المحقق أن الرسام الذي عانى من غفلة الذكر طيلة حياته، سيشعر بالرضا عند ما يعترف الناس بموهبته، كذلك لا أنكر أن المنال يعد إلى حد ما أحد السبل المؤدية إلى السعادة، ولكنه إذا تجاوز هذا الحد لا يصبح كذلك.

غير أني أعتقد أن النجاح ما هو إلا جزء من السعادة وأن تحقيقها أمر بعيد الاحتمال إذا ضحينا بجميع النواحي الأخرى في سبيل تحقيق النجاح في حد ذاته.

أو ترجع هذه المشكلة إلى المذاهب السائدة عن الحياة في دوائر رجال الأعمال فالاستقراطية ما زالت قائمة في بعض الدول الأوروبية، وفي كل هذه الدول يوجد أصحاب المهن العالية، وفي كل هذه الدول أيضًا باستثناء القليل منها تمتع الجيش والبحرية بمكانة فائقة، وإنه وإن كان من الصحيح أن ثمت عنصرًا من عناصر المنافسة بدخل في أسباب النجاح في أي مهنة من المهن، إلا أن النجاح في ذاته ليس هو الداعي الوحيد للاحترام، فهناك إلى جانب ذلك عامل التفوق الذي أدى إلى النجاح، فالعالم مثلًا قد يكون رجلًا غنيًا أو قد لا يكون، ولكن ذلك لن يزيد أو ينتقص من مدى احترام الناس له، وليس هناك ما يدعو إلى الغرابة إذا التقيت بأحد كبار القادة العسكريين يعاني آلام الفقر إذا أن الواقع أن الفقر يعد في مثل هذه الحالات مظهرًا من مظاهر الشرف، وتنحصر المنافسة في سبيل جمع المال، لهذه الأسباب في بعض الدوائر المعينة

في أوروبا، وليست هذه بالدوائر ذات السيطرة أو التي لها الناس الإكبار.

أما في أمريكا فالأمر على العكس من ذلك فإن المهن السائرة تلعب دورًا بسيطًا في الحياة القومية الأمريكية، أما بالنسبة للمهن العالية، فأن إنسانًا ما لا يستطيع أن يحكم على مدى خبرة أحد الأطباء بمهنته، أو معرفة أحد المحامين بأصول المحاماة، ولذلك فأن المرء عادة ما يرجع إلى الدخل ومستوى الحياة الذي يعيش فيه الطبيب أو المحامي ليحكم على مدى نجاحه.

ويعد المعلمون خدمًا مأجورين لرجال الأعمال، ولذلك فإن النظرة إلى مكانتهم تقل في أمريكا عنها في البلاد العريقة، وينتج عن ذلك أن صاحب المهنة العالية في أمريكا يحاول تقليد رجال الأعمال فيها، ولذلك فأنه يمثل نوعًا من الناس له سماته الخاصة كما هو الحال في أوروبا، وليس هناك إذن وسيلة من الوسائل يمكن بها أن تخفف حدة الصراع القائم في سبيل النجاح المادي، فالصبية الأمريكيون يشعرون من أوائل عهدهم بالحياة أن النجاح المادي هو الهدف الأول فيها وأن عليهم ألا يشغلوا أنفسهم بأي نوع من أنواع التعليم لا يستهدف هذا الهدف، وكان التعليم في وقت ما يعد إحدى وسائل التدريب على تنمية الإحساس بالمتعة، وأقصد بالمتعة هنا القدرة على تذوق هذه الفنون التي لا تتاح لغير المثقفين، وفي القرن الثامن عشر كان من أهم مميزات رجل المجتمع أن يكون ذا دراية بالأدب والرسم والموسيقى، أما في الوقت الحاضر فهناك من الأغنياء من هو على قسط من الثقافة، غير أن هناك أيضًا من هم على العكس من ذلك، وفي هذه الحالة لا تجد الغني ذا

ميل إلى القراءة، وإذا أقام معرضًا من معارض الرسم فأنه يقصد من ذلك إلى اتساع الشهرة، وهو يعتمد على الخبراء الفنيين لاختيار صوره، واللذة التي يستمدها من هذه الصور ليست هي المتاع الفتي، بل هي القدرة على منع منافسيه من حيازة هذه الصور، أما بالنسبة للموسيقى، فأن جهله بها يساوي جهله بأنواع الفنون الأخرى، ويصل الأمر به في النهاية إلى ألا يعرف كيف يمضي أوقات فراغه، وكلما اتسع غناه، كلما أصبح من السهل عليه الحصول على المال، وأصبح من العسير عليه أن يعد الوجوه التي يصرف فيها ما يتكسبه في خمس دقائق ويعاني الفقير من نتائج ذلك النجاح، ويستمر هذا الوضع ما دام الناس يفهمون أن النجاح في ذاته هو الهدف الأول في الحياة، وإذا لم يعلم الرجل ماذا يفعل بالنجاح بعد الحصول عليه، فإن تحقيقه ستجعله حتمًا فريسة للسأم، والاتجاه نحو المنافسة قد يسود بعض النواحي الأخرى في الإنسان، ولنضرب مثلًا من الميل إلى القراءة، فهناك دافعان يدفعان بك إلى قراءة كتاب ما أولهما الاستمتاع بقراءته، وثانيهما التظاهر بالعلم، وقد أصبح تقليدًا لدى سيدات المجتمع الأمريكي أن يقرأن أو يتظاهران بقراءة عدد من الكتب في كل شهر، بعضهن يقرأن الكتب كلها، والبعض يقرأ الفصول الأولى منها والبعض الثالث يقرأ عرضًا لهذه الكتب، غير أنهن كلهن يمتلكون هذه الكتب، وهن لا يقرأن أمهات الكتب، ولا أذكر أن شهرامر اختارت فيه الأندية مسرحية هملت أو الملك لير لشكسبير كي تقرأها هؤلاء السيدات، كما لم يمر شهر حاول فيه هؤلاء السيدات أن يعرفن شيئًا عن دانتي، وكان من نتائج ذلك أن عامة الكتب التي تقرأ

كانت من الكتب الحديثة وهذه الكتب لا تقدم إلا في القليل النادر شيئًا بارزًا، وهذا أيضًا مظهر من مظاهر التنافس، ولكنه مظهر لا بأس به إذا أنه لو ترك مثل هؤلاء السيدات لأنفسهن فإنهن سيقرأن كتبًا أقل قيمة من الكتب التي اختارها لهن القسس والمعلمون.

والمنافسة كمظهر من مظاهر الحياة الحديثة ترتبط بالانهيار العام الذي تعانيه مستويات الحضارة، كما حدث من قبل في العصر الأوجسطي في روما، ويبدو أن الرجال والنساء فقدوا أي قدرة على الاستمتاع باللذات العقلية، ولنضرب مثلًا من في الحديث الذي استحدثه الصالونات الفرنسية في القرن الثامن عشر، فقد كان هذا الفن تقليدًا حيًا حتى أربعين سنة مضت، وقد كانت فنًا رائعًا حقًا تدرب فيه القدرات العليا للإنسان دون هدف مادي، أما في العصر الحاضر فإننا نتساءل عن هو الرجل الذي يعني بمثل ذلك؟ وقد كان هذا الفن منتعشًا في الصين حتى عشر سنوات، ولكنني أعتقد أن الإرساليات القومية قضت عليه الآن قضاء تامًا.

وأصبحت المعرفة بالأدب مقصورة على عدد قليل من أساتذة الجامعات بعد أن كانت شيئًا مشاعًا بين الطبقة المثقفة منذ خمسين أو مائة عام، وأقلع الناس عن المتع الهادئة، وإني أذكر ذلك اليوم الذي صحبني فيه عدد من الطلبة الأمريكيين في نزهة خلال إحدى الغابات وكان الطريق على الجانبين محفوفًا بالزهور البرية، ولكن أحدًا من هؤلاء الطلبة لم يعرف اسم أية زهرة من هذه الزهور إذا ما الفائدة في نظرهم من معرفة أسماء الزهور ما دامت لن تضيف شيئًا إلى دخلهم؟

ولا تتصل هذه المشكلة بحياة الفرد فحسب، كما أن الفرد وحده لا يستطيع معالجتها بالنسبة لحالته الخاصة، وإنما يرجع أصل المشكلة إلى الفلسفة العامة للحياة، تلك الفلسفة التي تؤمن بأن الحياة صراع أو تنافس يسيطر فيه المنتصر، ووجهة النظر هذه تقود إلى تنمية الإرادة بصورة غير طبيعية على حساب الحواس والعقل، ولعلنا حين نقول بهذا كأنما نضع العربة أمام الحصان، والأخلاقيون المتطهرون في العصر الحديث يزكون الإرادة، بينما كانوا يزكون عنصر الإيمان من قبل، ومن الجائز أن الأجيال المتتالية من المتطهرين خلقت جنسًا من الناس نميت فيهم الإرادة على حساب الحواس والعقل، مما أدى إلى اعتناق ذلك المذهب الذي يؤمن بفكرة المنافسة، وهي الفكرة التي تتفق تمامًا مع طبيعتهم، ومهما يكن من شيء فإن النجاح الشامل الذي حققه هؤلاء الديناصورات المحدثون يرجع إلى المبدأ الذي يؤمنون به، والذي آمن به أشباههم في عصور الإنسانية القديمة، وهو مبدأ تفضيل القوة على الذكاء، وقد أصبح هؤلاء الرجال المثل الأعلى للرجل الأبيض في مختلف أنحاء العالم، ويبدو أن هذا الحال سيستمر لمائة عام أخرى، أما أولئك الذين لا يتبعون هذا المبدأ فأنهم يجدون بعض افرتياح حين يعلمون أن ذلك المبدأ لا ينتصر دائمًا، فالدناصير يقتل بعضهم البعض، ويكون الفوز دائمًا للمتفرج الذكي، كذلك يقتل الدناصير المحدثون بعضهم البعض، والأزواج منهم عادة لا يلدون أكثر من ولدين؛ لأن السأم من الحياة هو الذي يعرفهم عن التفكير في إنجاب الأطفال، ومن هنا كانت الفلسفة الشديدة التزمت التي ورثها المتطهرون عن آبائهم لا

تتلائم مع مقتضيات الأموء في الحياة، وليس من شك في أن مصير أولئك الذين لا يحسون السعادة نتيجة لنظرتهم السوداء إلى الحياة سيكون محتومًا من الناحية البيولوجية، ولن يطول الزمن حتى يأتي بعدهم جيل أكثر مرحًا وابتسامًا للحياة.

ذلك أن التنافس كدافع من دوافع الحياة، يعد شيئًا قاتمًا فيه بعض التوتر وعنف الإرادة، ولا يمكن أن يكون مثل هذا الدافع أساسًا لحياة أكثر من جيلين بأي حال من الأحوال، ثم يلي هذه الفترة شعور عام بإنهاك الأعصاب، تتخللها مظاهر الهرب من الواقع، ومتابعة اللذة في أعنق صورها، وبعد ذلك يأتي الجفاف.

فليس العمل وحده هو الذي تسمم بفلسفة التنافس، بل إن هذه الفلسفة سيطرت أيضًا على الترفيه والتسلية فأصبح الناس يشعرون بالسأم حين يمارسون أنواع الترفية التي تؤدي إلى تهدئة الأعصاب وهم يحسون بالحاجة إلى تلك اللذة العاجلة التي تنتهي حتمًا إلى الانهيار وتناول العقاقير، وعلاج هذا يكون بإتساع المجال للمتعة الهادئة العاقلة في حياة متزنة مثالية.

السأم والنشوة

لـم يلـق السـأم كـدافع مـن دوافـع السـلوك الإنسـاني العنايـة التـي يستحقها، وإني أعتقد أن هذا الدافع كان إحدى القوى المحركة خلال التـاريخ المعـروف، وأن تـأثير هـذه القـوة أصـبح أقـوى وأشـد فـي الوقـت الحاضر. ويبدو أنه شعور يتميز به الإنسان فقط، وإن كان من الصحيح أن الحيـوان إذا كبتـت حريتـه يشـعر بـالقلق والاضـطراب والملـل، أمـا فـي حالتـه الطبيعيـة فـإني أعتقـد أن شـعور السـأم يعـد غريبًـا عنـه، فـالحيوان يمضي وقته في البحث عن الأعداء أو الطعام أو عن الأثنين معًا وأحيانًا يمضـي الوقـت فـي التـزاوج أو الاسـتدفاء، وفـي اعتقـادي أنـه حتـى فـي الأوقات التي لا يشعر فيها الإنسان بالسعادة فإن شعور الملل لا يساوره، ومـن الجـائز أن الأنـواع السـامية مـن القـردة تشـترك مـع الإنسـان فـي هـذه الخاصية، كما تشترك معه في بعض الخواص الأخرى، ولما كنت لم أعش مع هذه الأنواع من القردة فإنه لم تتح لي الفرصة لأجزم بذلك.

ومن عوامل السأم أن يقارن الإنسان بين ظروفه الحاضرة، وبين ظروف أخرى يعتبرها أكثر ملائمة له تفرض نفسها على مخيلته، ومن هذه العوامل أيضًا ألا تشغل طاقات الإنسان بأكملها، فالفرار من وجه العدو الذي يود استئصال حياتك أمر مفزع حقًا، ولكنه أمر لا يدعو إلى السأم، ولا يشعر المرء بالملل في الوقت الذي يلف فيه حبل المشنقة حول

رقبته، اللهم إلا إذا كانت لديه من الشجاعة ما يفوق طاقة البشر، ومن أمثلة ذلك أنه لم يحدث قط أن تثاءب أحد أعضاء مجلس اللوردات البريطاني وهو يلقي خطابه في المجلس إلا مرة واحدة وذلك حين ألقى دوق دفونشير السابق خطابًا، وقد أكبره جميع اللوردات لهذا السبب، وما الشعور بالسأم إلا رغبة مكبوتة لدى الفرد في أن تتقلب الحوادث، سواء كانت شيقة أو لم تكن كذلك، حتى يستطيع المرء أن يتبين يومه من غده، وعكس معنى السأم ليس السرور بل (الاستثارة).

والرغبة في الاستثارة رغبة أصليلة في بني البشر، وخاصة في الذكور منهم وربما عاد ذلك إلى السهولة التي كان يمكن بها إرضاء هذه الرغبة في عصور الإنسان الأولى حين كان يعتمد على القنص، فقد كان الصيد شيئًا مثيرًا، وكذلك كانت الحرب، كما كانت أيضًا العلاقة بين الرجل والمرأة، كان الإنسان البدائي يحاول القيام بالعملية الجنسية مع امرأة ينام زوجها بجانبها، وهو يعلم أن الموت محقق له إذا استيقظ الزوج، وهذا الموقف ليس فيه ما يدعو إلى الملل.

ولما بدأت المرحلة الزراعية تبسط بساطها في حياة الإنسان، فقدت تلك الحياة شيئًا من جدتها إلا بالنسبة للأرستقراط الذين ما زالوا يعيشون في مرحلة القنص، ونحن نسمع الكثير عن الملل الذي ينتج عن انتشار الآلة، ومع ذلك فإني أعتقد أن هذا الشعور لا يقل في البيئة الزراعية التي تقوم على الوسائل العتيقة عنه في البيئة الصناعية، بل إني أقول على عكس ما يتشدق به عدد كبير من المصلحين، بأن العصر الآلي ساهم إلى حد كبير في إبعاد روح السأم عن العالم، فساعات العمل

بالنسبة للعُمال المأجورين لا يسودها الوحدة أو الانفراد، كما أن لدي هؤلاء العمال من أنواع من التسلية ما يستطيعون أن يقضوا به أمسياتهم، ولندخل في اعتبارنا أيضًا التغيير الذي طرأ على حياة الطبقة المتوسطة السفلى، ففي الأيام الماضية كانت الزوجة تجلس بعد العشاء ومن حولها بناتها بعد أن يزلن الأطباق، ليستمتعن بما يسمى "اجتماع عائلي سعيد" ومعنى ذلك أن رب العائلة قد ذهب لينام بينما تخيط الزوجة الملابس وتتمنى الفتيات فيما بينهن وبين أنفسهن لو أن الموت لحق بهن، إذ لا يسمح لهن بالقراءة، ولا بالخروج من الغرفة، وإذا كان حظهن سعيدًا فإنهن يتزوجن، وينجبن أطفالًا يفرضن عليهم شبابًا أكثر تعاسة من الشباب الذي عشنه أنفسهن، وإن لم يكن لهن هذا الحظ صرن عوانس، وذلك من غير شك مصير مظلم شبيه بالمصير المظلم الذي يفرضه الوحش على فريسته.

يجب إذن أن ندخل في حسابنا كل هذه العوامل التي تدعو إلى السأم، حين نقدر العالم كما كان من قبل مائة عام، وكلما ازددنا إمعانًا في الماضي كلما تجمعت لدينا عوامل أكثر تدعوا إلى هذا الشعور.

ولنتصور مثلًا شتاء كئيبًا في إحدى قرى العصور الوسطى، الناس هنا لا يستطيعون القراءة أو الكتابة، وإنما لديهم الشموع التي يضيئونها حين يقبل الظلام، والدخان الذي يخرج من الشمعة يملأ عليهم جو الغرفة الباردة.

وفي الخارج ترى الطرق مقفرة ومن النادر أن تلتقي بشخص من القرية المجاورة، ولعل الشعور بالسأم هو الذي دعاهم إلى ابتكار لعبة العفاريت كوسيلة من وسائل التسلية في أمسيات الشتاء.

ونحن الآن نعاني السأم بصورة أقل من أسلافنا، وإن كان خوفنا من الإحساس أشد منهم وأعمق، فنحن نعلم بل نعتقد أن السأم ليس أمرًا طبيعيًا في حياة الإنسان، وإنما يمكن القضاء عليه بمتابعة الأشياء المثيرة، بذلك ترى فتيات اليوم يكسبن عيشهن بأنفسهن حتى ييسرن لأنفسهن قضاء الأمسيات المرحة، والفرار من ذلك "الاجتماع العائلي السعيد" الذي استمتعت به جداتهن، وكل إنسان يحاول اليوم أن يعيش في المدينة وأولئك الاذين يعيشون بعيدًا عنها يمتلكون سيارة أو عجلة بخارية يستطيعون بها الذهاب إلى السينما، ومن الطبيعي أنهم يملكون أجهزة الراديو في منازلهم لذلك يستطيع الشبان والفتيات اليوم أن يلتقوا دون ما مشقة، كما تستمتع فتاة اليوم بأنواع من اللذة في خلال أسبوع لا تستطيع أن تحققها بطلة من بطلات جين أوستن خلال فترة طويلة، وكلما ارتفعنا في الميزان الاجتماعي، كلما أصبحت متابعة الأشياء المثيرة أكثر عنفًا، فأنت ترى ذوي القدرة ينتقلون من مكان إلى مكان، يحملون معهم أنواع المرح وفنون الرقص والنشوة، وهم يستمتعون بهذا كله كلما انتقلوا إلى مكان جديد أما أولئك الذين يعملون لكسب عيشهم فإنهم مضطرون إلى الإحساس بالملل كما يحسون بالحاجة، بينما يضع أولئك الذين يمتلكون من المال ما يستطيعون به التحرر من قسوة العمل نصب أعينهم حياة لا يشوبها الملل.

وهذا مقصد نبيل، ولا أستطيع أن أوجه إليه أي نوع من النقد، وإن كنت أعتقد أن تحقيقه أشد عسرًا مما يتصور أصحاب المثل العليا ففي الصباح سيعاني المرء من الملل بقدر ما شعر بالنشوة والسرور في المساء السابق.

ومن المحقق أن كل فرد سيستمر بالشيخوخة والكهولة، وفي العشرين يحس هؤلاء الرجال أن نهاية حياتهم سيجيء في الثلاثين، أما أنا – في الثامنة والخمسين من عمري – فأني لا أميل إلى هذا الاعتقاد، فليس من الحكمة في شيء أن يتصرف المرء في مقدرته الحيوية كما يتصرف في رأس المال المادي، وربما كان الشعور بالسأم عنصرًا ضروريًا من عناصر الحياة، كما إن الهروب من هذا الشعور أمر طبيعي، ومن الحقائق المقررة أن الإنسان على اختلاف أجناسه يحاول ذلك دائمًا كلما سنحت له الفرصة، فقد انتهى المتوحشون حين علمهم الرجل الأبيض احتساء الخمر إلى وسيلة يستطيعون بها أن يتخلصوا من هذا الشعور الدائم بالملل، ولولا تدخل النظم والقوانين لثمل هؤلاء الرجال حتى الموت، وما الحروب والمناوشات أو أنواع الاضطهاد إلا بعض مظاهر الهروب من السأم، حتى المنازعات مع الجيران خير من لا شيء، ولذلك فأن الشعور بالسأم يعد مشكلة هامة من المشاكل التي يواجهها رجل الأخلاق؛ لأنه يسبب نصف خطايا الإنسان.

ومهما يكن من شيء فإن السأم ليس كله شرًا؛ لأن هناك نوعين من هذا الشعور أولهما مثمر والثاني ليس كذلك، ويوجع الأول إلى مقاطعة المخدرات، والسبب الثاني هو افتقاد القدرة على ممارسة أي نشاط حيوي.

ولست أود أن أقول أو المخدرات ليس كله فائدة ما في الحياة، ففي بعض الأحيان ينصح الطباء يتناول أنواع من المخدرات، وتتعدد هذه الأحيان بدرجة لا يتصورها أنصار منع المسكرات، غير أنه من المؤكد أن الرغبة في الشراب شيء لا يمكن تركة على طبيعته، ولست أقترح علاجًا لذلك الشعور بالملل الذي محسه السكير إذا منع عن الشراب اللهم إلا أن يترك ذلك للزمن.

وما ينطبق على شرب الخمر ينطبق أيضًا – إلى حد ما – على كل أنواع الاستثارة الأرخى، فالحياة الصاخبة تستنفذ الإنسان؛ لأنها في حاجة دائمًا إلى دوافع أشد وأقوى تثير في الإنسان تلك النشوة التي يعتقد أنها جزء لا يتجزأ من اللذة والعربيد يسبه إلى حد كبير شخصًانمى في نفسه ميلًا شديدًا إلى تذوق الفلفل والاستمتاع به، فانتهى به الأمر أخيرًا إلى عدم التأثر بقدر من هذه المادة كفيل بأن يؤذي إنسانًا عاديًا.

ومما لا شك فيه أن هناك عنصرًا من عناصر الملل يرتبط بالتوقف عن مزاولة اللذة العادمة، وهذه اللذة تفقد الإنسان القدرة على تذوق أي نوع من أنواع السرور، فهو يكتفي بالإحساس العابر بالمتعة بدلًا من أن يحس بالارتياح النفسي العميق، كما أن يستبدل بالحكمة المهارة السطحية، ولا يستطيع تقدير الجمال، وإن كان يتأثر للحركات

المصطنعة، ولا أريد هنا أن يكون اعتراضي على النشوة اعتراضًا كليًا إذا أن القدر المناسب منها شيء لا بأس به، فالمسألة هنا كما هي في كل الأحوال مسألة نسبية.

فالقدر الضئيل منها قد ينتج عنه انحراف في الرغبات، كما أن الإيمان فيها قد يؤدي إلى الاستهلاك الكلي للإنسان، وعلى هذا فالقدرة على تحمل السأم أمر ضروري وهو شيء يجب أن يتعلمه المرء منذ الصغر.

ومما يُقال عن كانت أنه لم يبعد قط عن مدينة كونجسبرج التي عاش فيها بأكبر من عشرة أميال طيلة حياته، أما داروين فأنه قبع في عقر بيته بعد أن قام برحلة طاف فيها حول العالم، وماركس بعد أن حرك ثوراته رضى لنفسه أن يمضي البقية من حياته في ركن من أركان المتحف البريطاني ويمكن أن نقول بوجه عام أن الهدوء كان صفة تتميز بها حياة عظماء الرجال، وأن مسراتهم لم تكن من النوع الذي يعد مثيرًا ولا يستطيع المرء أن يحقق أية غاية عظيمة إذا لم يكرس نفسه للعمل الدائب الصعب الذي يستغرق عليه نفسه والذي لا يترك له من الطاقة إلا النزر اليسير، فلا يستطيع بعد ذلك أن يجهد نفسه في مزاولة اللذات العنيفة، وإنما يقتصر الأمر على تجديد طاقته الجسمية خلال أيام العطلة، ولعل أروع مثل لهذه اللذة هو تسلق الجبال.

والقدرة على تحمل الحياة الرتيبة أمر يجب أن يتمرس به الأطفال في سني حياتهم الأولى، غير أن الآباء في العصر الحديث لا يعنون بهذه الناحية، وهم يلامون على ذلك، فأنهم يزودون أطفالهم بمختلف أنواع التسلية السلبية، كالأفلام السينمائية والطعام اللذيذ ولا يدركون أهمية الفائدة التي يجنيها الطفل عندما يمر به يوم يتلوه آخر شبيه به، إذ أن الواقع أن الطفل ذاته عليه أن يستمد مسرات طفولته من البيئة المحيطة به أولًا وقبل كل شيء، وأن يبذل في سبيل ذلك بعض الجهد والتفكير الخلاق، لذلك يجب ألا يستمتع إلا نادرًا بذلك النوع من اللذة المثيرة والتي لا تتطلب في نفس الوقت أي مجهود جسمي كمشاهدة المسرح مثلًا فطبيعة الاستثارة هنا ستكون من طبيعة المخدر، تزداد الرغبة فيه كلما أفرط الإنسان في تناوله.

كما أن انعدام النشاط الجسمي هنا يتعارض مع الغريزة، والطفل في نموه كالنباتات يثمر أحسن الثمر إذا لم ينقل من تربته، فكثرة الأسفار، وتعدد الإحساسات ليست مما يستحسن بالنسبة لتربية الأطفال لأنها تفقدهم القدرة على تحمل الحياة الرتيبة، ولا أقصد أن هذه الحياة لها ميزاتها الخاصة، وإنما أقصد أنها تؤدي إلى حد ما إلى تحقيق بعض المزايا الحسنة، خذ مثلًا قصيدة الشاعر وردزورث المقدمة فأن كل قارئ سيدرك تمامًا أنه ليس من الميسور على أي شاب حضري معقد أن يدرك المعاني ذات القيمة في أفكار وردزورت وإحساساته، وليس من شك في أن الشاب الذي يهدف إلى البناء سيتحمل طوع إرادته أي إحساس بالملل مهما بلغ هذا الإحساس من الضخامة، إذا كان ضروريًا لتحقيق

أغراضه، وهذه الأغراض البنائية لا يُمكن أن تجد منفذًا لها في عقل الشاب الذي يحيا حياة من الترف، واللذة العارمة فإن تفكيره في هذه الحالة سيكون منصبًا على اختيار أنواع السرور التي سيُمارسها في المرة المقبلة، بدلًا من أن يكون منصبًا على الغرض البعيد الذي يشغل الشاب الجاد بتحقيقه، ويعتبر الجيل الذي لا يتحمل أبناؤه الشعور بالسأم جيلًا من صعار الرجال، الذين لم يتمرسوا بعد بتجارب الطبيعة الطويلة المدى، أولئك الرجال الذين ماتت فيهم أي رغبة حيوية، كأنهم زهرات مقطوفة صفت في زجاجة.

وأما لا أحب لغة المتصوفة، ولكني لا أدري وسيلة أتجنب بها استخدام بعض العبارات الشعرية، فرغم كل ما نظنه في أنفسنا فأننا مخلوقات أرضية وحياتنا جزء من حياة الأرض، فنحن نستمد منها غذاءنا كما يستمده النبات والحيوان، والوتيرة التي تسير عليها حياة الأرض وتيرة بطئية، فالخريف والشتاء ضروريان، وكذلك كان الربيع والصيف، والثبات ضروري، كما إن الحركة ضرورية، ومن واجب الطفل – قبل أن يكون من واجب الرجل – أن يظل وثيق الصلة بعوامل المد والجزر في الحياة الأرضية، فقد خلق جسم الإنسان وهو يتلائم مع هذه الوتيرة منذ الأزل، وتمثل الدين هذا المبدأ حين نص على عيد الفصح، وأذكر أني رأيت طفلًا بلغ من العمر عامين، قضاهما في لندن، رأيته وهو في أول رحلة له في الريف الأخضر، كان الوقت شتاء، وكان كل شيء مبللًا أو مغطى بالوحل، ولم يكن ثمت ما يثير في النفس أي شعور بالمرح، ومع ذلك فقد انبعثت في نفس لطفل نشوة غريبة، فركع على الأرض المبتلة

وألصق وجهه بالحشائش، وندت عليه صيحة مكتومة تنم عن الفرح، وليس من شك في أن هذا الفرح كان شعورًا بدائيًا بسيطًا، ولكنه كان في نفس الوقت دفاقًا، والحاجة الحيوية التي أشيعت هنا كانت عميقة الجذور، ويندر أن يكون أولئك الذين لا يشبعونها على شيء من صحة العقل، وهناك أنواع عديدة من اللذة لا تنطوي على عنصر الارتباط بالأرض، ومثل منها لعب الميسر، وحين يتوقف الشعور بهذه اللذة تخلف ورائها إحساسًا غامضًا بعدم الرضا.

ولا يُمكن أن نسمي أنواع اللذة هذه مرحًا، أما تلك اللذة التي ترتبط بحياة الأرض فأنها على العكس من ذلك تؤدي إلى شعور عميق بالارتياح، وإذا توقف الإحساس بها فأن المرء يظل يشعر بالسعادة التي نتجت عنها، ويتمشى هذا التمييز بين نوعي اللذة على اختلاف درجات الحضارة، فالطفل الصغير الذي تحدثت عنه منذ لحظة كان يمثل مظهرًا بدائيًا من مظاهر التمثل لحياة الأرض، ويُمكن أن نرى في الشعر مظهرًا أرفع من مظاهر هذا التمثل، وتستمد مقطوعات شكسبير الغنائية روعتها من ترديدها لهذه الشعور بالرضا الذي أحس به الطفل حين اعتنق الحشائش، لتقرأ مثلًا قصيدة شكسبير التي تبدأ هكذا "انصت انصت! هذا هو الهزار" أو تلك التي تبدأ بهذا المطلع "تعالى إلى هذه الرمال المصفرة" هنا ستجد تعبيرًا رفيعًا في الشعر عن ذلك الإحساس الذي عبر عنه الصبي الصغير بالصيحات المكتومة، أو لتحاول أن تجد الفارق بين الحب وبين الجاذبية الجنسية، فالحب تجربة يتجدد بها وجودنا كله وينتعش، كما يروي المطر النبات بعد الجفاف ولا يحدث شيء من هذا

إذا جاء الاتصال الجنسي دون الحب، وحين تنتهي اللذة العابرة يجي التعب والاشمئزاز والشعور بتفاهة الحياة.

فالحب جزء من حياة الأرض، وليس الجنس المجرد من الحب كذلك، وهذا النوع من الملل الذي يعانيه الناس في المجتمعات الحديثة ترجع أصوله إلى انفصالهم عن حياة الأرض، فإن هذا الانفصال يجعل من الحياة شيئًا حارًا متربًا، ظامئًا كرحلة الحجاج في الصحراء، والشعور الدائم بالملل الذي يسيطر على الأغنياء ممن يملكون من الثروة ما يمكنهم من شق طريقهم في الحياة، هذا الشعور يرجع إلى خوفهم من الملل ذاته، وهم حين يهربون من السأم الذي له قيمة مثمرة، يقعون في النوع الآخر الهدام. والحياة السعيدة يجب أن تكون إلى حد كبير حياة هادئة لأن المرح لا يمكن أن يستمر إلا في جو من الهدوء.

التعب

التعب أنواع.. بعضها من أكبر المصاعب التي تواجه الإنسان في طريقه إلى السعادة، والتعب الجسمي المحض، إذا لم يزد عن حد معين، يعد في واقع الأمر سببًا من أسباب السعادة، فهو يؤدي إلى النوم الهادئ والشهية المفتوحة، كما إنه يزيد من استمتاع الإنسان بالمباهج التي يمارسها في أيام أجازته، والفلاحات في مختلف أنحاء العالم باستثناء البلاد المقدمة يصلن إلى الشيخوخة في سن الثلاثين نتيجة للإنهاك في العمل الدائب، والأطفال قبل أن يمر العالم بمرحلة التصنيع كانوا يعانون المشقة في سنى حياتهم الأولى نظرًا لتزايد العمل لديهم بصورة تعوق نموهم الطبيعي، وما زالت هذه الحالة قائمة في الصين واليابان حيث لا يزال التصنيع في مراحله الأولى، وكذلك الحال في بعض الولايات الأمريكية الجنوبية.

والعمل الجسمي، إذا زاد عن حد معين يعد عذابًا مهينًا، كما إنه يجعل الحياة أمرًا لا يمكن احتماله، وفي بعض البلاد المتحضرة في العالم الحديث أمكن التغلب على الإجهاد الجسمي نتيجة لتحسن الظروف الصناعية، غير أن التعب الذي يعانيه الناس في المجتمعات المتحضرة تعب من نوع آخر خطير، هو الإرهاق العصبي، وهذا النوع من الإرهاق يكثر انتشاره بين الطبقة الميسورة، وتقل درجته بين العمال البدويين عما هي عليه بين رجال الأعمال وبين أولئك الذين يتطلب

عملهم شيئًا من الإجهاد العقلي.

والتغلب على الإرهاق العصبي في الحياة الحديثة أمر صعب، وأول ما يجب أن نلاحظه أن العامل يتعرض للضوضاء خلال ساعات عمله، وخلال الفترة التي يقضيها بين نهاية العمل وعودته إلى المنزل، وإذا كان صحيحًا أن العامل قد تعلم ألا يلتفت إلى هذه الضوضاء، فإنه من الصحيح أيضًا أن المجهود الذي يبذله في تجاهلها يصيبه ببعض الإرهاق، وثم سبب آخر غير مباشر يؤدي إلى الإحساس بالتعب، وهو وجود الغرباء، ومن طبيعة الإنسان كما أنه من طبيعة الحيوان أن يدرس كل فرد من جنسه لم يألفه من قبل، وهو يهدف من ذلك إلى تحديد سلوكه تجاهه سواء كان ذلك السلوك عدائيًا أو وديًا، وأولئك الذين تضطرهم الظروف إلى التسكع في ساعات الخروج بين الجموع، عليهم أن يكتبوا هذا الاتجاه الطبيعي للإنسان في نفوسهم، وينتج عن ذلك الكبت تنمية الشعور بالغضب والثورة ضد كل هذه الجموع الغريبة عنهم، والتي يضطرون إلى الاتصال بها على غير إرادتهم، ويتبع ذلك الإسراع في اللحاق بقطار الصباح، وما يصحب ذلك عادة من توتر، وحين يصل العامل إلى محله تكون أعصابه قد انهارت قليلًا، ويحس كأن الجنس البشري كله عبء عليه، ويصل صاحب العمل إلى عمله ولديه نفس هذا الإحساس، ومن ثم فإنه لا يحاول الترفيه عن موظفه، وتضطر ظروف المجتمع هذا الموظف إلى السلوك المؤدب نحو رئيسه، ولكن هذا السلوك المفتعل يزيد من توتر أعصابه، ولو حدث أن سمح للموظفين بمرة واحدة في الأسبوع يجرون فيها رئيسهم من أنفه، ويعلنون صراحة

رأيهم فيه، فإن التوتر العصبي الذي يعانونه سيتبدد من غير شك، ولكن ذلك في رأي صاحب العمل لن يؤدي إلى إصلاح الأحوال، فالخوف من الفصل لدى الموظف يساويه الخوف من الإفلاس لدى صاحب العمل، وإذا كان هناك من أصحاب العمل من هم فوق هذا الإحساس فهم لا شك قد وصلوا إلى مراكزهم هذه بعد أن مروا بسنوات من الكفاح الدائب كان عليهم فيها أن يرعوا انتباههم للحوادث في جميع أنحاء العالم، وإلى محاربة الوسائل التي يتخذها منافسوهم، وينتج عن ذلك أن تصبح أعصاب رجل الأعمال حطامًا حين يصل إلى تحقيق النجاح، كما إنه يكون قد تعود القلق بصورة لا يستطيع معها التخلص منه بأي حال من الأحوال، وإذا كان الفقراء يعانون من الشقاء فأن أبناء الأغنياء عادة ما يختلفون لأنفسهم من الأسباب ما يسوي بينهم وبين الفقراء في الشقاء، فالرهان والميسر من العوامل التي تطغى على حياة هؤلاء الشباب، وتعكر صفو الآباء، كما إن هؤلاء الشباب يقتضبون نومهم سعيًا وراء اللذة، وينهكون بذلك أبدانهم، وحين يجيء الوقت ليستتب لهم الأمر يفتقدون في أنفسهم القدرة على أي إحساس بالسعادة، كما كان آباؤهم من قبل، فالمدنيون المحدثون إذن، سواء اختاروا ذلك أو لم يختروه، يعيشون حياة مرهقة للأعصاب، وهم لا يعرفون المرح إلا إذا ثملوا.

ولنترك الآن هؤلاء الأغنياء جانبًا فهم أغبياء في حقيقة الأمر، ولنحاول دراسة حال هؤلاء الذين تتوتر أعصابهم لما يلاقونه خلال كسب عيشهم من متاعب، فمشاكل هؤلاء الناس ترجع إلى حد كبير إلى

القلق الذي يعانونه، ويمكن القضاء على هذا القلق إذا اعتنق الفرد منهم مذهبًا أكثر صلاحية في الحياة، مع شيء من التفكير المنظم، أن معظم الرجال والنساء تعوزهم السيطرة على أفكارهم، وأقصد من هذا أنهم لا يستطيعون منع أنفسهم من التفكير في المشاكل العويصة في الوقت الذي لا يستطيعون لها حلًا، فالرجال يصحبون معهم مشاكل العمل إلى الفرا، وفي ساعات الليل، وهي ساعات الراحة والاستجمام، يأخذ هؤلاء الرجال في مراجعة المشاكل التي لا يستطيعون لها حلًا في اللحظة الحاضرة، وهم لا يفكرون فيها بطريقة تحدد لهم تصرفهم في الشكلة من باكر، وإنما يفكرون فيها بطريقة تشبه هلوسة الأحلام، وحين يصبح الصباح يعلق بأذهان هؤلاء الرجال شيء من هلوسة الليل، يؤثر في أحكامهم، ويعقد الأمور أمامهم، أما الرجل العاقل فأنه يعمد إلى التفكير في مشاكله في الوقت الذي يعرف أن هناك فائدة ما من التفكير فيها، ويشغل نفسه بالتفكير فيما هو أجدى خلال أوقاته الأخرى، أما في الليل فأنه لا يفكر في شيء ما على الإطلاق، ولست أود أن أقول أنه من الممكن أن يغمض المرء عينيه عن المشاكل الفاجعة، كأن يكون الإفلاس محدقًا، أو أن يعلم المرء علمًا أكيدًا أن امرأته تخونه غير أنه من الممكن أن يتجاهل المرء المشاكل التي تواجهه في الظروف العادية، إلا في الوقت الذي يصبح عليه فيه أمرًا محتمًا أن يعالج هذه المشاكل، وقد تدهش حين تدرك أي قدر من السعادة يستطيع العقل المنظم تحقيقه إذا فكر في المشاكل بالطريقة المناسبة في الوقت المناسب، بدلًا من التفكير فيها بالطريقة المناسبة طول الوقت، وحين يضطرك الأمر إلى

اتخاذ قرار حاسم في مسألة معينة، فلنتخذ هذا القرار حين تتجمع لديك الحقائق والتفاصيل، ثم لا تراجع نفسك إلا إذا جد في الأمور جديد يتطلب ذلك، فأنه ليس ثمت ما يسبب القلق أكثر من التردد.

ويمكن أن نتخلص من قدر كبير من شعور القلق إذا أدركنا تفاهة الأسباب التي تؤدي إلى هذا الشعور، ولقد شغلت في بعض فترات حياتي بإلقاء الخطب العامة، وكنت في أول الأمر أخشى المستمعين، وكان الاضطراب يؤدي بي إلى سوء الالقاء، وأصبحت أخشى هذه التجربة حتى لقد كنت أتمنى أن تكسر ساقي قبل إلقاء الخطبة لأوفر على نفسي المشقة، ثم علمت نفسي بالتدريج حقيقة هامة، وهي أن وجه العالم لن يتغير سواء نجحت في إلقاء خطبي أو لم أنجح، وانتهيت إلى الإيمان بأن تعرضي للفشل سيكون أقل احتمالًا إذا لم أعر الأمر اهتمامًا كثيرًا، وأخيرًا تفاديت ذلك التوتر العصبي بهذه الطريقة عينها، وذلك إذا اقتنعنا بأن أعمالنا ليست لها الأهمية الكبيرة التي نتصورها، ثم إن نجاحنا أو فشلنا في تأدية هذه الأعمال لن يكون ذا أثر كبير، حتى المأسي الكبيرة يستطيع الإنسان أن يعيش بعدها، والمشاكل التي يتصور الإنسان أنها ستضع حدًا لسعادته تضعف مع الزمن حتى إنه ينسى مدى حدتها، وقبل هذه الاعتبارات الذاتية يجب أن ندخل في حسابنا أن ذات الفرد أن هي إلا جزء بسيط من هذا العالم المتسع، ويستطيع أي إنسان له القدرة على تركيز أفكاره وآماله في أشياء تخرج عن نطاق الذات، أن يحقق سعادة وسلامًا في حياته اليومية، وهو أمر لا يستطيعه الإنسان الأناني.

ولم يوجه الناس عناية خاصة لدراسة ما يسمى بالصحة العامة للأعصاب،وإن كان علم النفس الصناعي قد عنى بدراسة الارهاق كمظهر من مظاهر الرضا النفسي، واستطاع عن طريق الاحصائيات الدقيقة أن يثبت أن الارهاق ينتج عن الاستمرار في العمل لفترة طويلة من الزمن، وهي حقيقة يمكن استنباطها دون كثير من الجهد العلمي، وقد قصر علماء النفس دراستهم للارهاق على الاجهاد العضلي، وإن كان هناك عدد من الدراسات التي أجريت على أطفال المدارس، غير إن هذه الدراسات لم تتناول المشكلة الهامة في الموضوع، فأهم أنواع الارهاق في الحياة الحديثة هو الارهاق العاطفي، ذلك أن الارهاق العقلي المحض كالارهاق الجسمي سواء بسواء، يُمكن علاجه بالنوم، فأن الإنسان ينام في نهاية النهار ملء جفنيه إذا كان يناط به عمل عقلي يخلو من العاطفة، ومن ثم يزايله التعب الذي أحسه خلاله، والأذى الذي يضيفه الناس إلى الاجهاد في العمل إنما يرتبط في واقع الأمر بسبب آخر من أسباب القلق والتوتر، أما الارهاق العاطفي فأنه لا يترك للفرد فرصة للراحة، وكلما زاد إرهاق المرء كلما أصبح من المستحيل عليه إيقاف هذا الارهاق عند حد، ومن الأعراض التي تسبق الانهيار العصبي أن يحس المرء أنه يؤدي عملًا ذا أهمية بالغة، وأن حصوله على أجازة سيقود إلى مختلف الكوارث، ولو أني كنت طبيبًا لأمرت بالإجازة لكل مريض يظن عمله ذا أهمية، فالانهيار العصبي الذي يبدو لأول وهلة ناتجًا عن تزايد العمل، يرجع في حقيقة الأمر وفي معظم الحالات التي عرفتها شخصيَا إلى اضطراب في الناحية العاطفية يحاول المريض

الهروب منه بالاندماج في العمل. وهو يكره أن يترك عمله، لأنه لو فعل فلن يجد شيئًا يصرفه عن التفكير في تعاسته، ومن الجائز أن ترجع هذه التعاسة إلى الخوف من الإفلاس. وفي هذه الحالة يكون سبب التعاسة وثيق الصلة بعمله، وهنا يقوده قلقه إلى التفاني الزائد في العمل لدرجة يتشوش معها تفكيره، ويصل إلى الإفلاس بأسرع الوسائل. وفي كل هذه الحالات يجيء الانهيار نتيجة للقلق العاطفي، لا من نتيجة تزايد العمل.

ودراسة القلق من الناحية النفسية ليست بالدراسة السهلة. وقد أشرت من قبل إلى التفكير المنظم، وأقصد من ذلك عادة التفكير في الأشياء في الوقت المناسب لها.

وهذا شيء له أهمية، لأنه يساعد أولًا على التغلب على مشاكل الحياة اليومية، دون الإفراط في التفكير، ثم لأنه يشفي من الأرق ولأنه إلى جانب هذا وذاك ينمي في المرء القدرة على اتخاذ القرارات في حكمة وهدوء. ولكن هذا النوع من الوسائل ليس وثيق الصلة بالعقل الباطني أو اللاشعور. وفي المشاكل العنيفة لا تجدي وسائل العلاج إلا إذا كانت ذات صلة بما هو وراء الوعي.

ولقد قام علماء النفس بدراسات واسعة مستفيضة في تأثير اللاشعور على الشعور، ولكن دراستهم في تأثير الشعور على اللاشعور كان أقل شأنًا.

والنوع الأخير من الدراسة له أهميته البالغة، بالنسبة للصحة العقلية، ويجب أن يتخذ أداة لتفهم المعتقدات العقلية وأساسها في المجال اللاشعوري. وهو أمر وثيق الصلة بدراسة القلق النفسي.

وإذا كان من السهل أن يقول الإنسان لنفسه أنه إذا وقع هذا الخطر أو ذاك فإنه لن يكون ذا تأثير عظيم، فإن هذا الاعتقاد لن يمتع الإنسان من الإصابة الكابوس أثناء النوم، وإنما أعتقد أن التفكير الواعي يمكن أن ينتقل إلى اللاشعور إذا أضيف إليه شيء من القوة والكثافة. فالشطر الأكبر من اللاشعور يتكون من أفكار كانت من قبل ذات قيمة عاطفية في حيز الوعي، ثم دفنت هذه الأفكار.

ومن المُمكن أن نقوم عن قصد بعملية دفن الأفكار هذه، ومن هنا يمكننا أن نستفيد من اللاشعور في أداء بعض الوظائف المفيدة، ولقد استطعت أن أدرك أحسن خطة يمكن اتباعها إذا أردت الكتابة في موضوع صعب، هذه الخطة هي أن أفكر في الموضوع تفكيرًا عميقًا على قدر ما أستطيع، وأستمر في التفكير ساعات أو أيامًا بحسب ما يقتضيه الحال. وفي نهاية هذه الفترة أترك العملية للاشعور.

وبعد شهور أعود للموضوع فأجده قد اختمر في نفسي. وقبل أن أهتدي لهذه الخطة كنت أقضي هذه الشهور في قلق دائم، لأني لا أتقدم في دراسة الموضوع، ولم يكن هذا القلق ليدفع بي إلى الأمام. أما الآن فالأمر على العكس من ذلك.

ويُمكن اتباع نفس الطريقة لتفادي أنواع القلق المختلفة. فإذا كانت ثمة خطر محدق، فلتدرس أفظع النتائج التي يمكن أن تترتب عليه في عمق ودقة.

وبعد أن تنتهي من مواجهة هذه النتائج تستطيع أن تلتمس الأسباب التي تقسن عبها نفسك أن الأمر لن يكون في الخطورة التي تصورتها ومن السهل استحداث هذه الأسباب، لأن أسوأ ما يمكن أن يصيب الإنسان لن يكون ذا أثر في تغيير مجرى الكون.

وإذا عودت نفسك توقع أسوأ الاحتمالات ثم أقنعت نفسك بأن ذلك لن يكون له تأثير يذكر فإنه ما من شك في أن شعورك بالقلق سيتناقص بشكل ظاهر. وربما كان من الضروري أن تكرر هذه العملية عدة مرات، ولكنك في النهاية ستجد شعورك بالقلق قد تلاشى وخلف وراءه شعورًا بالراحة والاطمئنان.

وهذه الوسيلة جزء من خطة عامة لتجنب الشعور بالخوف. والقلق ما هو إلا نوع من أنواع الخوف.

وكل أنواع الخوف تؤدي إلى الإرهاق. والفرد الذي يستطيع التغلب على شعور الخوف، يقل إحساسه بالإرهاق في حياته اليومية. وينشأ الخوف في أشد صوره، حين نحس أن ثمة خطرًا محدقًا علينا أن نواجهه.

وفي اللحظات الحرجة تقفز إلى مخيلاتنا أفكار مرعبة، ونوع هذه الأفكار يتوقف على طبيعة الفرد، وإن كان كل إنسان لديه دائمًا إحساس كامن بالخوف فهذا رجل يخاف السرطان، وهذا رجل يخشى الانهيار المالي، وهذا رجل ثالث يخشى أن يذاع أحد الأسرار الشنيعة عنه، ورابع تعذبه الشكوك والغيرة، وهذا الرجل الخامس يتصور خلال الليل أن الأساطير التي رويت له خلال طفولته عن الجحيم قصص حقيقية.

ومن الجائز أن يتخذ هؤلاء الرجال الطريقة الخاطئة لتجنب الخوف. وإذا خالجهم هذا الإحساس، حاولوا تغيير اتجاه تفكيرهم إلى ناحية أخرى. فهم يشغلون أنفسهم ببعض التسلية أو العمل أو أي شيء من هذا القبيل. وتزداد أنواع الخوف عمقًا إذا لم يعمل الإنسان على مواجهتها. ولعل أسلم وسيلة لمواجهة كل أنواع الخوف هو التفكير فيه بطريقة معقولة سليمة، مع شيء كثير من التركيز. حتى يصبح ذلك الخوف شيئًا عاديًا مألوفًا.

وفي نهاية الأمر ستقضي هذه الألفة على الشعور بالخوف. ويصبح الأمر كله موضوعًا سقيمًا تتحول أفكارنا عنه، لا بطريقة الإرادة، بل لفقدان الموضوع أهميته من أساسه. وحين تجد نفسك مضطرًا إلى التفكير في أي شيء من الأشياء، فإن أحسن خطة ينبغي اتباعها هو التعمق في التفكير في هذا الشيء أكثر مما يقتضيه الأمر، حتى يفقد الشيء أي عنصر مشوق يدعو للاهتمام.

وتمثل مشكلة الخوف أحد جوانب الضعف في أخلاقيات العصر الحديث.

وإذا كان من المقرر أن الشجاعة الجسمية أمر مطلوب من الرجال، وخاصة في الحروب، فإن أنواع الشجاعة الأخرى لا تطلب منهم كما أن الشجاعة على أي صورة من صورها صفة لا تطلب في النساء. فالمرأة التي تتصف بالشجاعة عليه أن تخفي هذه الحقيقة إذا كانت ترغب في اجتذاب الرجل المحافظ.

ويُؤخذ على الرجل اتصافه بأي نوع من أنواع الشجاعة غير الشجاعة الجسمية. فتجاهل الرأي العام مثلًا يعد تحديًا للجمهور، ولا يترك الجمهور أي وسيلة إلا اتخذها لتأديب من يتحداه.

وهذا كله أمر مُناقض لما يجب أن يحدث بالفعل. فإنه يجب علينا أن نقدر الشجاعة في مختلف صورها.

وانتشار الشجاعة الجسمية بين الشباب يثبت لنا أنه من الممكن تنمية الشعور بالشجاعة إذا كان ذلك عن طريق الاستجابة للرأي العام. وتنمية الإحساس بالشجاعة يقلل من الإحساس بالقلق ومن ثم الإحساس بالتعب؛ ذلك لأن نسبة كبيرة من الإرهاق العصبي الذي يعانيه الرجال والنساء على السواء يرجع إلى المخاوف، سواء كانت شعورية أو لا شعورية.

وثمة سبب آخر من أسباب التعب وهو السعي وراء الاستثارة. فإذا استطاع الرجل أن يمضي وقت فراغه في النوم، فإنه سيشعر بالاستجمام، ولكن الواقع أن ساعات عمله تمضي على وتيرة واحدة، ولذلك فهو يشعر بالحاجة إلى اللذة خلال ساعات فراغه. وترجع المشكلة إلى أن ذلك النوع من اللذة الذي يسهل تحقيقه يؤدي عادة إلى إرهاق الأعصاب.

وإذا زادت الحاجة إلى الاستثارة عن حد معين فإن ذلك يدل على شيء من الانحراف، أو قد يدل على إحساس متأصل بعدم الرضا. وقد يشعر معظم الرجال بالحاجة إلى الاستثارة في الأيام الأولى من الزيجات السعيدة.

أما في العصر الحديث فإن العوامل المادية تفرض على الرجل إرجاء الزواج إلى فترة طويلة من الزمن.

وفي الوقت الذي تتيسر فيه لديهم هذه العوامل المادية، يكون عنصر الاستثارة قد أصبح لديهم عادة لا يستطيعون منها خلاصًا. ولو أن العرف العام سمح للناس بالزواج في سن الحادية والعشرين دون أن يفرض عليهم هذه القيود المادية، لما حاول الناس متابعة أنواع اللذة التي تشبه في إرهاقها العمل الجدي. ولكن القول بهذا المبدأ يعد مجافيًا للأخلاق، ويُمكن أن يفهم هذا من المصير الذي لقيه القاضي الذي أغفل ذكره رغم حياته الطويلة الحافلة؛ عندما حاول إنقاذ الشباب من المساوئ التي تردى فيها آباؤهم.

أما بالنسبة للفرد، فإننا لا نستطيع تغيير القواعد والقوانين التي يعيش طبقًا لها. فمن الصعب أن يواجه الإنسان ذلك الموقف الذي فرضه الأخلاقيون المتزمتون.

ومع ذلك من الأجدى علينا أن نعرف أن ممارسة اللذة العارمة ليس طريقًا إلى السعادة، وإن كان الإنسان يضطر أحيانًا إلى البحث عن المثيرات، إذا لم يتيسر له الحصول على المسرات الهادئة، وفي هذه يعمد الرجل العاقل إلى موازنة سلوكه، فلا يسمح لنفسه باصطناع اللذة العارمة، لدرجة تؤثر في صحته، وتخل بعمله.

وأهم علاج للمشاكل التي يعانيها الشباب هو تغيير التقاليد العامة. ولعله من الأفضل للشباب أن يعرف دائمًا أن مصيره إلى الزواج، وأنه من غير الحكمة أن يتصرف في حياته بطريقة تؤدي في النهاية إلى الشقاء في الحياة الزوجية، وهو شقاء يأتي من توتر الأعصاب، وافتقاد القدرة على تذوق المتعة البريئة.

ومن أسوأ مظاهر التوتر العصبي هو أنه يفصل بين المرء وبين العالم الخارجي، فالإحساسات تصل إليه من الخارج مشوهة مبتورة ولذلك فهو لا يرى الناس في الخارج إلا في حالة من الضيق والتكلف، وهو لا يستمد أي راحة من طعامه، أو من ضوء الشمس الساطعة، وإنما يركز اهتمامه في بعض الأشياء بعينها، غير مبال بالأشياء الأخرى.

وهذا الوضع يجعل من غير الممكن أن يتمتع الإنسان بالراحة، بل يتزايد الشعور بالتعب إلى درجة يصبح معها العلاج الطبي أمرًا ضروريًا.

ويعد كل هذا في الواقع عقابًا للفرد لانفصاله عن حياة الأرض التي تحدثنا عنها في الفصل السابق. ولكن كيف يمكن الاحتفاظ بالصلة بين حياة الفرد وحياة الأرض في عالمنا الحديث، وهو سؤال ليس من السهل الإجابة عليه أنه كما يتصلى ببعض المشاكل الاجتماعية التي تخرج عن نطاق هذا الكتاب.

الحسد

يُعد الحسد من أهم أسباب الشقاء بعد القلق. ويمكن القول بأنه ظاهرة تتأصل بذورها في الإنسان في مختلف أنحاء العالم. وهو ظاهرة يمكن ملاحظتها في الأطفال قبل أن يمر على ولادتهم عام واحد، ويجب على المربي أن يعالجها في شيء من الحذر والعناية. فالطفل يشعر بالمرارة لأي تفرقة بسيطة يلحظها في المعاملة بينه وبين أي طفل آخر. وكل إنسان يعهد إليه بتربية الأطفال يجب عليه أن يراعي معهم العادلة التامة المطلقة التي لا تتغير أبدًا.

والأطفال أكثر صراحة في التعبير عن شعورهم بالحسد والغيرة – وهي في حد ذاتها نوع من أنواع الحسد – عن الأشخاص الكبار. فشعور الحسد يخالج الكبار كما يخالج الأطفال الصغار، ولنضرب مثلًا من الخادمات لذلك. فإني أذكر أنه كانت لنا خادمة متزوجة، وكانت هذه الخادمة حاملًا في فترة من الفترات. فقررنا ألا تقوم برفع الأحمال الثقيلة. فكانت النتيجة المباشرة لذلك أن جميع الخادمات الأخريات تجنبن رفع هذه الأحمال وكان علينا نحن أنفسنا أن نقوم بهذا العمل بدلًا منهن.

والحسد هو أساس الديموقراطية، يذكر هرقليطس أنه كان من الواجب أن ينشق جميع سكان مدينة أفسيوس لأنهم طالبوا بألا يكون لهم رئيس. ويبدو أن هذا الشعور كان الدافع لظهور الحركة الديموقراطية في المدن اليونانية. ويُمكن تطبيق هذا القول على الحركة الديموقراطية الحديثة.

ومن الحق أن نقرر أن هناك إحدى النظريات المثالية التي تقول بأن الحكومة الديموقراطية هي أفضل أنواع الحكومات. وإني أعتقد شخصيًا أن هذه النظرية صحيحة. ولكن النظريات المثالية ليس لها من التأثير في مجال السياسة العملية ما قد يؤدي إلى تغيير كبير، وإذا حدث أن طرأ أي نوع من التغيير فإن النظريات التي تتخذ لتبريره تكون عادة ستارًا تختفي تحته عاطفة معينة. والعاطفة التي تدفع بالنظريات الديموقراطية إلى الأمام ليست في واقع الأمر إلا عاطفة الحسد.

أقرأ مذكرات مدام رولان، تلك المرأة التي ذكر الناس عنها أنها كانت مدفوعة دائمًا بحب الغير والتضحية في سبيلهم ستجد أن الدافع الذي جعل منها امرأة ديموقراطية ممعنة في هذا المذهب هو أنها أدخلت صالة الخدم حين أتيحت لها فرصة الاتصال بأحد القصور الأرستقراطية.

ويلعب الحسد دورًا كبيرًا في أوساط النساء. فإذا حدث أن كنت جالسًا في إحدى السيارات وصعدت إليها سيدة أنيقة، فلتراقب عيون النساء الأخريات، ستجدهن باستثناء أولئك اللواتي أشد منها جمالًا، يلحظنها بعيون شريرة، ويحاولن أن يجدن شيئًا يعيبه عليها.

وما التشهير بالناس إلا تعبير عن هذا الاتجاه العام نحو الشر، فكل قصة تقال عن امرأة أخرى يسهل تصديقها، حتى ولو بنيت هذه القصة على برهان عابر.

ويتخذ الإيمان بالأخلاقيات العالية وسيلة لهذا الهدف فبينما يوضع أولئك الذين سنحت لهم الفرصة لتحطيم الأخلاقيات موضع الحسد، يعتبر عقابهم نوعًا من الفضيلة.

ويمكن القول بنفس الشيء بالنسبة للرجال مع فارق واحد، وهو أن المرأة تعتبر جميع النساء منافسات لها، بينما يقتصر شعور الرجل بالحسد على الرجال من ذوي مهنته.

وأنت أيها القارئ ألم يصادف الأمر أن دفعك النزق مرة، فأشرت إلى محاسن أحد الفنانين في حضور فنان آخر، هل مدحت سياسيًا في حضور أحد رجال السياسة من نفس الحزب، أو قرظت عالمًا في الآثار المصرية في حضور عالم آخر في نفس هذه الآثار؟ إذا كان ذلك قد حدث، فإنه من المؤكد أنك قد فجرت بمقالتك هذه ينابيع الحسد في نفس محدثك.

ومن الرسائل التي تبادلها الفيلسوفان ليبنتز وهيوجنس رسائل يبديان فيها أسفهما للحقيقة المزعومة عن إصابة نيوتن بالجنون؛ ويقولان لبعضهما أنه من المحزن حقًا أن يفقد هذا العبقري الذي لا مثيل له توازن عقله. وقد ذرف هذا الرجلان العظيمان دموع التماسيح غزيرة في خطاب إثر خطاب.

مع أن الحقيقة التي زعماها في خطاباتهما لم تحدث قط؛ وإن كانت هناك بعض الأمثلة على الاضطراب في سلوك نيوتن التي أثارت حوله هذه الشائعات.

والحسد هو أتعس صفة يمكن أن تتصف بها طبيعة البشر، فالحسود لا يلحق أذاه بغيره حين تتاح له الفرصة لذلك فحسب، بل إنه نفسه يعاني الشقاء نتيجة لهذا الإحساس بالحسد، فغنه بدلًا من أن يستمد السعادة مما يملكه، فغنه يستمد الشقاء مما يملكه الناس. وهو يحرم غيره ما يتميزون به إذا كان في استطاعته ذلك، وهو أمر يرغب في تحقيقه كما لو كان يرغب في تحقيق هذه الميزة لنفسه.

وإذا أطلقنا العنان لهذه العاطفة، فإنها ستقضي من غير شأن على كل إنتاج، حتى ولو كان هذا الإنتاج ضروريًا. لماذا يسعى الطبيب إلى مرضاه في سيارة، بينما يسعى العامل إلى عمله راجلًا؟، لماذا يسمح للمحقق العملي أن يتابع أبحاثه في غرفة دافئة، في الوقت الذي يعاني فيه أناس آخرون مرارة البرودة؟ لماذا يتاح للإنسان الفذ الذي يتمتع بموهبة خارقة، أن يتخلص من أعبائه المنزلية؟ كل هذه أسئلة لا يجد الحسد لها جوابًا. غير أنه من حسن الطالع أن العواطف الإنسانية تتضمن عاملًا آخر يتعادل مع الحسد، وهو عامل الإعجاب. وكل من يهدف إلى زيادة السعادة الإنسانية عليه أولًا أن يزيد من شعور الإعجاب بين الناس، ويقلل من شعور الحسد.

وبعد فما هو علاج الحسد؟ هذا العلاج بالنسبة للقديس هو إهدار النفس، وإن كان الوضع بين القديسين لا يخلو من تبادل شعور الحسد مع بعضهم البعض. وأنا أشك كثيرًا في ذلك الشعور الذي كان سيخالج الراهب سيمون ستيلاتس لو أنه سمع براهب آخر يمكنه الوقوف لمدة أطول منه على عمود ضيق.

وإذا أخرجنا القديسين من حسابنا، فإن العلاج الوحيد لتلافي الحسد بين النساء والرجال العاديين هو الإحساس بالسعادة، وتجيء المشكلة هنا من كون الحسد في ذاته عقبة في سبيل هذا الإحساس.

وأعتقد أن الحسد وليد بعض النكبات التي تصيب الإنسان في الطفولة. فالرجل الذي كان يحس دائمًا إبان طفولته أن أخاه أو أخته مفضلة عليه، يربي عنده الشعور بالحسد، وحين يخرج إلى العالم تراه دائمًا ضمن الباحثين عن المتاعب التي يعتبر نفسه ضحية لها، سواء كانت هذه المتاعب أمرًا حقيقيًا، أو شيئًا من صنع مخيلته.

ومثل هذا الإنسان شقي ما في ذلك شك، وهو دائمًا مصدر للقلق والمضايقة لأصدقائه من حوله، ويبدأ الأمر معه بأن يتخيل أن جميع الناس يضطهدونه، ثم ينتهي به سلوكه أخيرًا إلى أن يضر الناس إلى اضطهاده بالفعل.

ومشكلة أخرى من المشاكل التي تعانيها الطفولة، وهي افتقاد الطفل أحيانًا لعاطفة الأبوة، رغم أن أبويه حيان يرزقان. ويدفعه هذا الشعور إلى عقد المقارنة بين نفسه وبين الأطفال الآخرين الذين يتمتعون بهذا العطف، وينتهي به الأمر أخيرًا إلى أن يكره هؤلاء الأطفال، وإلى أن

يكره أبويه. ولما يكبر سيعد نفسه من المحرومين، ذلك أن بعض نواحي السعادة تعد حقًا من حقوق الإنسان منذ ولادته وإذا حرم هذا الحق فإن ذلك سيؤدي به إلى شعور عميق بالمرارة.

وقد يسأل الحسود: ما هي الفائدة التي تعود علي حين تقول لي أن علاج الحسد هو الإحساس بالسعادة، فأنا لا أستطيع أن أجد السعادة طالما يداخلني الحسد، وأنت تقول لي أني أستطيع التخلص من هذا الشعور حتى أجد السعادة؟ والواقع أن سنن الحياة لا تجري على مثل هذا المنطق. فإنك إذا تحققت من دوافع الحسد في نفسك، تكون بذلك قد خطوت خطوة نحو التخلص من هذه الدوافع.

وعادة التفكير على أساس المقارنة عادة خطيرة حقًا. فإذا مرت بحادث يدعو إلى الارتياح، فلتتمتع به إلى النهاية، دون أن تحاول أن تتصور مدى الارتياح الذي كان من المنتظر أن تشعر به إذا كانت ظروفك شبيهة بإنسان آخر.

يقول الرجل المحسود: حقًا أن هذا يوم شمس من أيام الربيع، والطيور تصدح، والزهور ناضرة، ولكني أعلم أن الربيع في صقلية أجمل آلاف المرات؛ وأن الطيور هناك أرق شدوًا. وحين تمر بمخيلته هذه الأفكار يزبد وجه السماء وتتوقف الطيور عن الغناء.

والإنسان الحسود يعالج كل مباهج الحياة بنفس هذه الطريقة، إنه يقول: نعم إن الفتاة التي أحبها جميلة؛ وأنا أحبها، وهي تحبني، ولكن ما كان أجمل ملكة سبأ.

الواقع أن كل هذه المقارنات أمور جوفاء لا هدف لها؛ وسواء كان مصدر الشقاء هو الملكة سبأ أو جارتنا القريبة، فإن التفكير في كليهما شيء تافه. والحكيم هو الذي يتمتع بما لديه دون أن يعكر عليه صفوة النظر إلى ما يملكه رجل آخر.

وللحسد، كصورة من صور الشر، أساس عقلي إلى جانب أساسه الأخلاقي. فالحسود لا يقدر الأشياء في ذاتها، وإنما يقدرها بالنسبة لأشياء أخرى. وخير علاج لهذا كله أن يرتب الإنسان عقليته بحيث يستبعد الأفكار التي لا جدوى منها.

وبعد أليست السعادة هي أشد الأشياء داعيًا للحسد؟ وإذا طهرت نفسي من عاطفة الحسد؛ فإني سأحس بالسعادة ومن ثم أصبح بدوري أحد الأشخاص الذين يحسدون.

وليس من شك في أن الشخص الذي يتقاضى أضعافي في المرتب يتجه إلى حسد شخص آخر أكبر منه؛ وهكذا دواليك إذا كنت من طلاب المجد فلتحسد نابليون؛ ولكن نابليون كان يحسد قيصر؛ وكان قيصر يحسد الأسكندر الأكبر؛ ومن الجائز أن الإسكندر كان يشعر بالحسد نحو هرقل؛ تلك الشخصية الأسطورية التي لم تضع قدمًا قط على ظهر الأرض. فأنت لذلك لا تستطيع أن تتجنب شعور الحسد عن طريق تحقيق النجاح فحسب. ما دام هناك في التاريخ أو في عالم الأسطورة شخصية حققت من النجاح ما لم تستطع تحقيقه.

ولكنك تستطيع التغلب على عاطفة الحسد إذا استمتعت بما لديك من المتع، والقيام بما يطلب إليك من عمل؛ ثم يتجنب عقد المقارنات مع أولئك الذين تتصور أنهم أكثر حظًا منك.

والتواضع الذي يفوق الحد أمر وثيق الصلة بالحسد؛ وإذا كان التواضع بعد فضيلة، فإني أشك في أن الإغراق فيه أمر مطلوب، فالقوم المتواضعون يفقدون الثقة في النفس كثيرًا؛ كما أنهم يفتقدون الشجاعة الكافية للاضطلاع بأعمال هم في واقع الأمر أكفاء للقيام بها. ويعتقد هؤلاء القوم أن كل من يتصل بهم يعد أكثر تفوقًا عليهم؛ وهم لذلك عرضة للشعور بالحسد، ومن ثم عرضة للشقاء والتعاسة.

وأعتقد أن ثمة فائدة كبيرة تجنى إذا تعلم المرء منذ الطفولة الاعتداد بالنفس، كما إني لا أزعم أن هناك من الطواويس ما يشعر بالحسد نحو غيره من الطواويس، ذلك لأن كل طاووس يعتقد اعتقادًا جازمًا أن ذيله هو أجمل ذنب في العالم. وينتج عن ذلك أن أصبحت كل الطواويس من الطيور المسالمة.

ولنتصور إذن مدى الشقاء الذي كانت ستعانيه مملكة الطواويس إذا تعلم كل فرد في هذه المملكة ألا يعتد بنفسه. فإذا رأى الطاووس طاووسًا آخر ينشر ذيله قال لنفسه "إنه يجب ألا أتصور أن ذيلي أكثر جمالًا من هذا الذيل لأن ذلك يعد من قبيل الغرور، ولكن كم أتمنى أن يكون ذيلي كذيله، إن هذا الطائر اللعين يحس أنه أحسن من غيره، هل لي في أن أقتلع بعضًا من ريشه، وحينذاك لن يكون هناك مجال للمقارنة بيني وبينه".

ومن الجائز أن ينصب الطاووس شراكًا لزميله، ليتهمه أمام مجتمع الطواويس بأنه لم يسلك السبيل الحقة لهذا المجتمع، ومن ثم يصبح ذلك الطاووس عرضة للتشهير به في كل مكان.

وبالتدريج يتقرر بين أفراد هذا المجتمع مبدأ عام، وهو أن الطاووس ذا الذي الجميل إنما هو عنصر لئيم في المجتمع، وأن الحاكم العقال في ملكة الطواويس عليه أن يعهد بالمسئوليات للطواويس الهزيلة ذات الذيول القصيرة.

وحين يتقرر هذا المبدأ يعمد حاكم الطواويس إلى قتل الطواويس الجميلة، وتصبح الذيول الرائعة ذكرى من ذكريات الماضي.

هذا هو الحسد حين يقنع في لباس الأخلاقيات، أما في المملكة التي يعتبر الطاووس فيها ذيله أجمل الذيول قاطبة، فليس هناك ما يدعو إلى كل هذا الضغط، فكل طاووس يتوقع أنه سينال الجائزة الأولى في مسابقات الجمال، بل أنه يعتقد أنه قد نال هذه الجائزة بالفعل.

وليس من شك في أن الحسد يرتبط تمام الارتباط بالتنافس. فالمرء لا يحسد صاحب الثروة الطائلة إذا كان تحقيق مثل هذه الثروة أمر بعيد الاحتمال.

وفي العصور التي يستقر فيها نظام الطبقات الموسرة طالما آمن أفراد هذا المجتمع بأن تحديد هذا الفارق أمر من صنع الإله، فالشحاذون لا يحسدون أصحاب الملايين، ولكنهم يحسدون شحاذين آخرين أكثر نجاحًا منهم في مزاولة مهنة الشحاذة، أما في العصر الحديث فقد ساعد عدم استقرار الميزان الاجتماعي وانتشار المذاهب

التي تدعو للمساواة كالديموقراطية والاشتراكية، ساعد هذا له على اتساع نطاق الحسد، ويعد هذا في الآونة الحاضرة شرًا، ولكنه شر لا بد منه في سبيل تحقيق نظام اجتماعي عادل.

فحين يُفكر الإنسان تفكيرًا عقليًا منظمًا في الفوراق التي قد يراها في المجتمع سيدرك من غير شك أنها فوارق ظالمة، إلا إذا كانت تستهدف غرضًا آخر لابد من اجتيازها للوصول إليه.

والعصر الذي نعيش فيه عصر يلعب الحسد فيه دورًا هامًا. فالفقراء يحسدون الأغنياء، والأمم الفقيرة تحسد الأمم التي هي أغنى، ويحسد النساء الرجال، والنساء الفضليات يحسدن أولاء اللواتي يتمتعن بمزايا الفضيلة دون أن يتمسكن بها.

وإذا كان من المحقق أن الحسد هو الدافع الأساسي لتحقيق العدالة بين مختلف الطبقات وبين مختلف الأمم، وبين أفراد الإنسان على تباين جنسهم، فإنه من المحقق أيضًا أن نوع العدالة الذي ينتج عن الحسد هو أسوأ الأنواع، لأنه يقوم على تحطيم سعادة ذوي الحظ، لا على إسعاد المحروم. فالعواطف التي تؤدي إلى تحطيم حياة الفرد، هي نفس العواطف التي تهدم حياة المجتمع. وليس لنا أن نفترض أن أمرًا خبيثًا كالحسد يمكن أن يثمر ثمارًا تتصف بالنبل.

وعلى أولئك الذين تدفعهم المثل العليا إلى العمل على تغيير النظام الاجتماعي وتدعيم العدالة الاجتماعية، عليهم أن يتخذوا لذلك قوى أخرى غير قوى الحسد لتحقيق المثل التي يهدفون إليها وإذا كانت الأمور السيئة يرتبط بعضها بالبعض الآخر، كما أن بعضها يترتب على

بعض، فإن الإرهاق في كثير من الأحيان ينتج الحسد، فإذا أحس امرؤ أنه غير كفئ للعمل الذي يؤديه، فسيغمره شعور عام بالاستياء، فقد يتخذ صورة الحسد لغيره من الزملاء الذين يؤدون عملهم على الوجه الصحيح.

ولذلك فإن تجنب الإرهاق يعد عاملًا من هاما في سبيل القضاء على شعور الحسد. غير أن أهم العوامل قاطبة في هذا السبيل هو أن يهيئ المرء لنفسه حياة هانئة لا تتعارض مع إشباع غريزته.

الواقع أن العامل الجنسي يعد مصدرًا هامًا من مصادر الحسد. فالرجل الذي يسعد بين زوجه وأطفاله، لا يتجه إلى حسد غيره لما لهم من ثراء أو نجاح، ما دام لديه ما يكفيه لتربية أطفاله تربية مثالية. وأدوات السعادة الإنسانية أدوات بسيطة بلغت من بساطتها أن القوم المعقدين لا يستطيعون إدراكها.

وأولئك النساء اللواتي أشرت إليهن من قبل، واللواتي يحسدن غيرهن من النساء لأناقة مظهرهن، إنما يعانين شقاء في حياتهن الغريزية.

والسعادة التي تتصل بالحياة الغريزية أمر تفتقده النساء في العالم الناطق بالإنجليزية.

وهذه من غير شك هي إحدى أخطاء المدنية الحديثة. وإذا كان لنا أن نعمل للقضاء على الحسد فإن علينا أن نصطنع الوسائل لذلك، وإلا فإن المدنية ستنقلب إلى أداة بث الكراهة في نفوس الناس.

ففي العصور القديمة كان الناس يحسدون جيرانهم فقط، إذ لم تكن لديهم الوسائل لمعرفة الكثير عمن يعيش بعيدًا عنهم.

أما الآن فقد تيسرت لهم هذه الوسائل بعد انتشار التعليم والصحافة، فتعرف الناس على أجناس من بني الإنسان لم يسبق لهم التعرف على أي فرد ينتمي إليها، كما عرف خلال السينما كيف يعيش الأغنياء وعرفوا خلال الصحف الشيء الكثير عن خبث الأمم الأجنبية، وخلال الدعاية عرفوا بعض العادات التي يزاولها قوم يختلفون عنهم في اللون والجنس. فالجنس الأسود يكره الجنس الأبيض، والجنس الأبيض يكره الجنس الأسود، وهكذا دواليك، والشيء الذي يثير كل هذا الكره هو الدعاية، وإن كان ذلك تفسير سطحي للموضوع.

فلماذا تنجح الدعاية في إثارة الكره والبغضاء أكثر من نجاحها في تدعيم علاقات الصداقة؟ السبب واضح في ذلك وهو أن القلب البشري، كما صاغته المدنية الحديثة أصبح أكثر قابلية لشعور البغضاء من شعور المحبة.

وقد أصبح القلب البشري كذلك لأنه يحس إحساسًا عميقًا بأنه يفتقد معنى الحياة، وأن من الجائز أن هناك ناسًا آخرين ضمنوا لأنفسهم المتعة بما أتاحته الطبيعة للإنسان بينما حرمنا نحن من ذلك. والمتع التي يلقاها الإنسان الحديث في حياته، أكثر في مجموعها من المتع في المجتمعات البدائية، ولكن إحساس الإنسان بما قد يحدث في المستقبل قد زاد عن ذي قبل. وإذا عن لك ذات يوم أن تصطحب أطفالك إلى حديقة الحيوان، فلتتفرس قليلًا في عيون الغوريلا. فإن هذه الحيوانات يغمرها شعور غريب بالأسى دائمًا، إلا في الوقت الذي تزاول فيه بعض أنواع الرياضة، أو تكسر البندق.

وإن المرء ليتصور أن هذه الحيوانات تحس بأنه كان من الواجب أن تنقلب إلى أناس، ولكنها تفتقد السر الذي يفتح لها الطريق. إنها تحس أنها ضلت الطريق وهي في سبيلها إلى التطور. بينما اجتازته أخواتها وخلفتها وراءها.

وبدو أن شيئًا من هذا الشعور بالمرارة علق بنفس الإنسان المتحضر. فهو يعرف تمام المعرفة أن هناك ما هو أفضل منه، وأن هذا الشيء يكاد يكون في متناول يده، ولكنه لا يعرف الطريق للبحث عنه أو للعثور عليه، ولذلك فإن حالة اليأس التي تطغى عليه تدفعه إلى الثورة على أقرانه من الرجال، بينما لا يقلون عنهم شقاء وتعاسة.

ولقد وصلنا إلى مرحلة في التطور ليست هي المرحلة النهائية. ويجب أن نجتاز هذه المرحلة في سرعة، لأنه إذا لم يقدر لنا ذلك، فإن معظمنا سيفنى في الطريق، بينما يتيه الآخرون في غابة من الشك والخوف.

وعلى الرغم من كون الحسد أمرًا مكروهًا، ورغم بشاعة النتائج التي تترتب عليه فإنه لا يعد على كل الأحوال شرًا خالصًا. فهو إلى حد ما تعبير عن الألم الضخم الذي يعانيه أولئك الذين يضربون في الليل على غير هدى، وهم بين أن يصلوا إلى مستقر أفسح مجالًا، أو أن يكون مصيرهم الموت والفناء.

وعلى الإنسان المتحضر كي يجد له مخرجًا من لجة اليأس هذه، أن يتسم برحابة الصدر كما اتسم برحابة العقل، يجب عليه أن يتعلم كيف يتجاوز نطاق الذات، ومن ثم أن يحصل على حرية الكون بأجمعه.

الشعور بالخطيئة

الشعور بالخطيئة يعد أحد الأسباب النفسية الهامة التي تؤدي إلى الحياة التعيسة. وقد رسمت الديانة التقليدية بعض القواعد التي لا يمكن لأي عالم نفسي حديث أن يتقبلها، إذ أنه كان من المعتقد، وخاصة في عرف البروتستانت أن الضمير هو الذي يحدد للإنسان ما إذا كان العمل الذي يأتيه شرًا، وأن الإنسان بعد أن يأتي ذلك العمل يداخله أحد إحساسين أولهما الشعور بالندم؛ وذلك إذا كان الزمام قد أفلت من يديه، والآخر هو الإحساس بالتوبة وهو إحساس كفيل بأن يمحو الذنب عنه.

وقد ظل الناس يؤمنون فترة من الزمن بهذا الفهم لمعنى الخطيئة في البلاد التي تؤمن بالبروتستانية؛ ومن هؤلاء الناس من فقد إيمانه فقدانًا تامًا.

أما في العصر الحديث فقد أصبح الأمر على العكس من ذلك، وخاصة بعد انتشار مذاهب التحليل النفسي؛ فليس المتحررون هم وحدهم الذين نبذوا المعنى القديم للخطيئة، بل إن كثيرًا من المحافظين أنفسهم فعلوا ذلك.

وكذلك لم يصبح الضمير معبرًا عن صوت الله، بعد أن ذهبت عنه تلك الهالة الغامضة التي كانت تحيط به من قبل، فنحن نعلم الآن أن "الضمير" يختلف في تكوين عناصره باختلاف بقع العالم؛ وأنه على وجه

العموم يتفق مع العادات القبلية في مختلف جهات العالم. فما الذي يحدث إذن لرجل حين يؤنبه ضميره؟ إن كلمة "الضمير" تتناول في الواقع عدة إحساسات مختلفة، وأيسر هذه الإحساسات خشية المرء أن يكتشف أمره.

وإني أثق أيها القارئ في أنك قد عشت حياة بريئة، غير أنك لو سألت واحدًا من أولئك الذين ارتكبوا من الأخطاء ما يجوز عليه العقاب لأجابك بأنه يحس بتأنيب الضمير إذا شاع أمره؛ ولا أعني أن ذلك مبدأ يمكن تطبيقه على اللص المحترف، الذي يتوقع أن يلاقي جزاء السجن كنحو من أنحاء الخسارة في تجارته؛ وإنما أقصد من هذا الكلام الشخص العادي كمدير البنك الذي يختلس في ظروف اضطرارية، أو رجل الدين الذي يرتكب الخطيئة الجنسية نتيجة للإغراء.

مثل هؤلاء الناس ينسون جرائمهم أو يتناسونها إذا لم تكن الفرصة مهيأة لافتضاح أمرهم. أما إذا اكتشفت الحقيقية أو كادت فإن هؤلاء الناس يتمنون لو كانوا أكثر فضلًا، ومن ثم ينشأ لديهم إحساس عميق بالخطيئة.

ويرتبط بهذا تمام الارتباط خوف المرء من أن يلفظه المجتمع، فليس لدى الرجل المخادع في لعب الورق، أو الذي لا يفلح في سد ديونه، ما يبرر موقفه أمام المجتمع، وهو في هذا يختلف عن المصلحين الدينيين والثائرين، الذين يحسون دائمًا أن المستقبل لهم، وأنهك سيكافأون بالنتائج مهما كلفهم ذلك من مشقة في الوقت الحاضر؛مثل

هؤلاء الرجال لا يحسون بالخطيئة رغم الشعور العدائي الذي قد يواجهونه من المجتمع؛ أما ذلك الذي يُؤمن بمبادئ المجتمع الذي يعيش فيه رغم مخالفته لها في سلوكه؛ فإنه يعاني شقاء لا مثيل له، والخوف من هذا الشعور هو الذي يدفع إلى الإحساس بالخطيئة. ولكن الإحساس بالخطيئة في أهم صوره شيء أعمق من هذا؛ تمتد جذوره في اللاشعور، ولا يتخذ مظهره الواعي شكل التخوف من امتهان المجتمع للفرد.

وهُناك بعض الأعمال التي إذا أتاها الإنسان سميت خطيئة؛ دون سبب ظاهر. وإذا ارتكب إنسان ما هذه الأفعال، خالجه شعور غامض بعدم الارتياح، وتمنى لو أنه ابتعد عن كل ما يعتقد أنه خطيئة.

مثل هذا الإنسان لا يعجب إلا بمن يؤمن بطهارة قلبه، وهو يدرك في شيء من الحسرة أنه ليس قديسًا، وإن كان الواقع أن تصوره للقداسة يجعل من هذه الصفة أمرًا مستحيل التحقيق في حياتنا اليومية. ومن ثم فهو يمضي في حياته وهو يحمل عبء الإحساس بالذنب. ويعلم في قرارة نفسه أنه لن يصل إلى القمة في يوم من الأيام، وأن كل ما يمكن أن يطمح إليه هو بضع لحظات من التوبة.

ومصدر هذا كله في كل حالة من الحالات تقريبًا، هو التعليم الأخلاقي الذي تلقاه المرء قبل أن يبلغ السادسة من عمره على يد أمه أو مربيته، فالمرء يتعلم قبل هذه السن أن القسم أمر مكروه، وأن عليه أن يتخذ اللغة المهذبة في الحديث، وألا يتناول الخمر، وأن الطباق يتعارض مع الفضيلة.

كما يتعلم المرء قبل هذه السن ألا يكذب، وقبل هذا كله يتعلم المرء أن أي أهمية يعيرها للأعضاء الجنسية تعد منكرًا كبيرًا. وهو يتلقى هذا كله عن أمه. ويُؤمن أن هذا هو ما أملاه الخالق.

ولقد كان أقصى ما يتمناه في الحياة أن تعامله أمه أو مربيته في عطف وحنان، وكان لا يحصل على هذه الأمنية إلا إذا اتبع القانون الأخلاقي. ومن ثم فقد ارتبط في ذهنه أي سلوك يتعارض مع الأخلاق بشعور غامض مكروه. وعندما يكبر المرء ينسى شيئًا فشيئًا المصدر الذي استمد منه القانون الأخلاقي. ولكن القانون الأخلاقي ذاته يبقى ثابتًا لا يتغير.

ومما لا شك فيه أن معظم هذه التعاليم الأخلاقية لا تنطوي على أساس منطقي، ولا يمكن تطبيقها على السلوك العادي للإنسان. فالرجل الذي تعود مثلًا اتخاذ لغة لسوقة، لا يعد من وجهة النظر العقلية أسوأ من الرجل الذي لا يتحدث هذه اللغة.

ومع ذلك فإن كل فرد منا يتصور أن القديسين يعتبرون تنزيه النفس عن مثل هذه اللغة أمرًا ضروريًا، وإن كان هذا يعد خطأ من الناحية المنطقية.

ونفس الشيء يُمكن أن يُقال عن تعود الخمر والتدخين، وإن كان هذا الشعور تجاه الخمر يختلف بعض الشيء في البلاد الجنوبية، بل إن من الناس من يعتبره مجافيًا للدين، ذلك أن المسيح نفسه والرسل قد عاقروا الخمر. أما بالنسبة للتدخين، فإنه من السهل أن يتخذ الإنسان موقفًا سلبيًا، فقد عاش مُعظم القديسين قبل أن يعرف الطباق.

وقد تعد هذه أيضًا مناقشة غير منطقية. فوجهة النظر القائلة بان القديسين لا يدخنون مستمدة من القول برفض القديسين لأي متعة من المتع.

وقد أصبح الناس يعتنقون هذا المذهب المتحفظ في الأخلاق بطريقة لا شعورية، ومع ذلك فقد سيطر هذا المذهب على سلوكنا لدرجة أصبح معها ناموسنا الأخلاقي لا يعتمد على أساس من المنطق.

فالمنطق يقول بمزاولة اللذة في الحدود التي لا ينتج عنها ألم يعادلها، سواء كان هذا الألم للذات أو للغير. وإذا تمكنا من استبعاد الرواقية المتحفظة، فإن مثل الرجل الفاضل، هو ذلك الذي يستطيع الاستمتاع بمباهج الحياة، دون أن ينتج عن هذا الاستمتاع أي شر يعادل المتعة التي يجيبها.

خذ مثلًا مشكلة الكذب، فأنا لا أنكر أن العالم مليء بالأكاذيب، وأنه لابد لنا من تدعيم الاتجاه نحو الصدق، ولكني أنكر، وأعتقد أن كل إنسان عاقل يوافقني في ذلك، أن الكذب لا يمكن تبريره في جميع الأحيان. وهنا أذكر أني رأيت في إحدى رحلاتي في الريف ثعلبًا في أشد حالات الإجهاد، يحاول أن يرغم نفسه على الجري. ثم التقيت بصياديه بعد دقائق، وحين سألني هؤلاء الصيادون عن الجهة التي اتجه إليها الثعلب، كذبت عليهم. ولا أعتقد أن قولي الصدق في هذه الحالة كان من المُمكن أن يخلق مني رجلًا أفضل.

ولعل الناحية الجنسية هي أهم مجال يظهر فيه التأثير السيء للتعاليم الأخلاقية الجامدة. فالتربية المحافظة التي يفرضها الآباء الجامدون على أبنائهم تؤدي بالطفل إذا ما بلغ السادسة من عمره إلى أن يتأصل في نفسه ترابط عميق بين الإحساس بالذنب وبين أعضائه الجنسية، وقد لا يفارقه هذا الترابط طيلة حياته بعد ذلك ويزيد من هذا الشعور الإصابة بعقدة أوديب. فالحرية الجنسية أمر لا يمكن تحقيقه مع المرأة التي أضفى عليها المرء عواطف الحب في صغره، ونتيجة ذلك أن يؤمن الرجال البالغون بأن الجنس أمر يحط من قدر المرأة، ومن ثم لا يحترمون زوجاتهم إلا إذا كره هؤلاء الزوجات مزاولة العملية الجنسية. ويضطر الرجال إزاء ذلك إلى إرضاء رغباتهم الجنسية في مكان آخر.

وليس من شك في إشباع هذه الرغبة سيكون في ظل الإحساس بالذنب، ومن ثم فإن الرجل لا يحس السعادة في اتصاله بالمرأة سواء كان ذلك عن طريق الزواج، أو عن طريق آخر.

ويُمكن أن يُقال نفس الشيء عن المرأة إذا تعلمت في صباها أن تكون امرأة طاهرة، فهي تضطر إلى أن تمنع نفسها عن زوجها، وألا تستشعر اللذة من الاقتراب منه. ونستطيع أن نقول أن هذه الحالة بين النساء الآن أخف منها مُنذ خمسين عامًا مضت. ولكن الحياة الجنسية بين الرجال من الطبقة المتعلمة في العصر الحاضر أشد منها اضطرابًا بين النساء. والقاعدة الصحيحة في هذه الناحية بسيطة أشد البساطة أولا وهي:

ألا تفرض على الطفل أي تعاليم أخلاقية تتصل بالجنس قبل أن يصل سن البلوغ، وتجنب أن تثير في نفسه الاشمئزاز من بعض الوظائف الطبيعية لجسم الإنسان.

وإذا حان الوقت كي يتلقى التعاليم الأخلاقية، فلتكن هذه التعاليم مبنية على أساس منطقي سليم. ولكني لا أريد هنا معالجة المشاكل التعليمية، وإنما أود معالجة الوسائل التي ينبغي على الكبار اتباعها للإقلال من النتائج السيئة التي يخلقها التعاليم الخاطئ، مما يضاعف الإحساس بالذنب بين الناس.

والمشكلة هنا هي نفس المشكلة التي واجهتنا في بداية هذا الكتاب، ألا وهي إيجاد الوسيلة التي تترسب بها المعتقدات العقلية المسيطرة على تفكيرنا في اللاشعور.

فيجب ألا يفسح المرء المجال لحالته النفسية العارضة لتؤثر في أحكامه، وتدعو إلى تغيير معتقداته بين حين وآخر. فإن الإحساس بالذنب عادة ما يشتد أثره في اللحظات التي تضعف فيها الإرادة الواعية، سواء كان ذلك بسبب الإرهاق، أو المرض، أو العربدة، أو لأي سبب آخر.

والمعروف أن الشعور الذي يخامر المرء في هذه اللحظات إنما يعبر عن ذاته العليا "لقد مرض الشيطان فأصبح قديسًا".

غير أنه من السفه أن نفترض أن لحظات الضعف لها تأثير في تنمية البصيرة أشد من لحظات القوة. فالإنسان لا يستطيع في لحظات الضعف أن يقاوم بعض النزوات الخاصة، التي لا يُمكن تفضيلها على

القرارات التي يتخذها خلال وعيه الكامل. بل على العكس من ذلك فإن على الرجل أن يتخذ من الأفكار التي تعن له عن إرادة أساسًا لمعتقداته الدائمة. وإنه لمن السهل أن يتغلب الإنسان على النزوات التي يمليها اللاشعور، كما أنه من السهل أن يغير المرء محتويات اللاشعور كلها.

هذا إذا اتبع الطريقة المثلى في سبيل ذلك. فإذا أحسست بأي نوع من الندم على عمل أتيته، دون أن ترى أساسًا منطقيًا لهذا الندم، فعليك أن تبحث في أسباب هذا الشعور، وحاول أن تقنع نفسك بتفاهتها. ولتكن معتقداتك الواعية واضحة وراسخة، وليكن تأثيرها على ضميرك اللاشعوري من القوة بحيث تستطيع التغلب على ما غرسته في نفسك مربيتك أو أمك مُنذ الصغر.

ولا ترضى لنفسك التقلب بين لحظات يسيطر فيها الوعي، ولحظات أخرى يسيطر فيها اللاوعي، وإنما عليك أن تفحص اللاوعي بدقة، وأن توطن نفسك على عصيانه وعدم الانصياع له.

وإذا حاول هذا اللاوعي أن يفرض عليك أي أفكار من أي نوع، فلتقتلع هذه الأفكار من جذورها، ولتفحصها، ثم لتلقي بها في الخارج. ولا ترضى لنفسك أن تصبح إنسانًا مذبذبًا، يتقسمك العقل من ناحية، ودوافع الطفولة من ناحية أخرى.

ولا يرعك أن تمتهن ذكرى أُولئك الذين تحكموا في طفولتك، فإنك كنت تراهم أقوياء في ذلك الوقت الذي كنت فيه ضعيفًا نزقًا، أما الآن حين ذهبت عنك هذه الصفات، فعليك أن تمتحن هذه القوة التي أسبغتها مخيلتك عليهم، بطريق التعود، وترى ما إذا كانت التعاليم

الأخلاقية التي يتلقاها الإنسان في صغره قد أدت إلى التطور بالعالم نحو الأمام؛ ولتحاول أن تدرك المدى الذي تثر به الخرافات في تكوين الشخص الذي تعتبره التقاليد خيرًا، ولعلك ستصل إلى أن المخاطر الأخلاقية الحقة التي يتعرض لها المراهق يغفل ذكرها، بينما فرضت القيود لمنع التردي في مخاطر أخرى من صنع الخيال. وبعد فما هي الأفعال المضرة التي قد يأتيها الشخص العادي؟ هي السلوك الأرعن الذي لا يعاقب عليه القانون، والتعسف في معاملة الموظفين، والقسوة نحو الزوجة والأطفال، واستخدام الوسائل الشريرة نحو المنافسين، واتخاذ العنف في المعارك السياسية، وكل هذه من غير شك خطايا تنتشر بين المواطنين الذين يدعون لأنفسهم اللياقة والاحترام.

وعن طريق هذه الخطايا يبسط المرء التعاسة والشقاء في الدائرة المحيطة به، ويساهم مساهمة فعالة في تحطيم الحضارة.

ومع ذلك فإن هذه الأشياء لا تدفعه إذا اعتراه المرض إلى تصور نفسه منبوذًا ليس له حق في العطف الإلهي، وليست هذه الأشياء هي التي تصور له الرؤى في الليل، حين يأتيه الكابوس ويرى أمه فيما يرى النائم وهي توجه له نظرات اللوم والتأنيب.

ما الذي يُؤدي إلى هذه الفرجة بين تفكيره الواعي، وبين قيمه الأخلاقية المدفونة في اللاشعور، السبب في ذلك هو تفاهة الأخلاقيات التي كان يؤمن بها أولئك الذين أشرفوا على طفولته، وهذه الأخلاقيات ليست نتيجة لدراسة الفر وعلاقاته مع المجتمع، وإنما نتجت عن التعلق ببعض النصائح البالية التي لا تعتمد على المنطق، والتي تتضمن في حد

ذاتها بعض عناصر الانحراف، ذلك الانحراف الذي يستمد أصوله من الأوصاب الروحية التي كانت تميز الإمبراطورية الرومانية المنهارة، ذلك أن الذين صنعوا تقاليدنا الأخلاقية هم الرهبان والنسوة الذين ضاقت آفاق تفكيرهم.

ولقد حان الوقت كي يشارك الشخص العادي الذي يحيا حياة عادية في الثورة على هذه المعتقدات التافهة. وإذا كان لهذه الثورة أن يكتب لها النجاح في تحقيق سعادة الفرد، وفي تمكين المرء من أن يسير على نهج واحد بدلًا من التقلب بين نهجين؛ إذا كان لها هذا، فإن على المرء أن يدرس دراسة فاحصة تلك الأفكار التي يمليها عليه عقله. فإن مُعظم الرجال يعتقدون أنهم أدوا ما عليهم، إذا ما تخلصوا من الخرافات السطحية التي اعتنقوها في طفولتهم. وهم لا يدركون أن هذه الخرافات ما زالت عالقة بهم في اللاشعور.

وإذا توصل المرء إلى مبدأ منطقي عقلي، فإن عليه أن يتمسك به، ويدرس نتائجه، ويعمل على التوفيق بينه وبين المعتقدات الأخرى. وإذا داخله بين حين وآخر أي شعور بالخطيئة، فإن عليه ألا يعد هذا الشعور نوعًا من الوحي، بل عليه أن يعتبره ضعفًا أو مرضًا يجب القضاء عليه إلا إذا كان يستند إلى أساس عقلي.

وأنا هنا لا أدعو إلى التخلي عن القيم الأخلاقية، وإنما أدعو إلى التخلي عن الخرافات وهو أمر يختلف أشد الاختلاف.

فإن الإحساس بالخطيئة لا يؤدي إلى الحياة السعيدة، إنه يؤدي إلى التعاسة والإحساس بالضعة.

وإذا شعر الإنسان بالشقاء فإنه خليق بأن يفرض مطالبه على الناس من حوله، كما إنه لن يستمتع لعلاقاته الشخصية، وإذا أحس الإنسان بالضعة، فإنه سيشعر بالحقد نحو غيره من الناس سيصعب عليه الشعور بالإعجاب، وسيكون من السهل عليه الشعور بالحسد، كما إنه سيصبح إنسانًا مرذولًا يبتعد الناس عنه، ذلك أن التجاوب والشعور بالأريحية نحو الناس، لن يكون مصدرًا لسعادة الغير فحسب، بل أنه سيكون مصدرًا لسعادة الشخص نفسه، لأنه سيشعر بارتياح الناس إليه.

ومثل هذا الشعور لن يخالج المرء الذي يشتد إحساسه بالذنب، لأنه ينتج عن التكامل والثقة في النفس، ولأنه يتطلب شيئًا من الانسجام العقلي، وأعني بذلك أن تتكاتف أجزاء الشخصية في الإنسان في اتجاه واحد، لا أن تتعارض مع بعضها. ويسهل خلق هذا التكامل بالتثقيف السليم، وتصعب العملية إذا انعكست الآية.

وهذه العملية هي التي يعمد إليها المحللون النفسيون، وإن كنت أعتقد أن المريض نفسه يستطيع القيام بها في معظم الأحوال، إلا في الحالات القصوى التي تتطلب الطبيب.

فلا تقل لنفسك إنه ليس لدي من الوقت ما يكفي للقيام بهذه المجهودات بالنسبة لنفسي فإن حياتي مليئة بالمشاغل وعلي أن أترك اللاشعور لحيله، فإنه ليس ثمة ما ينتقص من سعادة المرء وكفاءته أكثر من الشخصية المنقسمة على أمرها. والوقت الذي يقضيه المرء في

التوفيق بين عناصر شخصيته لا يضيع هباء.

وأنا لا أقترح هنا أن يخصص المرء ساعة من وقته في اليوم لدراسة نفسه، فليست هذه هي الوسيلة المثلى، لأنها تزيد من انطواء المرء على ذاته، وهو جزء من المرض الذي نود علاجه، لأن الشخصية السليمة توجه نشاطها إلى الخارج.

وإنما أقترح أن يستمسك المرء بمعتقدات العقلية، ولا يترك للخواطر السانحة المتناقضة أن تسيطر عليه وتوجهه دون أي فحص لها. فالكفرة هنا هي أن يناقش الإنسان نفسه مناقشة منطقية كلما عرض له أن يسلك سلوكًا تلقائيًا، على ألا تستغرق هذه المناقشة وقتًا طويلًا.

وكثير من الناس يكرهون المنطق. وإذا كان هذا هو الوضع فإن كل ما أزجيته من حديث يصبح أمرًا غير ذي بال. ويسود الاعتقاد أحيانًا بأن العقل سيؤدي إلى القضاء على العواطف الأصيلة العميقة. ويرجع هذا الاعتقاد فيما أرى إلى الخطأ في فهم وظيفة العقل في حياة الإنسان. فليست مهمة العقل هي توليد العواطف، وإنما يعتبر جزء من مهمته أن يستكشف الوسائل المؤدية إلى تطهير العواطف مما قد يعوق الحياة السليمة للإنسان. فالعمل على تخفيف حدة الكراهية والحسد يعد أحد الأهداف العامة للعقل.

ومن الخطأ أن نفترض أن هذا يتضمن التأثير في قوة العواطف الأخرى التي يزكيها العقل. فالعقل لا يهدف أبدًا إلى الانتقاص من الحب العميق، أو العطف الأبوي، أو الصداقة، أو حب الخير، أو الميل إن العلم أو الفن.

فالرجل المنطقي – حين يحركه أحدى هذه العواطف – لا يرى أي سبب بالمرة للانتقاص منها، بل على العكس من ذلك فإنه سيحس بالرضا لممارستها، باعتبارها جزء من الحياة السعيدة لنفسه ولغيره.

وليس هناك ما يخالف المنطق في هذه العواطف. وإن كان هناك من القوم الذين لا يميلون إلى المنطق في حياتهم من يمارس العواطف السطحية الممعنة في هذه الصفة.

وكون المرء منطقيًا مع نفسه لا يؤدي إلى الحياة الرتيبة، بل إن الأمر على العكس من ذلك، إذ أن هذه المنطقية تعتمد في أساسها على الانسجام الداخلي في عواطف الإنسان، وليس من شك في أن الفرد الذي تتوفر لديه هذه الصفة يعد أكثر حرية في تأمل العالم الخارجي، كما أنه يستطيع توجيه طاقته في تنفيذ أغراضه، بطريقة أسهل من ذلك الرجل الذي يعوقه الصراع الداخلي الذي يدور في نفسه عن ذلك.

فليس هناك أكثر مدعاة للملل من انطواء المرء على نفسه، كما إنه ليس من الأمور ما يدعو إلى النشوة أكثر من قدرة المرء على تركيز اهتمامه وطاقاته إلى النشاط الخارجي.

وتقاليدنا الأخلاقية تعتمد في أساسها على تركيز الاهتمام في الذات، ويعد الإحساس بالذنب نتيجة مباشرة لهذا الاتجاه. ولا يحتاج الذين لم يعانوا في حياتهم أثر هذه التقاليد الخاطئة إلى استخدام العقل في القضاء على أي من المخاوف. غير أن هذا العقل أمر ضروري لأولئك الذين انتابهم مرض الانطواء.

وربما كان المرض مرحلة لازمة للنمو العقلي، فأنا أميل للاعتقاد بأن الرجل الذي استطاع التغلب على هذا المرض باستعمال العقل يكون قد توصل إلى مستوى من الحياة السليمة أعلى من المستوى الذي يعيش فيه الشخص الذي لم يعرف المرض قط وكراهية الناس للاعتماد على العقل ترجع في أساسها إلى أن العمليات العقلية لا تؤدى على الوجه الصحيح. فالرجل المنقسم على أمره يبحث دائمًا عن الاستنارة والتسلية، فهو أقرب دائمًا إلى الإغراق في العواطف الصاخبة، لأنها تحمله بعيدًا عن نفسه، وتمنعه من التفكير في الألم.

وأي عاطفة يحس بها إنما يعدها صورة من صور النشوة، ولما كان لا يعرف السعادة على حقيقتها، فإنه يعتقد أن الوسيلة الوحيدة للتخلص من الألم يمكن تحقيقها في هذه الصورة من صور الانتشاء. والواقع أن مثل هذا الاتجاه يدل على سريان المرض.

وحيث لا يوجد المرض يمكن تحقيق السعادة إذا استطاع المرء السيطرة الكاملة على مشاعره. فإن المرء يحس بأعمق أنواع اللذة في اللحظات التي ينشط فيها العقل.

والواقع أن هذه هي إحدى المراحل المؤدية إلى السعادة الحقة. ذلك أن السعادة التي تتطلب الإحساس بالنشوة على أي صورة من الصور لا تعد في حقيقة الأمر كذلك.

أما السعادة الحقة فإنها تأتي من ممارسة المرء لجميع طاقاته، وتقديره الصحيح العالم الذي يعيش فيه.

جنون الاضطهاد

يعتبر الشعور بالاضطهاد في صوره الحادة نوعًا من الجنون. فهناك من الناس من يتصور أن غيره يود قتله، أو سجنه، وغالبًا ما يقودهم الاتجاه نحو حماية أنفسهم من هذا الخطر الوهمي إلى القيام ببعض أعمال العنف. مما يجعل الحد من حرية هؤلاء أمرًا ضروريًا.

وهذه الصورة من صور الجنون نتجت عن الإغراق في صفة بعينها؛ قد يكون الاتصاف بها في حدها الطبيعي أمرًا منتشرًا بين الناس العاديين. وكلنا يألف منظر ذلك الشخص؛ رجلًا كان أم امرأة، الذي يزعم لنفسه للناس أنه ضحية دائمة للنكران، والقسوة والخيانة.

ويأنس الناس عادة لأحاديث مثل هؤلاء، كما أنهم يستطيعون أن يستدروا عطف من لم يعرفهم لفترة طويلة. وعادة ما تكون الحقائق التي يرويها هؤلاء عن أنفسهم من النوع الذي يمكن تصديقه. كما إن سوء المعاملة التي يشكون منها لا تعد أمرًا غير طبيعي.

ولكن الشيء الذي يثير الشك في نفس السامع، هو كثرة الأشرار الذين شاء الحظ التعيس أن يلتقي بهم صاحبًا وإذا كان من الحقائق المقررة أن الأفراد الذين يعيشون في مجتمع واحد يُعانون من سوء الحال بقدر متقارب. فإنه من المعتقد أيضًا أن أي فرد يروي عن نفسه أنه يلقى سوء المعاملة من الجميع، إنما يعاني اضطرابًا داخليًا، فهو إما يتخيل

أشياء لم تحدث في الواقع، أو يكون سلوكه دافعًا لاشمئزاز غيره. والمجربون من الناس يقفون دائمًا موقف الحيطة والحذر من أولئك الذين يزعمون أمام الناس أنهم موضع اضطهاد من العالم بأجمعه، وموقف الحيطة هذا عادة ما يؤكد لدى المرضى هذا الشعور بالاضطهاد.

والإشكال هنا معقد حقًا، لأنه يتسع من كلا الاتجاهين، الشعور بالشفقة نحو المريض أو عدم الشعور بها. فحين يجد الشخص الذي يعاني جنون الاضطهاد ميلًا من الناس إلى تصديقه، فإنه يبالغ في حكاياته حتى يصل بها إلى مرتبة التصديق، وإذا لم يصدقه الناس فإنه يضيف إلى إحساسه السابق بالاضطهاد تجربة جديدة تنمي فيه هذا الإحساس.

ويُمكن علاج هذا المرض عن طريق فهم المريض لنفسه. وسأحاول هنا أن أعرض بصورة عامة للوسائل التي يستطيع بها الفرد أن يتبين في نفسه عناصر الشعور بالاضطهاد، وهو شعور لا يخلو منه أي إنسان، وإذا استطاع الإنسان أن تبين هذه العناصر فإنه يتمكن من اقتلاعها. والتغلب على هذا الشعور يمهد من غير شك الطريق إلى السعادة، لأن الحياة السعيدة ليست ميسورة في ظل الإحساس بالاضطهاد.

ومن قبيل السلوك الذي لا ينبني على أساس من العقل، موقف الناس مما يسمعونه عن أنفسهم من الأقاويل. وقليل من الناس من يستطيع أن يقاوم الرغبة في التقول على معارفه، وأحيانًا على أصدقائه المقربين. ومع ذلك فإن أيًا من الناس حين يسمع أن شيئًا قد قيل في غير صالحه، فإنه يتميز من الغيظ، ولا يخطر في بال هؤلاء قط أن غيرهم يتحدث عنهم

بنفس الطريقة التي يتحدثون هم بها عن غيرهم. وتعد هذه صورة هينة من صور الإحساس بالاضطهاد. فنحن نتوقع من كل ما حولنا أن يولينا ذلك الحب الرقيق العميق الذي نكنه لأنفسنا. ولا يخطر في بالنا قط أنه لا يمكن أن نتوقع من غيرنا أن يحسنوا الظن بنا أكثر مما نحسن بهم.

والسبب في ذلك هو أن لنا من المواهب ما هو واضح تمام الوضوح، بينما لا يتمتع هؤلاء الناس من هذه المواهب إلا بالقليل.

وإذا سمعت أن فلانًا من الناس قد ذكرك بمذمة ذات يوم، فإنك لا شك ستذكر المرات التسع والتسعين التي منعت نفسك فيها عن توجيه اللوم إليه فيما يستحق، وتنسى تلك اللحظة التي لم تستطع فيها أن تملك زمام نفسك، ثم قلت فيه رأيك بكل صراحة. فهل كان هذا هو الجزاء الذي تناله منه على طول احتمالك له؟ ومن هنا يبدو سلوكك مماثلًا لسلوكه كما تراه أنت، فهو لا يعلم شيئًا عن المرار العديدة التي تجنبت فيها لومه، وإنما كل ما يعمله أنك أهنته مرة.

ولو أننا أوتينا تلك القدرة السحرية على قراءة أفكار بعضنا البعض، فإنه يبدو لي أن أولى نتائج هذه القدرة هو تحطيم شعور الصداقة بين الناس. والنتيجة الثانية قد تكون نتيجة باهرة حقًا، لأننا لا نحتمل الحياة في عالم بغير أصدقاء، ومن ثم فإننا سنتعلم أن نحب بعضنا دون أن يغشى هذا الحب بغشاوة تحجب عنا مساوئ أصدقائنا. فنحن نعلم أن لأصدقائنا أخطاءهم، ومع ذلك فنحن نعتبرهم ظرفاء بوجه عام. ومع ذلك فنحن لا نحتمل من أصدقائنا أن يسلكوا نحونا نفس المسلك الذي نسلكه نحوهم.

فنحن نتوقع منهم أن يفترضوا فينا النزاهة عن الخطأ دون غيرنا من الناس.

والواقع أنه يجب أن ندخل في حسابنا حقيقة هامة، وهي قابليتنا للتورط في الخطأ، فإنه لم يبلغ إنسان قط حد الكمال، وعلى الفرد منا ألا يأسف لأنه لم يبلغ هذا الحد.

وجنون الاضطهاد يرجع في جوهره إلى المبالغة في الإيمان بمواهبنا. ولنفترض مثلًا أني كاتب مسرحي، فإني أتوقع إذن أن يكون على الإنسان المحايد أن يؤمن بأني أروع كاتب مسرحي في العصر، ومع ذلك فإن مسرحياتي نادرًا ما تعرض على المسرح لأي من الأسباب، وإذا حدث أن عرضت إنها تبوء بالفشل، فما هو تفسير هذه الظروف الغريبة؟ السبب في ذلك واضح كل الوضوح وهو أن المنتجين والممثلين والنقاد قد ائتمروا بي لسبب من الأسباب أو لآخر.

وهذا السبب معقول جدًا بالنسبة إلي، فقد أبيت على نفسي أن أتقرب لأقطاب عالم المسرح، ولم أمتدح النقاد، كما إن مسرحياتي تحمل في طياتها نقدًا لاذعًا مريرًا، لا تحتمله البيئة التي أعيش فيها. ولهذا فإن موهبتي الخالدة تذوي دون أن يسمع بها أحد.

وبعد ذلك يجيء دور المخترع الذي لم يستطع قط أن يعرض مخترعاته على أحد ليقوم بفحصها. فإن أصحاب المصانع يقفون عقبة في سبيله، ولا يقدرون نواحي التجديد التي يتقدم بها. كما أن الجمعيات العلمية لا تولي اهتمامًا كبيرًا للأبحاث التي يقوم بها المخترعون فتفقدها أو تعيدها دون مراجعتها.

أما الأفراد الذين يلجأ ليهم المخترع فإنهم يهملونه إهمالًا تامًا. فكيف يُمكن إذن تفسير هذه الأوضاع؟ الواقع أن هناك عددًا من الناس يحتكرون لأنفسهم المزايا والثمار التي يمكن أن ينتجها الاختراع، ويقتسمونها بين أنفسهم، وهؤلاء الناس يغفلون أمر كل من لا ينتمي إلى جماعتهم.

وهناك أيضًا ذلك النوع من الرجال الذين يخالجهم الحزن الحقيقي الذي يستند إلى أساس من الواقع، غير أن هؤلاء الرجال يعممون تجربتهم، ويعتبرونها المفتاح الذي يفسر مجريات الأمور في العالم، فإذا وقع أحد هؤلاء على أي فضيحة تتعلق بالحكومة وتعمل هي من جانبها على إخفائها، فإنه يخفق في التوصل إلى علاج لها، كما أن المثقفين من الرجال يرفضون معه في التوصل إلى هذا العلاج. ويُؤدي هذا كله إلى إثارة شعور الامتعاض في نفسه.

وإلى هنا يعد الأمر طبيعيًا. ولكن الصعاب التي لاقاها في طريقه لحل هذا المشكل، تترك أثرًا في نفسه بلغ من عمقه أن ترتب عليه الاعتقاد الجازم بأن كبار رجال الدولة مشغولون أولًا وقبل كل شيء في إخفاء معالم الجرائم التي ارتكبت في سبيل تحقيق أغراضهم.

والحالات التي من هذا النوع معقدة بعض الشيء، نظرًا لأنها تستند إلى أساس من الحقيقة. غير أن بعض الحقائق دون غيرها هي التي كان لها تأثيرها الخاص في نفوس هؤلاء الأفراد، أما الحقائق الأخرى فقد كانت بعيدة عن خبرتهم المباشرة.

وينتج عن هذا الاختلاف خطأ في التقدير لدى هؤلاء الأشخاص فهم يعيرون أهمية بالغة لبعض الحقائق التي قد يكون في واقع الأمر شاذة غير عادية.

وضحية أُخرى من ضحايا جنون الاضطهاد، هو الشخص المحب للإنسانية بطبيعته، والذي يؤدي للناس الخدمات هم في غنى عنها. ويتولى هذا الشخص شعور الدهشة حين يرفض الناس هذه الخدمات، أو لا يظهرون أي اعتراف بالجميل. فالدوافع التي تدفعنا لعمل الخير ليست خالصة كما نتصورها. ذلك أن حب السيطرة شعور مخادع حقًا، يتخفى في مظاهر مختلفة، وهو في الواقع مصدر الارتياح الذي نحس به عندما نؤدي عملًا نعتقد أننا نقصد به إلى الخير.

وهُناك عنصر آخر يدخل في الموضوع. فقد ينطوي فعل الخير على حرمان الناس من بعض أنواع اللذة، كشرب الخمر أو لعب الميسر، أو الكسل أو غير ذلك من الأمور.

وفعل الخير على هذا الوجه يستمد أصوله من التقاليد الاجتماعية المحافظة، التي يتدخل في وضعها شعور الحسد نحو أولئك الذين تمكنهم ظروفهم من ارتكاب الخطايا التي تضطرنا ظروفنا إلى الابتعاد عنها. مثل من ذلك أولئك الذين يعطون أصواتهم في جانب قانون منع التدخين – ومثل هذه القوانين توجد بالفعل في بعض البلاد الأمريكية – وليس من شك في أن المطالبين بمنع التدخين هم من ذلك الصنف من الناس الذين يحسون الألم من رائحة الدخان.

وإذا كان هؤلاء ينتظرون من المولعين بالتدخين أن يأتوا إليهم في وفد ليقدموا فروض الشكر على تحريرهم من هذا الوباء، فإنهم لم يوفقوا في تصورهم هذا حقًا. وعند ذاك سيدخل في روعهم أنه بينما وهبوا هم حياتهم للخير العام، إذا بأولئك الذين وجب عليهم الشكر لا يشعرون إطلاقًا بهذا الواجب.

ونستطيع أن نتبين نفس هذا الاتجاه من ربات البيوت نحو خدم المنازل. فهن يعتبرن أنهن قد أنقذنهم من ورطة أخلاقية كان من الممكن أن يتعرضوا لها لولاهن. وإن كان هذا الاتجاه قد أصبح أقل شيوعًا عن ذي قبل بعد أن تأزمت مشكلة الخدم في هذه الأيام.

ويحدث نفسر هذا الشيء بين أقطاب السياسة. ذلك أن رجل السياسة يجمع مقاليد الحكم في يده حتى يتمكن عن طريقها من تحقيق أهدافه النبيلة. وهي الأهداف التي من أجلها ترك حياة الراحة والأمن، إلى الكفاح في ميدان الحياة العامة. ويشعر ذلك الرجل بالغرابة والدهشة حين يقابل صنيعه بالنكران ويتغلب الناس عليه.

ولا يخطر في باله قط أن الدافع الذي دفعه إلى هذا الصنيع لم يكن في حقيقة الأمر دافعًا يهدف إلى النفع العام، كما لم يخطر في باله أن الذي دفعه إلى عمل الخير لم يكن إلا الارتياح الذي يحسه مع الشعور بالسيادة.

وتصبح العبارات الخطابية التي يرددها على المنابر، أو في اجتماعات الأحزاب حقائق بالنسبة إليه. كما يظن البلاغة التي يصطنعها في أحاديثه تحليلًا واقعيًا للدوافع التي تدفعه لعمل الخير.

وأخيرًا يصطدم بالواقع فيدركه اليأس والقنوط، ويعتزل العالم بعد أن يكون العالم قد اعتزله، ويأسف أشد الأسف لما يكون قد بذل من محاولات في متابعة النفع العام.

وهذه الأمثلة الأربعة تصل بنا إلى أربعة قواعد عامة، ينبغي اتباعها حتى يمكن القضاء على الشعور بالاضطهاد. أولا: تذكر دائمًا أن دوافع السلوك ليست دائمًا ناتجة عن أغراض موضوعية كما يبدو لك. ثانيًا: لا تبالغ في تقدير مواهبك. ثالثًا: لا تتوقع من غيرك أن يهتموا بك كما تهتم بنفسك. رابعًا: لا تتصور أن معظم الناس يفكرون فيك لدرجة التفكير في اضطهادك.

وسأحاول هنا أن أفسر هذه القواعد بالترتيب.

يُعد الشك في الدوافع الشخصية للسلوك أمرًا ضروريًا بالنسبة للمصلح أو للقائد، فإن هؤلاء لهم تصور خاص للحالة المثالية التي ينبغي أن يكون عليها العالم أو جزء منه. وهم يعتقدون أنهم بتحقيق هذا التصور إنما يسدون للعالم معروفًا كبيرًا. كما أنهم لا يدركون أن لكل فرد في العالم الحق في أن يتصور العالم كما يريده. ويعتقد الرجل المحب للسيادة اعتقادًا جازمًا بأن تصوره للعالم هو التصور الصحيح، وأن غير ذلك مجانب للصواب ولا يحمل هذا التصور الذاتي لأوضاع العالم في طياته أي برهان على صدقه من الوجهة الموضعية. كما إنه إلى جانب ذلك يعد سببًا ظاهريًا يختفي وراءه الارتياح الذي يشعر به الحاكم أو القائد عندما يدرك أنه هو كان سببًا في بعض التغييرات التي تنتاب العالم.

وهناك دافع آخر بالإضافة إلى دافع حب السيطرة، وهو الغرور، وهو دافع له تأثير كبير في هذا الصدد.

وأذكر هنا مثلًا أستمده من واقع تجاربي. فإن مرشح البرلمان ذا الاتجاهات المثالية تصيبه الدفعة حين يتهمه الناخبون بأنه إنما يبذل الجهود للنجاح في الانتخاب حين يشار إليه على أنه عضو برلمان وحين تنتهي معركة الانتخابات، ويصبح لديه من الوقت ما يسمح له بالتفكير الهادئ، يدرك صاحبنا أنه ربما كان الناخبون على حق حين زعموا زعمهم السابق. فالمثالية تضفي على الدوافع البسيطة ثيابًا غريبة عنها، ومن ثم فإن رجل الشارع قد يكون على حق في واقعيته.

والتقاليد الأخلاقية تتطلب من الإنسان درجة من الإيثار لا تستطيع الطبيعة الإنسانية الوصول إليها، وأولئك الذين يفخرون بما بلغوه من الفضيلة يتصورون أنهم بلغوا هذه الدرجة. والغالبية العظمى من الأفعال التي يأتيها القوم الفاضلون إنما تأتي نتيجة للدوافع الذاتية.

وليس هذا بالأمر الذي يؤسف له، لأنه لولا الدوافع الذاتية لقضي على الإنسان بالفناء. فالرجل الذي يقضي وقته في الإشراف على تغذية الآخرين وينسى نفسه مقضي عليه بالموت جوعًا.

وقد يتناول هذا الرجل طعامه ليهيئ لنفسه القوة اللازمة ليخوض المعركة ضد الشر، ولكننا نشك كثيرًا في أن الطعام سيلقى نصيبه من الهضم الكافي يحين يتناوله المرء على هذه الصورة، وقد يكون من الأفضل للإنسان أن يأكل للمتعة التي يجدها في الطعام بدلًا من أن تتحكم رغبته في فعل الخير في تحديد أوقات طعامه.

والذي يصدق عن الطعام يصدق عن كل شيء آخر. فكل ما يأتيه الإنسان من عمل إنما يؤدى على الوجه الأكمل إذا كان ناتجًا عن نشاط معين، وهذا النشاط لا يمكن تحقيقه إلا إذا كان وراءه دافع ذاتي.

وتشمل الدوافع الذاتية هنا تلك الدوافع التي تتصل بالأشخاص الذين يرتبطون ارتباطًا بيولوجيًا بالفرد، كالذود عن الزوجة والأبناء.

وتدخل هذه الدرجة من الإيثار في نطاق القدرة البشرية، بينما لا تدخل فيها تلك الدرجة التي تتطلبها التقاليد الأخلاقية المحافظة. ويحاول أولئك القوم الذين يزعمون لأنفسهم أنهم بلغوا شأنًا عظيمًا من الأخلاق يحاولون أن يقنعوا أنفسهم بأنهم وصلوا إلى درجة من الإيثار لا يمكن في واقع الأمر التوصل إليها.

ومن هنا كان اصطناع القداسة مرتبط بخداع النفس في صورة يسهل معها الانزلاق إلى جنون الاضطهاد. وننتقل الآن للحديث عن القاعدة الثانية، وقد تحدثنا حول هذه القاعدة فيما يختص بالناحية الأخلاقية.

ونقول الآن أنه لا ينبغي أن نبالغ في تقدير مواهبنا في مختلف النواحي الأخرى. فينبغي على كاتب المسرحية الذي تفشل مسرحيته أن يدخل في اعتباره أولًا احتمال رداءة هذه المسرحيات، وإذا تحقق من صدقه فينبغي أن يؤمن به، وإذا كان التاريخ يحدثنا عن بعض المواهب المقبورة التي ذوت دون أن يعترف الناس بأهلها. فإنه من الصحيح أيضًا أن عدد هذه المواهب كان أقل بكثير من عدد الذين اعترف التاريخ بافتقارهم إلى الموهبة.

ويُعد العبقري الذي لا يعترف به جيله على حق إذا أصر على متابعة طريقه، رغم إنكار الناس له. بينما ينبغي على المدعي الذي يحدوه دافع الغرور أن يفسح الطريق لغيره. وليست هناك وسيلة يستطيع بها الفرد أن يحدد مكانه في الجانبين. فإذا كنت من الصنف الأول فإنه ما من شك في أن مثابرتك ستكون من نوع الكفاح البطولي، أما إذا كنت من الجانب الآخر فإن هذه المثابرة ستعرضك للسخرية والاستهزاء. وبعد مائة عام من وفاتك سيصبح من الصعب إدراجه في أي من الجانبين.

ولكن هناك مقياسًا له قيمته في مثل هذه الأحكام ويمكنك الاعتماد عليه إذا آنست العبقرية في نفسك، بينما ينكرها أصدقاؤك والمقربون من حولك. هذا هو المقياس: هل يصدر إنتاجه عن حاجة ملحة تشعر بها للتعبير عن بعض الأفكار والمشاعر، أو عن الرغبة في الإطراء؟ ونحن لا ننكر وجود الرغبة في الإطراء لدى الفنان الأصيل، وإن كانت تعد بالنسبة إليه أمرًا ثانويًا، أما ذلك الرجل الذي تعد الرغبة في الإطراء دافعًا أوليًا لديه للإنتاج، فإنه لا يحس في نفسه تلك القوة التي تدفعه إلى نوع معين من التعبير، ومن ثم فإنه يقبل أن ينتج عملًا يختلف في طبيعته تمام الاختلاف عن العمل الأول. وإذا لم ينجح هذا الرجل في كسب رضاء الناس فعليه أن يقلع عن الفن إقلاعًا تامًا.

وتنطبق هذه القاعدة على مرافق الحياة المختلفة. فإذا شعرت بأن الناس لا يقيمون لمقدرتك نفس الوزن الذي تقيمه لها، فلا تزعم لنفسك أن الناس هم المخطئون، لأنك إذا انسقت في هذا الاتجاه فقد تصل آخر الأمر إلى الاعتقاد بأن هناك مؤامرة يحيكها الناس لإنكار مواهبك.

ومن المُؤكد أن هذا الاعتقاد يؤدي إلى الحياة الشقية التعيسة. وإذا كان الاعتراف بأن مواهبك ليست في القيمة التي كنت تقدرها بها، إذا كان هذا الاعتراف مؤلمًا بعض الشيء فإنه يعد نهاية تستطيع بعدها أن تحقق الحياة السعيدة.

ونأتي لقاعدتنا الثالثة التي تنصح بألا نطلب من الآخرين الشيء الكثير. فقد أصبح الآن شيئًا مألوفًا أن تتوقع السيدات المرضى من بناتهن أو من واحدة منهن على الأقل أن تضحي بنفسها تضحية كاملة للقيام بتمريضها، حتى لو أدى ذلك إلى أن يفوتها قطار الزواج.

ومعنى هذا أن تتوقع من غيرك درجة من الإيثار لا يقبلها العقل، لأن الخسارة التي سيفقدها الخير أكثر من المكسب الذي سيعود على الشخص الأناني.

وعلى ذلك فإنه من الأهمية بمكان أن يدرك الفرد أن الناس، وخاصة المقربين منهم إليه، إنما يرون الحياة من خلال أنفسهم وذواتهم لا من خلال نفسه هو. ولا ينبغي أن يتوقع الفرد من غيره أن يغير مجرى حياته في سبيل فرد آخر. وقد توجد العاطفة الكبيرة أحيانًا.

وحيث توجد هذه العاطفة تصبح التضحية في سبيلها أمرًا طبيعيًا، غير أنه لا ينبغي أن يبذل الجهد حتى تصبح التضحية كذلك، ولا يفرض اللوم على إنسان لعدم اضطلاعه بها.

وفي كثير من الحالات نجد أن سلوك الغير الذي يشكو منه بعض الناس إنما يعد رد الفعل الطبيعي لهذا التصرف الأناني لشخص تسع نطاق ذاته عن الحد المألوف.

وتقول القاعدة الرابعة أنه يجب على الفرد أن يدرك أنه ليس لدى غيره من الناس متسع من الوقت ليفكروا فيه كما يفكر في نفسه فالفرد الذي وقع ضحية لجنون الاضطهاد يتصور أن الناس على اختلافهم، وعلى كثرة ما لديهم من أعباء وعمل، إنما يشغلوا ليل نهار في تدبير مؤامرة حول صاحبنا المسكين.

والذي أصابه هذا الجنون بصورة معدلة يحاول دائمًا أن يجد رابطة وهمية بين نفسه وبين الأحداث من حوله. وتشبع هذه الفكرة في نفسه عنصر الغرور. وقد يكون هذا التصور سليمًا إذا كان الفرد من الأهمية بمكان. فقد شغلت الحكومة البريطاني فترة من الزمن في تحطيم نابليون، أما إذا كان الفرد إنسانًا عاديًا، فإن تصوره هذا سيقود إلى الجنون، فإذا حدث مثلًا أنك ألقيت كلمة في حفل عشاء عام، والتقط المصورون عدة صور لخطباء الحفل وظهرت هذه الصور في الصحف في اليوم التالي دون أن تظهر صورتك، فما تبرير ذلك؟ إنك تتصور أن السبب لا يمكن أن يعود إلى أن هؤلاء الخطباء يفوقونك في الأهمية.

السبب إذن هو أن محرري الصحف قد أصدروا أوامرهم بتجاهل صورتك. ولماذا أصدروا هذه الأوامر لأنهم يخشونك نظرًا لأهميتك الكبرى.

وبهذه الطريقة يصبح حذف الصورة في نظرك تقديرًا بعد أن كان مهانة. وخداع النفس على هذا النسج لا يُمكن أن يؤدي إلى السعادة. فأنت تعلم في قرارة نفسك أنك قد قبلت الحقائق، وافترضت الفروض البعيدة لتخفي هذه الحقائق عن نفسك.

ولن يكون هناك إذن مفر من ذلك التوتر الذي تعانيه لتضفي على هذا الجو الذي خلقته لنفسك شيئًا من الصدق.

ولما كان هذا الجو يتطلب منك أن تعتقد انك هدف لعداوة الجميع، فإن الشعور بأهمية الذات هنا سينطوي على شعور مؤلم بأن بينك وبين العالم ما صنع الحداد.

ولا يُمكن أن يصدر الشعور بالرضا عن خداع النفس، وأنه لمن الخير أن يواجه الإنسان الحقائق مهما كانت مرة، وأن يتعود عليها، وأن يمضي في طريقه في الحياة على أساس واقعي.

الخوف من الرأي العام

قليلون من يستطيعون الوصول إلى السعادة دون أن يتفق أسلوبهم في الحياة، مع آراء أولئك الذين تربطهم بهم العلاقات الاجتماعية، أو أولئك الذين يعيشون معهم تحت سقف واحد.

ومن الخصائص التي يتميز بها المجتمع المعاصر تعدد الطوائف فيه التي تختلف بعضها عن البعض الآخر في المعتقدات والعادات.

وقد بدأ هذا الاختلاف واضحًا منذ حركة الإصلاح الديني، أو بتعبير أدق منذ عهد النهضة. فقد كان هناك دائمًا البروتستانت والكاثوليك، وكان الاختلاف بين هذين المذهبين لا يقتصر على التعاليم الدينية، وإنما شمل بعض النواحي العملية أيضًا.

وكانت هناك الأرستقراطية التي تجيز بعض الأشياء التي لا تجيزها البورجوازية. وجاء بعد ذلك المفكرون الأحرار الذين أنكروا الواجبات الدينية من أساسها.

وهذا الاختلاف في وجهات النظر بين المجتمعات المختلفة يؤدي إلى اعتبار بعض الأفراد خارجين عن العرف العام في مجتمعات بعينها، بينما يعد هؤلاء الأفراد أشخاصًا عاديين في مجتمعات أخرى. ومن ثم فإن هذا الاختلاف يعد مصدرًا كبيرًا من مصادر الشقاء بين الناس، وخاصة صغار السن منهم.

فقد يلتقط الشاب أو الفتاة بعض المبادئ المحيطة به ويخيل لهؤلاء الشباب أن هذه البيئة إنما تمثل العالم على نطاقه الواسع، ولا يعن لهم أن في أرجاء العالم بيئات أخرى تسمح لهم بالتعبير عن مبادئهم لأنها نفس المبادئ التي تعتنقها، وهي المبادئ التي يخشون إذاعتها في بيئتهم الخاصة مخافة أن تظن بهم الظنون.

وعلى ذلك فإن الجهل بمجريات الأمور في العالم قد يؤدي إلى تعاسة لا داعي لها، وعادة ما تمر هذه التعاسة بالشباب، ولكنها لا تلازمهم طيلة حياتهم. وليست هذه العزلة عن العالم مصدرًا للألم فحسب، بلى إنها تؤدي أيضًا إلى تبديد الجهد في سبيل الاحتفاظ بالاستقلال الفكري في بيئة غير مواتية. كما تؤدي هذه العزلة في معظم الحالات إلى عدم المثابرة في متابعة أفكارنا والوصول إلى نتائجها المنطقية.

ولم تتعرف الأخوات برونتي إلى قوم يتفقون معهن في الذوق حتى طبعت كتبهن، ومع ذلك فإن هذه الحقيقة لم يكن لها تأثير يذكر على أميلي برونتي فقد كانت هذه الفتاة بطولية في اتجاهاتها وسلوكها. أما شارلوت فقد تأثرت بها، ذلك أن نظرتها إلى الحياة كانت دائمًا نظرة المربية، وهو العمل الذي كانت تزاوله، وذلك رغم ما لها من مواهب.

وقد عاش الشاعر وليام بلاك، كما عاشت إميلي برونتي في عزلة عقلية عن العالم؛ ولكنه استطاع، كما استطاعت، أن يتغلب على نتائجها السيئة فلم يخالجه الشك قط في أنه كان على حق، بينما لم يكن نقاده كذلك. ولكن عدد أولئك الذين يمتلكون هذه القوة النفسية ليس

بالكثير، فتهيئة البيئة المواتية يعد أمرًا ضروريًا لكل إنسان منا لتحقيق السعادة، وأغلب الناس يتمتعون بمثل هذه البيئة، فهم يتشربون معتقداتها العامة في شبابهم. ويحاولون أن يوفقوا بين أنفسهم وبين العادات والمعتقدات التي تفرضها البيئة.

غير أن هذا المسلك يُعد أمرًا بعيد التحقيق بالنسبة لأقلية جديرة بالاعتبار، وتشمل هذه الأقلية في واقع الأمر الموهوبين من الناس في النواحي الفنية أو العقلية. فقد يجد الشخص الذي يولد ي بيئة ريفية مثلًا نوعًا من العداء بين هذه البيئة وبين كل شيء من شأنه أن يؤدي إلى التفوق العقلي. فإذا رغب في قراءة الكتب الجادة احتقره أقرانه، وقال له مدرسوه أن هذه الكتب لا تؤدي إلى الاستقرار.

وإذا كان من ذوي الميول الفنية، زعم لذاته أن هذا ضعف في الرجولة وقال كبار السن أن هذا انحراف في الخلق، وإذا كان يطمح في أن يختط لنفسه سيرة أفضل لم تتعود مثلها بيئته من قبل، قيل له أن ما يصلح لأبيك يصلح لك وعليك ألا تهدف إلى العلا.

وإذا عرض له أن يوجه بعض النقد لآراء أبويه الدينية، أو ميولها السياسية، فغنه حتمًا سيقع في إشكال محقق. ولهذه الأسباب تعد فترة المراهقة بالنسبة للشباب الموهوبين فترة عصيبة حتمًا. بينما تكون هذه الفترة بالنسبة لأقرانهم فترة مرح وتسلية، فالشباب الموهوب يريد أن يحقق شيئًا ذا قيمة، لا يستطيع أن يجده من معاصريه ولا من الذين سبقوه في تلك البيئة التي شاء القدر أن يولد فيها.

وإذا التحق هؤلاء الشباب بالجامعة فقد يسعدهم الحظ بصداقة بعض الأفراد الذين يتقاربون معهم في الروح، ويمضون بضعة أعوام في سعادة كبيرة. وقد يواتيهم الحظ حين يتخرجون في الجامعة، فيتيح لهم عملهم بعض الأصدقاء المناسبين.

والرجل الذكي يستطيع أن يعثر في مدينة كلندن أو نيويورك على طائفة من الأصدقاء لا يشعر معهم بالحاجة إلى النفاق أو التحفظ. أما إذا اضطرته الأمور للعمل في بلد أصغر من ذلك، ووجد لزامًا عليه أن يظهر شعور الاحترام لأناس عاديين، كالطبيب أو المحامي، فإنه سيضطر طيلة حياته إلى إخفاء ذوقه ومعتقداته عن أولئك الذين يلتقي بهم في حياتهم اليومية.

ويصدق هذا القول بالنسبة للولايات المتحدة، نظرًا لاتساع رقعتها. فأنت تلتقي هناك في كل مكان، في الشمال والشرق والجنوب والغرب، بأفراد يحسون العزلة، ويقرأون في الكتب أن هناك بلادًا أخرى يستطيعون فيها التخلص من هذا الشعور، ولكنهم لا يستطيعون الوصول إليها، ولا تتاح لهم إلا في القليل النادر فرصة الالتقاء بأصدقاء يستطيعون أن يكشفوا لهم عن مكنونات نفوسهم.

ولا يُمكن تحقيق السعادة في هذه الظروف لهؤلاء الناس الذين لا يتمتعون بالقوة النفسية التي تمتع بها وليام بلاك أو إميل برونتي. وإذا أردنا تحقيق السعادة لهم، فإن علينا أن نجد الوسائل التي تستطيع بها أن نخفف من طغيان الرأي العام، أو أن نتجنبه، والتي نستطيع بها أيضًا أن نصل حبل المعرفة بين أفراد الأقلية التي تتمتع بحظ من الذكاء.

وفي كثير من الحالات يزيد الجل الأمور سوء. فإن طغيان الرأي العام يؤثر في أولئك الذين يخشونه بصورة أعمق من تأثيره في أولئك الذين لا يعيرونه أي انتباه، فالكلب يشتد نباحه، ويكثر عضه، إذا خافه الناس، وتنعكس الآية إذا أظهروا له شيئًا من القسوة والتنمر. وفي القطيع الإنساني تظهر أيضًا هذه الصفة. فإنك تصبح هدفًا سانحًا إذا ظهر أنك تخاف القوم من حولك، أما إذا أهملتهم فإنهم حينذاك سيشكون في قدرتهم، ثم يتركونك وشأنك. وطبيعي أني لا أعني هنا أن يتبادل المرء مع الناس أعنف أنواع التحدي، وعلى المرء وحده أن يتحمل النتائج إذا خطر له في كالفورنيا أن يعتنق المبادئ التي يحترمها الروسيون، أو أن يؤمن في روسيا بالمبادئ التي يعتنقها الأمريكيون؛ وفي بعض الأحيان يتاح الفرد أن يتمتع ببعض ما لا يرضى عنه المجتمع، في حين لا يسمح بذلك لغيره.

ويرجع هذا إلى الاتصاف بنوع من الطبيعة الودودة الطيبة. وإنما يثور أصحاب التقاليد على الخارجين عليها لأنهم يعتبرون هذا الخروج نقدًا موجهًا إليهم. وهم يتجاوزون عن هذا الخروج لمن يوضح لهم في شيء من المرح والانبساط أنه لا يهدف إلى تجريحهم أو توجيه النقد إليهم.

ولا يُمكن لأولئك الذين تحتم عليهم آراؤهم وأذواقهم ألا يتجاوبوا في مشاعرهم مع الجموع، لا يُمكن لهم أن يفلتوا من لوم أصحاب التقاليد. وذلك أن افتقادهم لهذا التجاوب يشعرهم بعد الاستقرار، ويؤدي بهم إلى اتخاذ موقف العداء نحو المجتمع، رغم أن سلوكهم الظاهري قد يبدو متسقًا مع ما تمليه رغبات هذا المجتمع. وأولئك الذين

لا يجارون بطبيعتهم تقاليد المجتمع إنما يتصفون عادة بالمزاج الحاد، كما يفتقدون الشمائل الرحبة.

وإذا قدر لهؤلاء الأفراد أن ينتقلوا إلى مجتمع آخر، لا يحسون مع الحياة فيه بالغرابة، فإن صفاتهم وسماتهم ستتغير تبعًا لذلك فينتقلون من الصرامة، والخجل، والعزلة إلى المرح والثقة بالنفس، ويستبدلون حدة الطباع بالبساطة واللين، كما أنهم يصبحون أشخاصًا اجتماعيين بعد أن كان تفكيرهم مقصورًا على أنفسهم.

وعلى أُولئك الشباب الذين لا يحسون انسجامًا بينهم وبين البيئة المحيطة بهم، حين يجيء الوقت لشق طريقهم في الحياة، عليهم أن يختاروا المهنة التي ستتيح لهم بقدر الإمكان فرصة تكوين الصداقات الحقة، ولو أدى هذا إلى قبول دخل أقل، وكثيرًا ما يعتقد الشباب أن تحقيق هذا شيء بعيد الاحتمال لقصور معرفتهم بالحياة، ولاعتقادهم أن المبادئ التي نشأوا عليها إنما تسيطر على العالم بأسره، ويستطيع كبار السن من المجربين أن ييسروا الأمور على الشباب في هذا السبيل، لأن التجربة أمر ضروري كي يشق المرء سبيله في الحياة.

وقد انتشر في هذه الأيام التي تسيطر على عقول المفكرين فيها فكرة التحليل النفسي، انتشر الاعتقاد بأن أي شعور يخالج المرء بالفرقة بين طبيعته وبين المجتمع إنما يعود في واقع الأمر إلى اضطراب نفسي.

وفي اعتقادي أن هذه الفكرة الشائعة خاطئة من أساسها. فإذا افترضنا مثلًا أن هناك أبوين لا يؤمنان بقاعدة التطور، فإن ابنهما الشاب ل يعوزه إلا شيء قليل من الذكاء كي يخالفهما في الرأي.

وإذا كان عدم اتفاق المرء مع بيئته يعد من الحظ التعيس، إلا أن هذه التعاسة ليست من النوع الذي يجب تجنبه بأي الأثمان. فالانشقاق على البيئة التي تتسم بالغباء والتعصب، والقسوة إنما يعد في الواقع علامة من علامات الجدارة.

ومثل هذا الانشقاق نلمسه في جميع البيئات تقريبًا. فقد كان لجاليليو وكبلر "أفكار خطرة" كما يقول اليابانيون وكذلك كان لأعمق المفكرين في عصرنا الحديث.

ولا ينبغي أن ينمى الشعور العام إلى درجة يخشى معها هؤلاء المفكرون عداوة المجتمع. وهي العداوة التي تثيرها آراؤهم التقدمية، وإنما ينبغي أن نلتمس الأسباب التي نستطيع بها أن نخفف من هذا العداء، ونقلل من تأثيره. والجانب الهام من هذه المشكلة ينشأ في عالمنا الحديث خلال فترة الشباب فإن المرء يستطيع أن يتجنب اضطهاد المجتمع، إذا نجح في اختيار السيرة الموفقة في الحياة، في البيئة المناسبة، أما إذا لم يستطع استغلال مواهبه خلال فترة الشباب، فسيصبح عرضة للوقوع تحت رحمة بعض الجهلاء الذين يفترضون في أنفسهم القدرة على الحكم في أشياء لا يمتون إليها في الواقع بصلة، والذين يثورون حين يشعرون أن من الشباب من هو أوثق منهم علمًا، رغم ما لهم من خبرة عريضة في الحياة.

وكثير من الناس الذين أتيح لهم أن يفلتوا من الجهل، التحموا في معركة ضخمة، وعانوا الكبت فترة طويلة من الزمن، وانتهى بهم الأمر إلى شعور عميق بالمرارة وضعفت طاقتهم.

وهناك اعتقاد يؤمن به الناس التماسًا للراحة، وهو الاعتقاد بأن العبقرية ستجد طريقها دائمًا إلى الظهور، وهم يؤمنون على هذا الأساس بأن أي اضطهاد يعانيه المرء خلال فترة الشباب لن يكون ذا أثر كبير. ولكن هذا الاعتقاد لا أساس له من الصحة. وهو شبيه إلى حد كبير بالنظرية التي تقول بأن جميع جرائم القتل ستكشف عن نفسها.

فإنه إذا كان من الصحيح أن جرائم القتل التي عرفناها قد اكتشفت وذاع أمرها، فمن ذلك الذي يعلم عدد تلك الجرائم التي ارتكبت دون أن يسمع بها الناس، وينطبق هذا الكلام على العباقرة الذين استطاعوا الانتصار على الظروف العادية. ولكن هذا لا يدعونا إلى تجاهل أولئك الذين يفوقون الحصر ممن تغلبت عليهم الظروف في شبابهم، أضف إلى ذلك أن المسألة لا تتصل بالعبقرية فحسب، ولكنها تتصل بالموهبة أيضًا، كما إن الأمر لا يقتصر على الظهور بأي طريقة من الطرق، وإنما أن يظهر المرء دون أن تصاب إرادته بالضعف أو الوهن، وينبغي لكل هذه الأسباب أن يكون طريق الشباب سهلًا ميسرًا.

وليس هُناك داع للسخرية المتعمدة من الرأي العام، فالأمر ينطوي على الخضوع لسيطرته، وإن كان ذلك بطريقة ملتوية.

أما تجاهل هذا الرأي تجاهلًا تامًا، فإنه يؤدي إلى الإحساس بالقوة والشعور بالسعادة. والمجتمع الذي يضم أفرادًا لا ينحنون أما التقاليد يعد أكثر سلامة من ذلك المجتمع الذي يتشابه فيه سلوك الأفراد.

ففي مثل هذا المجتمع الذي تنمو فيه شخصية الفرد، يحتفظ كل إنسان بسماته الميزة، ويجد المرء متعة في الالتقاء بأناس جدد، لأنه لن يدهم صورة طبق الأصل من أولئك الذين التقى بهم من قبل وقد كانت هذه هي إحدى مزايا الأرستقراطية، حيث كانت تتاح للمرء حرية السلوك ما دام مولده قد كفل له مكانته الاجتماعية.

ولما كنا نفقد هذا النوع من الحرية الاجتماعية في عصرنا الحديث، فقد وجب علينا أن ندرك أخطار السلوك الانقيادي. ولا أقصد بهذا أن يتخذ الناس السلوك الشاذ عن عمد، فإن ذلك لا يقل عن سلوك الإمعة في خطئه. وإنما أدعو إلى أن يكون الإنسان طبيعيًا، وأن يتبع في تصرفاته ذوقه الخاص إذا كان ذلك لا يتعارض تعارضًا كبيرًا مع المجتمع.

والخوف من الرأي العام، ككل أنواع الخوف الأخرى، يعوق النمو والتقدم ولا يستطيع المرء تحقيق أي صورة من صور المجد في ظل هذا الشعور، كما لا يستطيع المرء تحقيق حرية الروح، وهي جزء مكون للسعادة الحقة. فغنه من الضروري لتحقيق السعادة أن يستمد سبيلنا في الحياة أصوله من دوافعنا الذاتية العميقة، لا من الأذواق والرغبات العارضة التي يمليها علينا جيراننا أو أقاربنا.

وقد قل الخوف في الوقت الحاضر من آراء جيراننا المباشرين؛ غير أن نوعًا آخر من الخوف نبت بدلًا منه، وهو الخوف من أقوال الصحافة. فقد أصبح ذلك أمرًا يشبه في فظاعته ساحرات العصور الوسطى. فإن أرادت إحدى الصحف أن تصب جام غضبها على أي من الأشخاص، ولو كان إنسانًا مسالمًا، فإن النتاج تكون سريعة حقًا.

ومن حسن الطالع أن معظم الناس ينجون من هذه النتائج لبعدهم عن الشهرة. وتزداد النتائج السيئة لهذا النوع من الاضطهاد الاجتماعي بازدياد وسائل الدعاية وإتقانها؛ ويعد هذا الأمر من الخطورة بحيث يجب أن يهتم له الفرد الذي كان ضحية للهجوم، ومهما يقال في حرية الصحافة "فانا أؤمن بضرورة تشديد قوانين الجرائم الصحفية" ويجب أن يمنع نشر كل ما من شأنه أن يجعل الحياة شيئًا لا يطاق بالنسبة لبعض الأفراد البريئين، حتى ولو أتى هؤلاء الأفراد من الأفعال ما إذا نشر بصورة ملتوية إلى تحطيم سمعتهم. والسبيل الوحيد لعلاج ذلك هو زيادة السماحة في المجتمع، وإنما تأتي السماحة إذا ضم المجتمع أفرادًا يشعرون بالسعادة الحقيقية، ومن ثم لا يجدون لذتهم المثلى في فرض الألم على أخوانهم من بني البشر.

الجزء الثاني

أسباب السعادة

هل تحقيق السعادة ما زال مُمكناً؟

لمست خلال قراءتي في الكتب، وخلال أحاديثي مع الأصدقاء أن هناك اعتقادًا سائدًا بأن السعادة في عالمنا أمر بعيد الاحتمال. ولكني أرى أنه من الممكن القضاء على مثل هذا الاعتقاد عن طريق استنكاه الذات، والرحلات في الخارج.

وقد سبق أن تحدثت عن الشقاء الذي يُعانيه أصدقائي المتأدبون، وإني أود الآن أن أعرض للسعداء من الناس الذين التقيت بهم في حياتي. والسعادة نوعان، وإن كان بين هذه وتلك درجات أخرى من السعادة، وهذان النوعان من السعادة هما سعادة الواقع، وسعادة الخيال، سعادة الجسد وسعادة الروح، سعادة القلب وسعادة العقل. واختيار أي السعادتين يتوقف على الفرض الذي يجب إثباته. ولست الآن بسبيل إثبات أي من الفروض، ولكني بصدد تقرير للواقع. ولعل أبسط الوسائل لتوضيح الاختلاف بين نوعي السعادة هو أن نقول أن أحد هذين النوعين متاح للجميع، بينما يتاح الآخر لغير الأميين فقط. وقد عرفت في طفولتي رجلًا يتفتح بكل قلبه للسعادة، وكان كل عمله حفر الآبار، كان فارعًا في الطول مفتول العضلات، ولم يكن يستطيع القراءة أو الكتابة، ولما حصل على تذكرة انتخاب في عام ١٨٨٥ علم أن ثمة شيء يوجد اسمه البرلمان.

ولم تكن تنبع سعادته من أي مصدر عقلي، ولم تكن مبنية على الإيمان بأي قانون طبيعي، أو على الإيمان بكمال الإنسان كما لم تكن هذه السعادة مبنية على الإيمان بالملكية العامة أو أي من المعتقدات الأخرى التي يؤمن العقليون بضرورتها كي يستمتعوا بالحياة، وإنما كانت سعادته مستمدة من قوته الجسمية، واحتماله للعمل، وقدرته على التغلب على العقبات التي تتمثل أمامه في الصخور. والسعادة التي يحس بها بستاني تنتمي إلى هذا النوع، فإن هذا البستاني في حرب أزلية مع الأرانب، وهو يتحدث عنها بنفس الطريقة التي تتحدث بها سكوتلاندليارد عن البلشفيك، فهو يصف هذه الأرانب بأنها لئيمة متوحشة، ويعتقد أن مجابهتها إنما يكون بنوع من الحيلة، شبيهة بحيلتهم. وكان بستاني، كأبطال فالهالا الذين أمضوا أيامهم في صيد نوع مفترس من الخنازير، يقتلونه بليل، ويظهر لهم في الصباح، كان بستاني يقتل الأرانب دون أن يخالجه أدنى شك في أن هذه الأرانب ستعود للظهور في اليوم التالي.

ورغم أن هذا البستاني جاوز السبعين من عمره، إلا أنه يعمل طيلة نهاره، ويجتاز على ظهر دراجته ستين ميلًا عبر الجبال، قادمًا من عمله، أو ذاهبًا إليه، غير أن نبع المرح لديه لا يُمكن أن ينضب، وهو يستمد هذا المرح من "هذه الأرانب" التي تتعهد هذا النبع. ولكنك قد تقول أن مثل هذا النوع من المرح لا يتاح لأمثالنا المثقفين، وقد تسأل عما هو هذا المرح الذي يستمده الإنسان من إشعال نار الحرب على مخلوقات تافهة مثل الأرانب، ولكن هذه في نظري حجة واهية.

فإنه ما من شك في أن الأرانب أكبر في الحجم من مكروب الحمى الصفراء، وإنه ما من شك أيضًا في أن من المثقفين من يجد اللذة في العمل للقضاء على هذا الميكروب، ولذلك فإن هذا النوع من المرح الذي يحسه بستاني عند متابعة الأرانب، قد يتاح لجمهرة من ذوي الثقافة العالية، وإنما يقتصر الفارق الثقافي على نوع النشاط الذي يزاوله المرء للحصول على هذا النوع من الارتياح.

وتتطلب المتعة التي يحس بها الفرد عند إتمام عمل ما اجتياز صعوبات قد يشك الإنسان معها في إمكان نجاحه في هذا العمل، وإن كان الأمر ينتهي عادة بتحقيق ذلك النجاح. ولهذا يعد تقدير الإنسان مواهبه تقديرًا متواضعًا مصدرًا هامًا من مصادر السعادة. فالرجل الذي لا يبالغ في تقدير نفسه يدهش لما يحقق من ناجح، وكذلك يدهش الرجل الذي يقدر نفسه بأكثر مما يستحق حين يمنى بالفشل. والدهشة من النوع الأول مقبولة محببة، بينما تدعو الدهشة من النوع الأخير إلى الاستياء والحسرة. ومن ثم كان من الحكمة ألا يزهى المرء بنفسه، كما كان من الحكمة ألا يتواضع المرء لدرجة التخاذل.

ويعد العلماء أكثر الطبقات المثقفة إحساسًا بالسعادة فهم يتمتعون ببساطة العاطفة، وبينما يعتقد الفنانون ورجال الأدب أن الشقاء في زيجاتهم يعد من ضرورات الحياة، فإن رجال العلم عادة يستطيعون الإحساس بالسعادة في حياتهم العائلية، ويرجع السبب في ذلك إلى أنهم يستنفذون طاقة ذكائهم في العمل، ولا يسمحون لهذه الطاقة بالتداخل

في أشياء لا شأن لهم بها. وهم يشعرون بالارتياح العميق في العمل، لأن العلم في عالمنا الحديث ذو سطوة، ولأن قيمته لا يشك فيها العالم كما لا يشك فيها الرجل العادي. كل هذه الأسباب تهيئ للعالم البساطة في العواطف، وينشأ تعقيد العواطف، كما ينشأ الزبد على مياه النهر؛ حين تصطدم بالعقبات التي تقف في طريقها السهل الميسر، وطالما لا يوجد ما يعوق اندفاع الماء، فإن الزبد لا يظهر في سطحه، ويمضي التيار في طريقه في قوة واضحة. وتتوافر شروط السعادة في حياة رجل العلم، فإنه يمارس نشاطًا، يستنفذ قدراته كلها، كما أن النتائج التي يحققها لا تهمه هو فحسب، بل إنها تهم المجموع أيضًا، حتى ولو لم يستطع هذا المجموع فهم تفاصيل هذه النتائج. وهو في هذا أسعد حظًا من الفنان. ذلك أن الناس حين لا يستطيعون فهم إحدى القصائد أو اللوحات فإنهم يعتقدون أن هذه اللوحة أو القصيدة إنما هي شيء تافه.

أما إذا لم يستطع الناس فهم النظرية النسبية، فهم يعتقدون — وهم محقون في ذلك — أن ثقافتهم لم تكن من الاتساع بحيث تتيح لهم الفهم الصحيح لهذه النظرية. ومن ثم فإن أينشتين يتمتع بالتقدير بينما تضور الرسامون العظماء في حياتهم جوعًا. ولذا فإن أينتشتين يحس بالسعادة بينما لم يحس بها هؤلاء الرسامون الكبار.

وقليل من الناس من يستطيع أن يعرف السعادة الحقة في ظل حياة تنطوي على التحدي المستمر لآراء الناس وشكوكهم إلا إذا اعتزل المرء المجتمع وأسدل دونه حجابًا. ولا يحتاج رجل العلم إلى مثل هذه الخطوة لأن كل الناس — فيما عدا زملائه — يولونه كل تقدير.

أما الفنان فإنه على العكس من ذلك، عليه أن يواجه الموقف المؤلم الذي يحتم عليه أن يختار بين أن يكون حقيرًا أو أن يكون جديرًا بالاحتقار. فإذا كانت مواهبه تؤهله للصف الأول بين الفنانين، فإن له أن يتخذ أحد الموقفين: الموقف الأول إذا استغل مواهبه، والموقف الثاني إذا لم يستغل هذه المواهب.

ولم يكن الحال كذلك دائمًا؛ فثمة أزمنة كان الفنانون المجيدون فيها يلقون الترحيب في مستهل حياتهم الفنية. ورغم سوء المعاملة التي لقيها مايكل أنجلو من الإمبراطور يوليوس الثاني فإنه لم يخطر لذلك الإمبراطور أن مايكل أنجلو ليس فنانًا أصيلًا.

أما صاحب الملايين في العصر الحديث. فإنه قد يغدق المال على الفنانين الذين تقدم بهم السن. ولكنه لا يتصور أن هؤلاء الفنانين قد أتوا من الأعمال ما يفوق العمل الذي أتاه هو في الأهمية. ومن الجائز أن تكون هذه الظروف مرتبطة بكون الفنانين أقل أحساسًا بالسعادة على وجه العموم من رجال العلم. وهناك حقيقة يجب أن نعترف بها. وهي أن أكثر الشباب ذكاء في الدول الغربية إنما يُعانون ذلك النوع من الشقاء الذي يأتي من افتقاد الوسيلة الملائمة لاستغلال مواهبهم. وليس الحال كذلك في الدول الشرقية.

والشباب الذكي في الوقتي الحاضر يعد أكثر سعادة في روسيا منه في أي بقعة أخرى من بقاع العالم. فإن لديهم هناك عالمًا جديدًا يعملون لإنشائه، كما إن لديهم الإيمان الحار الذي يدفعهم إلى إنشاء هذا العالم. فأمكن القضاء على الجيل السابق بالمجاعة أو بالنفي، أو بأي

وسيلة أخرى تشل تأثير هذا الجيل لدرجة لا يستطيع معها أن يفرض على الشباب النابغ أن يختار بين أن يأتي الشر أو ألا يأتي شيئًا مطلقًا، كما هو الحال في الدول الغربية.

ويتصور المواطن في الدول الغربية الذي أصيبت حياته بالتعقيد، يتصور أن إيمان الفتى الروسي هذا إنما يدل على التأخر، ولكن لنسأل أنفسنا أولًا وقبل كل شيء ماذا يضير في إيمان الفتى الروسي؟ إن من المؤكد أن هذا الفتى يخلق عالمًا جديدًا، وهذا العالم يتفق تمام الاتفاق مع ميوله ورغباته.

وإذا تم بناء هذا العالم فإنه سيكفل السعادة للروسي العادي بصورة تفوق ما كان يتمتع به قبل الثورة البلشفية. وقد لا يهيئ مثل هذا العالم أي إحساس بالسعادة للمواطن الغربي المعقد. ولكن ليس هناك ما يلزم المواطن الغربي المعقد بأن يعيش في مثل هذا العالم. والدلائل العملية تثبت أن إيمان الشباب الروسي مبني على أساس منطقي، وليس هناك إذن ما يبرر التهجم عن هذا الإيمان، إلا أن يكون هذا التبرير على أساس نظري.

ولا أود هنا أن أوحي إلى القارئ أن ذلك النحو من السعادة السامية هو الذي يمكن تحقيقه فقط. إذ أن الواقع أن ممارسة هذه السعادة مقصورة على فئة قليلة، وهي تلك الفئة التي تتمتع بالقدرة الكافية، واتساع الأفق ليست شائعة. فليس العلماء النابهون وحدهم هم الذين يستطيعون تحقيق السعادة في عملهم.

كما أن السعادة ليست قاصرة على كبار الساسة الذين يدافعون عن مبدأ من المبادئ، فإن لذة العمل ميسورة لأي فرد يستطيع أن ينمي مهارة معينة. وذلك على أن يكون في وسع هذا الفرد أن يحقق الارتياح في ممارسة هذه المهارة في حد ذاتها دون الحاجة إلى تصفيق المجتمع له.

وما زلت أذكر ذلك الرجل الذي شلت ساقاه في مطالع شبابه. ومع ذلك فقد ظل سعيدًا طوال حياته. ومنشأ هذه السعادة هو أنه ألف كتابًا في خمس أجزاء عن بعض أمراض الزهور. وهي دراسة كان هو في مقدمة المتخصصين فيها.

ولم يسعدني الحظ بالتعرف إلى عدد كبير من علماء الأحياء المائية. ولكني لمست في أولئك الذين تعرفت عليهم ممن يدرسون القواقع ارتياحًا بالغًا لنوع الدراسة التي يقومون بها. وقد تعرفت إلى رجل من كبار المؤلفين الموسيقيين في العالم كان المشغولون بذلك الفن يقصدون إليه من جميع الأرجاء.

ومع ذلك فإن اللذة التي كان يستشعرها لم تكن ناتجة عن الاحترام الذي يتلقاه من هؤلاء الرجال. وإنما كانت تأتيه من مزاولة فنه. وهي لذة كتلك التي يحسها الراقص المجيد أثناء الرقص.

وقد يقال أنه في عصر الآلة الذي نعيش فيه قلت لذة الصانع في عمله الذي يتطلب المهارة عن ذي قبل. وإني لأشك كثيرًا في صحة هذا القول.

وإذا كان حقيقيًا أن الصانع الماهر يعمل في عصرنا الحاضر في أشياء تختلف عن تلك التي كان يعمل بها الصانع في العصور الوسطى. إلا أنه في الوقت نفسه يعد عاملًا هامًا ضروريًا في اقتصادنا الذي يقوم على الآلة. فهناك صناع الأدوات العملية الرقيقة، وهناك المصممون وميكانيكيو الطائرات، والسائقون، وعدد لا حصر له من الصناع الذين يستطيعون تنمية مهاراتهم.

وقد لا يحس المزارع أو الفلاح في المجتمعات المتأخرة بمثل السعادة التي يحسها سائق السيارة أو الطائرة. نعم أن الفلاح الذي يفلح أرضه يستطيع أن ينوع عمله، فهو يحرث الأرض، ثم يبذر البور ويحصد بعد ذلك. غير أنه يقع تحت طائلة القدر، وهو يدرك تمامًا مدى ارتباطه بعناصر الطبيعة.

أما ذلك الرجل الذي يدير الآلات الحديثة فإنه يستشعر القوة. ويداخله دائمًا ذلك الإحساس بأن الإنسان هو الذي يسيطر على قوة الطبيعة وليست هي التي تسيطر عليه.

ومن الحق أن السأم يصيب عددًا كبيرًا من أولئك الذين يقتصر عملهم في الآلة على مجرد تكرار عمليات بعينها دون أي تغيير. ولكن كلما أصبح العمل مملًا، كلما أصبح من الميسور اتخاذ الآلة لأداته بدلًا من الإنسان. وأن الهدف الرئيسي من الإنتاج الآلي الذي لم نصل بعد إلى تحقيقه، هو أن تقوم الآلة بأداة الأعمال التي يشعر الإنسان بالسأم إذا قام بها، على أن يقوم الإنسان بأداء الأعمال المنوعة المشجعة.

والعمل في عالم كهذا العالم لن يكون مدعاة للسأم والقلق كما كان في ذلك العالم الذي تسوده الزراعة. ذلك أنه حين اتخذا الإنسان الزراعة وسيلة له، كان يعلم أن ذلك النوع من العمل قد يؤده به إلى الملل، ولكنه مع ذلك ثابر عليه حتى يتجنب عائلة المجاعة.

أما حين كان الإنسان يعتمد على الصيد لكسب طعامه، فكان العمل ذاته ممتعًا، وهي حقيقة يمكن أن نتبينها في متابعة ذوي الثروة لهذه الرياضة القديمة لمجرد التسلية. وقد دخل الإنسان — حين لجأ إلى الحياة الزراعية — مرحلة من مراحل الفقر والتعاسة والجنون أحيانًا. ثم جاءت الآلة لتحرره من عبء هذه الحياة.

وقد يجد العاطفيون شيئًا من الراحة حين يتحدثون عن الارتباط بالتربة، وعن الحكمة الناضجة التي تميز بها الفلاحون الذين أشار إليهم توماس هاردي في قصصه. غير أن الواقع أن أمنية كل شاب من الشبان الذين نشأوا في الريف هي أن يجد عملًا في المدينة يستطيع خلاله أن يتخلص من عبودية الرياح والطقس والشعور بالوحدة في أمسيات الشتاء، وأن يتمتع بالأمن في رفقة الجماعة التي تلازمه في المصنع والسينما. فإن المصاحبة والتعاون عاملان ضروريان لسعادة الرجل العادي، ويمكن تحقيق هذين العاملين في الصناعة بصورة أكمل من تحقيقها في الزراعة.

أما الهواية فلا تعد في كثير من الأحوال مصدرًا للسعادة الحقة، وإنما تعد وسيلة للهروب من الواقع، وسيلة يستطيع الإنسان بها أن ينسى بعض الآلام التي يصعب عليه مواجهتها. فالسعادة الحقة تعتمد أساسًا على ما يُمكن أن نسميه بالميل الودي نحو الأشخاص والأشياء وهذا

الميل يعد صورة من صور التعاطف. لا صورة من صور السيطرة، والامتلاك.

أما النوع الذي يؤدي إلى السعادة فهو يرتبط بأولئك الأشخاص الذين يميلون إلى ملاحظة الناس، واستنباط السرور من طبائعم الفردية، أولئك الذين يودون المساهمة في بعث السرور فيمن يحيط بهم، دون أدنى رغبة في السيطرة أو إثارة شعور الإعجاب.

والفرد الذي يبني علاقاته مع الناس على هذه الأسس إنما يعد دائمًا مصدرًا من مصادر السعادة والتعاطف. ذلك أن علاقاته مع غيره سواء كانت جادة أو عابرة ستؤدي إلى إشباع عواطفه وميوله. فلن يسيء إليه نكران الجميل، لأنه لن يعاني مثل هذا الشعور، ولن يحس به إذا ما أنكر إنسان ما جميله.

والحوادث التي قد تثير فردًا آخر حتى يفقد أعصابه، قد تكون بالنسبة إليه مصدرًا للتسلية، ومثل هذا الفرد يمكنه أن يحقق بمجهود بسيط قد يكافح غيره في سبيل تحقيقه كفاحًا مريرًا، ثم لا يصل إلى نتيجة ما. ولما كان الفرد سعيدًا، فإنه سيكون رفيقًا جذابًا — وهذا من ثم سيزيد من سعادته. ولكن ينبغي أن يكون هذا شيئًا تلقائيًا، لا ينبع من فكرة التضحية بالذات أو الشعور بالواجب. فالإحساس بالواجب مفيد في العمل، ولكنه مضر بالنسبة للعلاقات الشخصية. فالناس يرغبون في أن يحبهم الناس، لا أن يتحملوهم في مشقة وصبر.

ولعل أكبر مصدر من مصادر السعادة الشخصية هو أن يحب المرء عددًا كبيرًا من الناس من تلقاء ذاته دون أن يبذل مجهودًا في ذلك.

ولقد أشرت إلى ما سميته بالميل الودي نحو الأشياء وقد تبدو هذه العبارة مبتسرة. وقد يقول لنا قائل إنه من المستحيل أن يُمارس المرء الصداقة نحو الأشياء.

ومع ذلك فهناك نوع من الصداقة أو شيء شبيه بها في هواية العالم الجيولوجي للأحجار أم عالم الآثار للمخلفات القديمة. ومثل هذه الهواية ينبغي أن تكون أساسًا في علاقاتنا نحو الأفراد والمجتمعات.

ومن المُمكن أن ينمي المرء في نفسه شعور العداء أيضًا نحو الأشياء. فقد يجمع رجل ما الحقائق المتعلقة بعادات العنكبوت، لا لشيء إلا لأنه يكره العناكب ويود لو أنه عاش في مكان تقل فيه هذه الحشرات. ومثل هذه الهواية لا تؤدي إلى الارتياح الذي يشعر به عالم الجيولوجيا من دراسة الأحجار.

والميل نحو الأشياء – وإن كان في حد ذاته يعد أقل أهمية في سعادتنا اليومية من الميل نحو الأشخاص – إلا أنه يعد ذا أهمية كبرى. فالعالم واسع المدى، وقوتنا محدودة. وإذا كانت سعادتنا كلها تعتمد كلية على ظروفنا الشخصية، فإنه من الصعب ألا يطلب المرء من الحياة أكثر مما يُمكن أن تعطيه.

وذلك الرجل الذي يستطيع أن ينسى مشاكله عن طريق الانغماس في دراسة تاريخ النجوم مثلًا، سيجد في نهاية الأمر – أنه قد حقق هدوء وطمأنينة تساعده على تحمل مشاكله ومعالجتها، وفي نفس الوقت سيخالجه إحساس صادق بالسعادة حتى ولو لفترة من الزمن. وهذا هو مفتاح السعادة. أن يتسع ميدان هوايتك بقدر الإمكان. وأن تكون علاقتك مع الأشخاص والأشياء على أساس ودي لا على أساس عدائي.

التحمس

سأحاول في هذا الفصل أن أعالج صفة من أهم صفات السعداء تبدو لي أكثرها شيوعًا وهي التحمس. ولعل أنجع وسيلة لفهم ما يقصد بهذه الصفة هو أن ندرس الطرق المختلفة التي يتبعها الناس في سلوكهم حين يجلسون لتناول الطعام.

فهناك من الناس من تعتبر وجبة الطعام بالنسبة إليهم مجرد شيء ممل، ومهما كانت جودة الطعام فإنهم لا يحسون بميل إليه. فقد تناول هؤلاء الطعام الجيد من قبل، وتناولوه في كل وجبة أكلوها تقريبًا.

ولم يجربوا الجوع الشديد، وإنما يعتبرون وجبات الطعام مجرد تقليد تملية مقتضيات المجتمع الذي يعيشون فيه. فوجبة الطعام تؤدي إلى الإرهاق، وهي في ذلك ليست أقل إرهاقًا من غيرها من التقاليد.

وهناك أيضًا المرضى الذين يأكلون تحت ضغط الشعور بالواجب فهم يتبعون تعليمات الطبيب الذي أمرهم بالتغذية ليحفظوا قواهم. كذلك هناك الأبيقوريون الذين يبدأون وجبة طعامهم وكلهم أمل، ولكنهم يكتشفون في النهاية أن الأمر لم يكن كما كانوا يتوقعون. وهناك أيضًا المصابون بالنهم الذين يلتهمون الطعام في شغف بالغ، ويأكلون أكلًا لمًا حتى يصابوا بالتخمة.

وأخيرًا هناك ذلك النوع من الناس الذين يبدأون طعامهم بشهية طيبة، ويحسون اللذة في هذا الطعام ثم يأكلون حتى كفايتهم وبعد ذلك يتوقفون. كذلك الحال بالنسبة لموقف الناس من الحياة ومن المباهج التي تمنحها. والرجل السعيد في الحياة ينتمي إلى نوع آخر من الذين تحدثنا عنهم آنفًا. فالجوع بالنسبة للطعام هو الشغف بالنسبة للطعام. وذلك الرجل الذي يسأم وجبات طعامه يرادف ذلك الذي يعاني الشقاء البيروني. والمريض الذي يتناول طعامه تبعًا لشعوره بالواجب يشبه الرواقي، بينما يساوي النهم ذلك الذي يلقي بنفسه إلى الملذات.

أما الأبيقوري فهو ذلك الشخص الذي يحكم على نصف لذات الحياة بأنها ليست من الجمال في بشيء.

ومن العجيب حقًا أن هذه الطبقات فيما عدا من يتصفون بالنهم، يحتقرون الشخص ذا الشهية الطيبة، ويعتبرون أنفسهم أعلى منه مرتبة. فإنهم يرون الاستمتاع بالطعام في حالة الجوع أمرًا دنيئًا، وكذلك الاستمتاع بالحياة التي تتيح للإنسان التجارب المختلفة المثيرة للدهشة. وهم ينظرون من قمة يأسهم هذا إلى أولئك الذين يحتقرونهم، ويعتبرونهم قومًا بلهاء. وأنا لا أوافق على هذا الاتجاه، فإني أعد الانصراف عن المتعة نوعًا من المرض.

ومن الحق أن الضرورة لها أحكام في بعض الأحيان، ولكن علينا التغلب في أقصر وقت ممكن على هذا المرض إذا ألم بنا. وألا نعتبره صورة من صور الحكمة.

فإذا فرضنا أن إنسانًا ما يحب النبق بينما يكرهه رجل آخر فأية ميزة إذن للأول على الأخير؟ ليس هناك برهان مطلق على أن النبق خير أو أنه ليس بخير.

ولما كانت الحياة قصيرة لا تحتمل تنمية الهواية في كل شيء، فإنه من المستحسن أن نشبع في أنفسنا أكبر قدر من الهوايات تسمح بها أيامنا المعدودة. وكلنا عرضة لمرض الانطواء على النفس، وهو الانطواء الذي يرغم المرء على العزلة والفراغ رغم اتساع مجال العالم أمامه.

ومن المحقق أن شقاء المنطوي هذا ليس من البطولة في شيء. والتحمس للحياة يتخذ صورًا تفوق الحصر. ولعلنا نذكر مثلًا أن شرلوك هولمز عثر ذات مرة على قبعة ملقاة في الطريق. فأدرك بعد لحظة أن صاحب هذه القبعة أفل نجمه في الحياة لإفراطه في الشراب، وأن زوجته أهملت أمره بعد طول اهتمام. إن الحياة لا يُمكن أن تكون مصدرًا للسأم لذلك الرجل الذي تتيح له الأشياء العابرة مجالًا واسعًا للهواية.

لنتصور مثلًا الأشياء المختلفة التي يمكن أن نلحظها خلال إحدى الرحلات إلى الريف. فأحدنا مثلًا يبدي اهتمامًا بالطيور، بينما يهتم الآخر بالخضرة، والثالث بطبيعة الأرض، وهلم جرًا. وإذا كانت إحدى هذه النواحي التي تبعث اهتمامك؛ فهي جذابة ما في ذلك شك، والأمر كذلك بالنسبة للنواحي الأخرى، وكل من يهتم بإحداها فهو أكثر مسايرة للعالم من ذلك الذي لا يهتم بشيء. وبعد، فما أشد اختلاف الناس في اتجاهاتهم نحو إخوانهم! فهناك شخص مثلًا من طبيعته ألا يعير مرافقيه في قطار ما أي اهتمام وألا يدرك عنهم شيئًا، بينما نجد راكبًا آخر قد

يقوم بتحليل شخصياتهم، وأن يحدس شيئًا عن ظروفهم الخاصة، بل قد يصل إلى بعض الحقائق التي تتصل بتاريخ بعضهم وسيرته. كذلك يختلف الناس في شعورهم نحو بعضهم الآخر بنفس الصورة التي يختلفون بها في معرفة حقائق بعضهم البعض فهناك من يجد كل الناس ما عداه على وجه التقريب يدعون إلى السآمة، ومنهم من يخلق جوًا من الصداقة نحو المحيطين به، وذلك إلا إذا كان هناك سببًا معينًا يدعو إلى غير ذلك.

وفي كل هذه المواقف نرى أن الرجل المتحمس للحياة له المكان الأول على الرجل الذي لا يتحمس له. بل إن التجارب القاسية قد تكون مصدرًا للنفع للرجل الذي يقبل على الحياة.

وإني لأشعر بالارتياح لأني عرفت جمهور الصينيين، ومررت ببعض القرى في صقلية، وإن كنت لا أزعم أن سروري في تلك اللحظات بلغ أشده. ذلك أن ركاب المخاطر قد يجدون المتعة مثلًا في مشاهدة السفن وهي تغرق، والثورات، والزلازل، والحرائق وجميع التجارب المؤلمة بشرط ألا يترتب عليها ما يضر بالصحة فحين تزلزل الأرض تراهم يقولون لأنفسهم مثلًا "انظر كيف يكون الزلزال" كما إن السرور يداخلهم حين يحسون أن معلوماتهم عن طبيعة العالم قد زادت بهذه التجربة الجديدة.

وليس صحيحًا أن مثل هؤلاء الرجال لا يقعون تحت رحمة القدر، فهم لو فقدوا صحتهم فمعنى ذلك فقدانهم لتحمسهم للحياة في نفس الوقت، وإن كان ذلك أمرًا ليس بالمحقق. فلقد عرفت رجالًا قضوا نحبهم بعد سنين من العذاب البطيء، ولكنهم احتفظوا إلى آخر لحظة

بهذا التحمس. وهناك بعض صور المرضى التي قد تحكم هذا التحمس، غير أن هناك صورًا أخرى ليست كذلك. ولست أعلم ما إذا كان أصحبا الكيمياء الحيوية قد توصلوا إلى التفرقة بين هذه الأمراض.

وقد يجيء الوقت الذي يستطيع فيه هؤلاء العلماء أن يوفروا لنا أقراصًا تثير اهتمامنا بالأشياء المختلفة، ولكن حتى يأتي ذلك التاريخ فعلينا أن نعتمد على ملاحظاتنا العامة في الحياة لنحدد الأسباب التي بها يتحمس بعض الناس لأشياء كثيرة في الحياة، بينما لا يجد الآخرون حماسًا لأي شيء.

والإقبال على الحياة قد يكون عامًا في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى قد يكون خاصًا. وقد يذكر قراء بورو وهو شخصية ترد في كتابه (لافنجرو).

والرجل الذي تُمثله هذه الشخصية قد فقد زوجته التي كان مخلصًا لها أشد الإخلاص وأحس أن الحياة أصبحت قفراء جرداء. كان هذا الرجل يعمل في تجارة الشاي ولكي يتحمل مصاعب الحياة علم نفسه دون مساعدة كيف يقرأ الكتابات الصينية المسجلة على لفافات الشاي التي تمر بيده. وقد أتاح له هذا أن يستعيد اهتمامه بالحياة وبدأ يدرس في شغف بالغ كل ما يتصل بالصين.

وقد عرفت أناسًا كرسوا أنفسهم لمحاولة جميع المعلومات عن الوثنيين في عهد المسيحية الأول. كما تركز اهتمام آخرين في تحقيق المخطوطات والطبعات الأولى لأعمال الفيلسوف "هويز".

وقد يكون من المستحيل أن نعرف مقدمًا ما قد يشغف المرء ولكن معظم الرجال لهم اهتمامهم الكامن بشيء أو بآخر، فإذا أمكن إثارة هذا الاهتمام فإن حياتهم ستخلو من السأم.

والهوايات المتخصصة قد تكون مصدرًا أقل إرضاء للسعادة من الإقبال على الحياة بصفة عامة، لأن مثل هذه الهوايات قد لا تملأ وقت الرجل كله، وهناك أيضًا الخطر الناتج عن احتمال معرفة المرء لكل شيء يتعلق بموضوع هوايته بحيث تفقد أهميتها بالنسبة إليه بعد ذلك.

كان القدماء ينظرون إلى الاعتدال على أنه فضيلة من الفضائل الأساسية. ولما جاءت الحركة الرومانسية والثورة الفرنسية هجر كثير من الناس هذه العقيدة، ووجهوا إعجابهم إلى العواطف الجامحة حتى ولو كانت هذه العواطف من النوع الهدام المشبع بعداء المجتمع.

وواضح أن القدماء كانوا على صواب. فالحياة القويمة معناها التوازن بين مختلف نواحي النشاط على ألا تكون تنمية ناحية على حساب الأخرى. فالشخص النهم مثلًا يضحي بجميع المتع الأخرى في سبيل متعة الطعام، أو من ثم فإنه يقضي على سعادته في الحياة. والنهم لا يقتصر على الطعام فحسب فقد عرف عن الإمبراطورة "جوزفين" أنها كانت تهوى الملابس.

وكان نابليون في بداية الأمر يدفع تكاليف الخياط مع الاحتجاج المستمر. وأخيرًا طالبها بالاعتدال وأنذرها بأنه لن يدفع لها مستقبلًا تكاليف الخياط.

فلما جاءت قائمة الخياط التالية أخذتها الحيرة، ولكنها رأت حلًا للمشكلة أن تطلب إلى وزير الدفاع أن يدفع لها نفقة ملابسها من ميزانية الجيش.

ولما كان هذا الوزير يعلم أن في استطاعة الإمبراطورة الأمر بفصله فقد أجاب طلبها، وتترتب على ذلك أن فقد الفرنسيون ميناء (جنوة).

ولسنا الآن في مجال تحقيق صحة هذه القصة التي وردت في بعض الكتب من عدمه، ولكنها مثلًا يُمكن أن نتخذه كي نرى إلى أي حد قد يصل الأمر حين تفرط امرأة ما في هواية الملابس. والأمر كذلك بالنسبة لإدمان الخمر والإفراط في الجنس.

أما المبدأ الذي نستخلصه من هذا فواضح تمام الوضوح. وهو التوفيق بين أذواقنا ورغباتنا الخاصة وبين الإطار العام للحياة. فإذا كان لهذه الأذواق والرغبات أن تكون مصدرًا من مصادر السعادة، فينبغي ألا تتعارض مع الصحة والتعاطف، واحترام المجتمع الذي نعيش فيه.

وهناك من الميول ما يمكن الإغراق فيه إلى أي حد من الحدود. بينما هناك ميول أخرى ليست كذلك. فإذا كان هاوي الشطرنج مثلًا عزبًا لا زوجة له ولا بنون، وله دخل مستقل، فمن حقه ألا يضع حدودًا لهوايته بأي صورة من الصور. أما إذا كان رب عائلة وليس له دخل مستقل، فقد أصبح حتمًا عليه أن يحد من هذه الهداية إلى أقصى درجة.

وإذا كان النهم والمدمن لا يدركان تبعاتهما الاجتماعية، فهما كذلك لا يعقلان الناحية الذاتية في الموضوع، لأن التماسهما هذا إنما يكون على حساب الصحة ويؤدي بهما إلى ساعات طويلة من الألم مقابل

لحظات قصار من المسرة. وهناك بعض المقاييس التي تكون في مجموعها إطارات يمكن أن تنمي فيه الهواية دون أن تتعداه، فلا تصبح بذلك مصدرًا للشقاء. من هذه المقاييس الصحة، وسيطرة الإنسان الكاملة على جوارحه، والدخل الكافي لمواجهة الضرورات والواجبات الاجتماعية الحتمية كمسئولية المرء نحو زوجته وأولاده. والإنسان الذي يضحي بهذه الأشياء في سبيل لعبة الشطرنج مثلًا، يعد في نفس المرتبة المرذولة كمدمن الخمر.

والسبب الوحيد الذي من أجله لا يعاقب الفرد من هذا الطراز هو ندرة وجوده من ناحية، ولأن الرجال الموهوبين من ناحية أخرى هم الذين يغرقون عادة في مثل هذه الهوايات العقلية. واليونانيون في هم للاعتدال يدخلون في اعتبارهم مثل هذه الحالات. فهاوي الشطرنج الذي يظل خلال عمله ينتظر المباراة التي يقوم بها في المساء يعد محظوظًا، بينما يفقد فضيلة الاعتدال ذلك الرجل الذي يترك عمله نهارًا ليقضي سحابة يومه في لعبة الشطرنج.

ويحكى عن تولستوي في شبابه أنه منح أحد الأوسمة العسكرية تقديرًا لشجاعته في المعركة، فلما جاء الموعد المحدد لتقليده الوسام كان منهمكًا في أحد ادوار الشطرنج لدرجة صمم معها ألا يذهب لتقلد النيشان.

وقد لا نجيب على تولستوي ذلك، لأن الحصول على وسام عسكري أو عدم الحصول عليه أمر سواء بالنسبة إليه، أما فيما يتعلق برجل أقل منه موهبة فقد يعد مثل هذا التصرف نوعًا من الحماقة.

وبعد، فإني أعتقد أن هناك اختلافًا نفسيًا عميق الجذور بين الشخص النهم وبين ذي الشهية الطيبة. فذلك الذي تجتاحه رغبة واحدة على حساب الرغبات الأخرى إنما يعاني شقاء عميقًا يود الفرار منه.

والأمر هنا واضح بالنسبة للمدمن، فهو يعاقر الخمر لكي ينسى. ولو لم تكن حياته مليئة بالأشباح لما وجد السكر أدعى إلى الراحة من اتزان العقل. ونذكر في هذا الصدد الحكمة الصينية المأثورة "إني لأعاقر الخمر لذاتها بل كي أسكر".

وينطبق هذا على مختلف النزعات في الإفراط، فالإنسان لا يزاول المتعة لذاتها بل كي ينسى نفسه. وهناك فارق كبير بين هذه الطريقة الحمقاء للنسيان، وبين الوصول إليه بطرق مفيدة في حد ذاتها. فالرجل الذي رسم بورو شخصيته في كتابه كان يحاول نسيان المصيبة التي ألمت به عن طريق تعلم الصينية، وهو نوع من النشاط لا يسبب أذى، وإنما يهدف إلى تمرين الذكاء زيادة المعلومات. ومن ثم فليس هناك ما يؤخذ على طريقة النسيان هذه.

ويختلف الأمر بالنسبة لذلك الرجل الذي يحاول النسيان عن طريق الخمر والميسر أو أي صورة أخرى من صور الاستثارة. ومن الحق أن هناك حدودًا فاصلة بين الطريقتين، فمثلًا كيف نصف ذلك الرجل الذي يركب المخاطر الجنونية في الطائرات وعلى قمم الجبال، وهو يعتقد أن الحياة أصبحت مدعاة للملل، نعم يمكننا الإعجاب به إذا كانت مخاطراته ذات نفع عام، أما إذا لم تكن كذلك فمكانه لا يعلو إلا قليلًا عن السكير أو لاعب الميسر.

والإقبال الحقيقي على الحياة الذي لا يهدف إلى الهدم، إنما يعد جزء من المكونات الطبيعية لنفس الإنسان، وذلك فيما عدا الحالات التي تؤدي فيها بعض الظروف السيئة إلى محو هذا الجزء. فالأطفال الصغار مثلًا يؤخذون بكل ما يرون أو يسمعون. والعالم بالنسبة إليهم مليء بالغرائب، وهم دائمًا يبحثون عن العلم، لا أقصد العلم الذي يدرس في المدارس، وإنما علمهم بالأشياء المحيطة بهم والتي تستري انتباههم. بل إن الحيوانات بعد أن يكتمل نموها، تحتفظ بإقبالها على الحياة ما دامت في صحة كاملة.

ولعل رجل اليوم الذي يذهب إلى عمله كل صباح في ساعة محددة إنما يستجيب لنفس الدافع، وهو توفير أسباب المعيشة. وبينما كان لهذا الدافع أثره المباشر في الحالة الأولى، إلا أن أثره في الحالة الثانية كان غير مباشر عن طريق المطلقات والمعتقدات والإرادة. فحين يبدأ رجل اليوم عمله في الصباح لا يحس بالجوع، فقد تناول طعام الإفطار قبل وصوله إلى مقر العمل وكل ما يعلمه أن الجوع قد يحيق به، وهو بذلك العمل إنما يتحاشى احتمال وقوعه. والنزوات ليس لها من سن معين تجري عليه، بينما العادات في المجتمع المتمدن لها نظامها الخاص.

وفي المجتمعات البدائية حتى ولو وجدت المشروعات الجماعية، إنما ترتب عفو الساعة دون ترتيب. فإذا أعلنت الحرب مثلًا تدق الطبول، فيستجيب كل فرد لشعور القطيع.

أما اليوم فإن الأمور لا تجري على هذا النمط. فإذا حدد موعد ما لسير قطار فإنه من المستحيل أن ندعو والعمال والسائق وعامل الإشارة بواسطة الموسيقى البربرية. لكنهم يعملون لأن ذلك هو واجبهم. ومعنى ذلك أن هدفهم ليس مباشرًا، فهم لا يهدفون إلى العمل في حد ذاته، وإنما إلى النتائج التي ستترتب على هذا الهدف.

ولعل جانبًا كبيرًا من الحياة الاجتماعية يعاني نفس هذا النقص. فالناس لا يحادث بعضهم بعضًا إلا للحديث في حد ذاته، وإنما لكسب قد يحققونه من وراء هذا التعاون. والرجل المتحضر تقابله في كل لحظة من لحظات حياته حوائل تحد من إشباع نزواته، فإذا حدث أن تملكه السرور فلا يستطيع أن يغني أو يرقص في الشارع.

وإذا سيطر عليه الحزن فليس له أن يبكي على قارعة الطريق حتى لا يعطل المارة. وهو في شبابه محدود الحرية في المدرسة، وفي حياته العملية تراه مقيدًا خلال ساعات العمل. وكل هذه الأسباب تجتمع لتحد من إقبال المرء على الحياة، لأن الضغط المستمر يؤدي إلى نوع من الإجهاد والملل.

ومع ذلك فإن المجتمع المتحضر لا يُمكن أن ينشأ إذا لم تفرض بعض القيود على نزوات الأشخاص، لأن اتفاق هذه النزوات لن يؤدي إلا إلى أبسط صور التعاون الاجتماعي، لا إلى تلك الصور التي يتطلبها التخطيط الاقتصادي الحديث. وإذا كان للمرء أن يتغلب على هذه الصعاب في حاجة إلى الصحة، والطاقة الحيوية الموفورة، وإذا كان سعيد الحظ، أن يجد المتعة في العمل لذاته.

والنساء يخطئن فهم معنى الوقار، وإن كان ذلك في عصرنا الحاضر أقل منه في العصور الماضية. وقد أدى ذلك إلى ضعف تحمسهم للحياة. فقد كان من المرذول في رأي القدامى أن تظهر النساء اهتمامًا واضحًا بالرجال، أو أن يبدين شيئًا من الحيوية في تصرفاتهن أمام المجتمع.

وحين تعلمن الإعراض عن الرجال، تعلمن في الحقيقة الإعراض عن كل شيء إلا أن يكون سلوكهن متفقًا مع قواعد اللياقة. واتخاذ موقف سلبي في الحياة يتعارض دون شك مع الإقبال عليها، بل إنه يؤدي إلى نوع من الانطواء على الذات. وهو صفة تميز النساء الوقورات وخاصة غير المتعلمات منهن. فهن مثلًا لا يهوين الرياضة كما يهواها الرجال، ولا يدرين شيئًا عن السياسة، وموقفهن من الرجال هو الانفصال التام، كما أنهن يخفين شعور الكراهية للنساء الأخر لاعتقادهن أن غيرهن من النساء أقل منهن وقارًا.

وهن يفخرن بهذه العزلة، لأنها في اعتبارهن صورة من صور الفضيلة. وليس لنا أن نلقي اللوم على هؤلاء النساء، فكل ما فعلنه أنهن قبلن التعاليم الأخلاقية التي ظلت تسيطر على النساء طوال آلاف السنين. فهن في واقع الأمر ضحايا جديرات بالشفقة لذلك النظام المبني على الكبت الذي لم يستطعن إدراك اختلاله. والأمر معكوس بالنسبة لهؤلاء النساء؛ فهن يرين الشر خيرًا. وهن – في دائرتهن الاجتماعية – يحاولن إمكانهن قتل المرح، أما في مجال السياسة فهن يحبذن أساليب الضغط.

ومن حسن الحظ فإن مثل هذا النوع من النساء وبدأ في الانقراض، وإن كان انتشارهن ما زال أكثر مما يتصور بعض المتحررين.

ومن شك في هذا فإني أنصحه أن يقوم بدورة بين البنسيونات بحجة البحث عن مكان للإقامة، وعليه في تلك الأثناء أن يلاحظ ربات البيوت اللاتي سيلتقي بهن. إنه سيرى أن معظمهن يقعن تحت تأثير ذلك المبدأ الذي يقول بتحطيم كل حماس للحياة كأساس من أسس الأنوثة بالنسبة إليهن.

والنتيجة لذلك أن تضاءلت قلوبهن وعقولهن بعد جمودها. والواقع أنه لا فارق في مجال الإقبال على الحياة بين الرجل والمرأة، لأن الإقبال على الحياة للرجل والمرأة على السواء هو سر الحياة السعيدة.

التعاطف

لعل أحد الأسباب الهامة لزهد المرء في الحياة هو افتقاده للحب، وذلك يحدث لأسباب عدة. فقد يكون فظًا لا يقبل عليه أحد، ومن المحتمل أن يكون قد تعود في طفولته أن يتلقى نصيبًا من العطف أقل من أقرانه من الأطفال. والسبب في الحالة الأخيرة قد يرجع إلى فقد الثقة في النفس نتيجة لعثرة مر بها في مطلع حياته.

والفرد المبغوض قد يتخذ اتجاهات مختلفة في حياته نتيجة لهذا البغض. فقد يبذل الجهود الجبارة لاستدرار عطف الناس، كأن يقوم بأعمال إنسانية فريدة. وقد لا تتوج جهوده هذه بالنجاح، لأن الدوافع لهذا السلوك ستكون واضحة.

ومن طبيعة البشر أن يمنحوا عطفهم دون توان إلى أولئك الذين قد لا يستحقون ذلك العطف. ومن ثم فإن الشخص الذي يحاول شراء هذا العطف بالأعمال الطيبة قد يمثى باليأس لما يقابل به من إنكار الجميل. وقد لا يخطر له أن العطف الذي يحاول شراءه أغلى بكثير من المساعدات المادية التي يقدمها ثمنًا له. وشعوره بهذه الحقيقة قد يؤثر دائمًا في سلوكه. وقد يلجأ رجل آخر ممن يحسون بضغط المجتمع إلى النقمة على العالم بأسره إما عن طريق إثارة الحروب والثورات. أو بأن يشرع نحو المجتمع قلما مخضبًا بالمرارة مثل "دين سويفت".

والواقع أن هذا موقف بطولي يتطلب قوة في الشخصية يستند إليها المرء في مواجهة العالم. وقليل من الرجال أمكنهم اتخاذ مثل هذا الموقف، أما الغالبية العظمى من الرجال والنساء، حين يفقدون عطف الناس، يخضعون لليأس المشوب بالحسد وإضمار الشر.

وحياة هؤلاء الناس على وجه العموم تنتهي بالأنانية الشديدة، كما يؤدي شعورهم بالاضطهاد إلى فقدان الإحساس بالأمن، وهم يحاولون التخلص من هذا الإحساس عن طريق الانقياد الكامل للروتين دون تفكير. ذلك أن الخوف من تقلبات العالم الخارجي هو الذي يدفع الناس إلى تسليم أمرهم إلى الروتين الرتيب.

أضف إلى ذلك شعورهم بأنهم لم يصطدموا بشيء ما في ذلك العالم طالما أنهم يسيرون في نفس الطرق التي وطئوها من قبل. وأولئك الذين يواجهون الحياة وهم يشعرون بالأمان أكثر سعادة من أولئك الذين يفتقدون ذلك الشعور.

وفي معظم الأحوال، ولا نقل في كلها، يعد الشعور بالأمن عاملًا هامًا يساعد المرء على تفادي الأخطار التي قد يتعرض لها غيره. فإذا كنت تسير مثلًا على شفا هاوية، فأنت أكثر تعرضًا للوقوع فيها إذا داخلك شعور الخوف.

وينطبق ذلك أيضًا على السلوك في الحياة. نعم قد يصاب المرء بالكوارث المفاجئة ولكنه مع ذلك يكون أقل تعرضًا للأذى في المواقف الصعبة من الرجل الجبان، وتتعدد الصور التي تظهر فيها رباطة الجأش

هذه. فقد يشعر امرؤ بالثقة حين يتسلق الجبل، وآخر يشعر بها في ركوب الحبر أو ركوب الجو. ولعل الثقة بالنفس في مواجهة الحياة إنما تأتي أكثر من أي شيء آخر نتيجة لتلقي المرء لذلك النوع من العطف الذي يفتقر إليه. وسنحاول في هذا الفصل أن ندرس هذه الصفة باعتبارها دافعًا من دوافع الإقبال على الحياة.

وشعور الأمن هذا إنما يترتب على تمتع الإنسان بالعطف، لا على منحه العطف لغيره وإن كان ينتج أولًا وقبل كل شيء عن التعاطف. وإذا ابتغينا الدق في القول فإن إعجاب الناس بالمرء إلى جانب محبتهم له يصلان به إلى هذا الشعور.

والذين يشغلون من الناس أعمالًا تحتم عليهم استدرار عطف الجمهور كالممثلين والوعاظ، والمذيعين والسياسيين إنما ينتهون إلى الاعتماد على تصفيق الناس. وحين يتمتعون بإعجاب الناس فستمتلئ حياتهم بالنشاط، أما إذا افتقدوا هذا الإعجاب فسيركنون إلى عدم الرضا والانطواء. وإعجاب الجمهور بالنسبة لهؤلاء يؤدي إلى ما يؤديه تعاطف الجمهرة القليلة بالنسبة لغيرهم.

ويعتبر الطفل عطف أبويه الزائد حقًا منحته إياه الطبيعة، وقد لا يفكر الطفل كثيرًا في طبيعة ذلك العطف، ولكن وجوده أمر ضروري لسعادته. فالطفل يفكر في العالم، ويفكر في المخاطر التي يمر بها، وفي مخاطر أشد يتصورها في المستقبل حين تكتمل رجولته. وهو في هذا كله يحس في أعماق نفسه أن عطف أبويه عليه درع من الكوارث.

أما ذلك الطفل الذي فقد الحنان الأبوي لسبب أو لآخر فإنه سيصبح خجولًا متراخيًا تملؤه المخاوف، ضعيف الثقة بالنفس، إنه لن يستكنه العالم بعين راضية.

مثل هذا الطفل تملؤه في سن مبكرة الأفكار حول مصير الإنسانية والحياة والموت؛ وينطوي على نفسه، وقد يعتريه الحزم أول الأمر ثم يحاول بعد ذلك أن يجد عزاء من نوع خيالي في قراءة بعض النظم الفلسفية أو الدينية.

والواقع أن العالم لا يسير على سنن معينة، وهو مليء بالشرور والخيرات دون ترتيب، ومحاولة المرء أن يستخلص نظامًا معينًا من كل ذلك إنما هي محاولة ترتكز في أساسها على عنصر الخوف، الذي هو نوع من (الأجورافوبيا) أو الخوف من الأماكن المفتوحة.

فالطالب الخجول يشعر بالأمن داخل جدران مكتبته الأربعة. فإذا أقنع نفسه أن العالم الخارجي شبيه في نظامه بما يقرؤه في الكتب، فإن شعوره بالأمن سيمتد إلى خارج المكتبة وإلى الطرقات. والخوف الذي يعانيه مثل هذا الرجل كان من المُمكن أن يقل لو أنه حظى بنصيب الكبر من الحنان، ولما لجأ إلى أن يخلق في ذهنه ذلك العالم المثالي.

ولسنا نريد أن نصل إلى أن الحنان بصوره كلها يؤدي إلى تشجيع روح المخاطرة. ذلك أن الحنان الممنوح ينبغي أن يكون قويًا لا أن يكون ضعيفًا، وأن يهدف المرء إلى الرقي بمن يعطف عليه لا إلى المحافظة عليه فحسب. فالأم أو المربية المتخوفة، التي تحذر أولادها من الكوارث المحتملة الوقوع، والتي تظن أن جميع الكلاب تعقر، وكل

الأبقار تنطح، مثل هذه الأم ستربي في أبنائها شعورًا بالخوف مرادفًا لشعورها، وهم من ثم لن يحسوا بالأمن إلا بالقرب منها.

وسترضى الأم من غير شك عن هذا الإحساس من جانب أبنائها، إذا أنها تتطلب من أبنائها الاعتماد عليها بدلًا من أن تدفعهم إلى معالجة مشاكل الحياة بأنفسهم. والأطفال الذين يربون في هذا الكنف سيصلون على مر الزمن إلى نتائج أكثر سوءًا مما لو حرموا الحنان كلية.

والمعروف أن العادات العقلية التي تنشأ مع الإنسان في طفولته الأولى تستمر معه خلال العمر وكثير من الناس يحاولون أن يجدوا في الحب ملاذًا من العالم نفسه، فيحصلون على الإعجاب الذي لا يتوفر لهم، والمديح الذي لا يلقونه. وبعض الرجال يجدون في المنزل ملجأ يلوذون به بعدًا عن الحقيقة.

ذلك أن مخاوفهم في العالم الخارجي تحثهم إلى البحث عن نوع من الرفقة تهدئ من هذه المخاوف. فهم يتطلبون من زوجاتهم ما كانت تمنحه إياهم من قبل أم جاهلة. ومع ذلك فهم يدهشون حين تأخذهم زوجاتهم على أنهم أطفال كبار.

وليس من السهل تعريف التعاطف على الوجه الصحيح، مادام عنصر الوقاية تدخل في تركيب العطف. فنحن نهتم بالأذى الذي قد يصيب أحبابنا.

وإني لأعتقد أن الخوف من المكروه المحتمل ينبغي ألا يلعب دورًا كبيرًا في عطفنا على الآخرين، وذلك على العكس من المشاركة العاطفية بالنسبة لمكروه وقع بالفعل.

وخشية المرء من وقوع المكروه لغيره لا يفضل خشية من وقوع المكروه لنفسه إلا قليلًا. بل إنه قد يكون سببًا ظاهريًا تختفي تحت إرادة الامتلاك. فعندما يثير المرء مخاوف غيره قد تتيسر الوسيلة للسيطرة عليه سيطرة كاملة.

ولعل هذا هو السبب في أن الرجال فضلن النساء المستضعفات لأن حمايتهن معناها امتلاكهن. ويتوقف مقدار القلق الذي يتحمله المرء دون ضرر على طبيعة شخصيته، فالرجل القوي المخاطر يستطيع تحمل الكثير دون أذى، بينما يحتاج الشخص الضعيف إلى التشجيع كي يتحمل القليل في هذا السبيل.

واستدرار الإنسان للحنان له اتجاهات. فقد سبق أن تحدثنا عن الحنان وارتباطه بإحساس المرء بالأمن. أما إذا تحدثنا عن الدور الذي يلعبه الحنان بعد أن ينضج المرء، فإن لهذا الدور أهمية بيولوجية أساسية، فهو وثيق الاتصال بالأبوة.

وعدم قدرة المرء على إثارة الحب الجنسي يعد كارثة شديدة سواء كان ذلك بالنسبة للرجل أو للمرأة؛ لأن معنى ذلك حرمانه أو حرمانها من أكبر المتع التي تقدمها الحياة. وهذا الحرمان سيؤدي إن عاجلًا أو آجلًا إلى انصراف المرء عن الحياة، ثم إلى الانطواء.

وكثيرًا ما يحدث أن تؤدي الخطوب التي ألمت بالمرء في طفولته إلى بعض النقائص في شخصيته، ثم تقف هذه النقائص بينه وبين حب الآخرين له في رجولته.

ولعل هذا يصدق بالنسبة للرجال أكثر مما يصدق بالنسبة للنساء. لأن العادة أن النساء ينظرن في الرجال إلى شخصيتهم، بينما ينظر الرجال إلى منظر المرأة. ويُمكن القول في هذا الصدد أن الرجال أدنى من النساء. وذلك لأن الصفات التي يمل إليها الرجال في النساء أقل أهمية على وجه العموم من تلك الصفات التي تطلبها النساء في الرجال.

ولست أدري في الواقع ما إذا كان الأسهل أن يحصل المرء على شخصية حسنة أم على مظهر حسن. وعلى كل فغن الخطوات اللازمة لتحقيق المظهر الحسن يسهل على النساء فهمها واتباعها بصورة أيسر من فهم الرجال للخطوات المؤدية إلى اكتمال الشخصية.

ولقد تحدثنا عن نوع الحنان الذي يحصل المرء عليه،وأود أن أتحدث الآن عن نوع الحنان الذي يمنحه المرء. وهذا الحنان نوعان. أحدهما يعد تعبيرًا هامًا على إقبال المرء على الحياة؛ أما الآخر فما هو إلا تعبير عن الخوف. والنوع الأول جدير بالإعجاب أما النوع الآخر فما هو إلا صورة من العزاء. تصور أنك على ظهر باخرة في يوم جميل، وأن الشاطئ عن قرب. إنك تعجب بالشاطئ وتجد السرور في الاقتراب منه. إن السرور الذي تحس به ليس إلا نتيجة لنظرك إلى الخارج، ولا يرتبط أيما رباط بأية حاجة ملحة تحس بها.

أما إذا اختلف الأمر وكنت في سفينة توشك على الغرق، وأنت تسبح في اتجاه الشاطئ، فإن شعورك نحو الشاطئ سيكون نوعًا آخر من الحب، فهو بالنسبة إليك يمثل الأمن من الأمواج، وجماله أو قبحه لا يعنيان شيئًا بالنسبة إليك.

والحنان في أسلم صوره يشبه شعور المرء في السفينة الآمنة، بينما يتفق النوع الآخر من الحنان مع حالة ذلك الشخص الذي يسبح في اتجاه الشاطئ بعد تحطيم سفينته. ويُمكن تحقيق النوع الأول من الحنان طالما شعر المرء بالأمن، أو على الأقل طالما لم يبد اهتمامًا للأخطار التي تحوط به، أما النوع الثاني فيتولد من فقدان الإحساس بالأمن.

وهذا الشعور الأخير أكثر ذاتية وانطوائية من الأول، لأن تقدير الشخص المحبوب إنما يأتي لأغراض معينة، لا لصفة ذاتية يتصف بها. ولا أريد بهذا أن أقول أن النوع الأخير لا يصح وجوده في الحياة. بل الواقع أن العطف الحقيقي يضم النوعين معًا. وما دام العطف يمحو من الإنسان شعوره بفقدان الأمن، فهو إذن يحرر المرء ويهيئ له الفرصة كي يجد اللذة في الحياة، وهي اللذة التي فقدها خلال لحظات الخطر والخوف. ولكن إذا كان لنا أن نزن الدور الذي يؤديه مثل هذا الحنان فهو إذن أقل قيمة من النوع الأول، لأنه من ناحية يعتمد على الخوف، والخوف شر، ومن ناحية أخرى لأنه ينطوي على الأنانية.

أما بالنسبة للحنان في أحسن صوره فإن المرء ينشد سعادة جديدة، لا الهروب من شقاء قديم. ولعل أسلم أنواع الحنان هو الحنان المتبادل الذي يبعث في المرء الشعور بالحياة. حين يتلقى كل من الجانبين العطف في سرور ويمنحه دون مجهود، ذلك الحنان الذي يملأ نظرة الإنسان إلى العالم بالتفاؤل نتيجة لتبادل هذا الشعور السعيد ثم إن هناك نوعًا آخر منتشرًا إلى حد ما بين الناس، وذلك حين يمتص فرد ما حيوية فرد آخر، فيتلقى أحدهم عطف الآخر دون ما مقابل.

وكثير من الناس من ينتمي إلى هذه الفئة. فهم يمتصون الحيوية من ضحية ويتبعونها بأخرى، وبينما هم في هذا النجاح، إذ يذوي ضحاياهم، ويفقدون مزيتهم. مثل هؤلاء الناس يعتبرون غيرهم وسائل لتحقيق أهدافهم، ولا يعتبرونهم غايات في حد ذاتهم.

والواقع أن اهتمامهم ليس موجهًا في أساسه إلى أولئك الذين يحبونهم في ساعة ما، وإنما اهتمامهم الحقيقي موجه إلى دوافع نشاطهم، وقد تكون هذه الدوافع موضوعية في طبيعتها.

والسبب في هذا بطبيعة الحال نقص في شخصيتهم ليس من السهل تشخصيه أو علاجه. وكثيرًا ما ترتبط هذه الصفة بالطموح الشديد، وأن يكون سببها الفهم الضيق لأسباب السعادة.

ولعل أهم أسباب السعادة الحقيقة هو تبادل العاطفة الصادقة بين شخصين اثنين، دون أن يعتمد واحد منهما على الآخر اعتمادًا خالصًا لتحقيق مآربه. أي أن يتعاون الاثنان معًا لتحقيق هدف مشترك. والرجل الذي يحصر ذاته بين جدران أربعة، إنما يفقد أحسن ما يُمكن أن تمنحه الحياة وذلك مهما حقق من نجاح في حياته العملية.

ذلك أن الطموح الذي لا يصحبه التعاطف إنما ينتج في أغلب الأحوال عن الغضب أو عن كره الجنس البشري، وقد يكون السبب في هاتين العاطفتين شقاء عاناه المرء في شبابه، أو ظلم مر به في حياته، أو أي سبب آخر من الأسباب التي تؤدي إلى جنون الاضطهاد.

والأنانية سجن ينبغي أن يفر منه المرء إذا أراد الاستمتاع بالعالم. ومن ميزات الرجل الذي استطاع الخروج من الأنانية قدرته على التعاطف. وليس يكفي في هذا المجال حصول المرء على الحنان. ذلك أن العطف الذي يناله المرء ينبغي أن يؤدي به إلى العطف على الغير. فالتعاطف حيثما تحقق ينتج خير ما يمكن إنتاجه.

وتعد العقبات النفسية والاجتماعية التي تحول دون انتشار التعاطف بين الناس شرًا مستطيرًا، عانى منه العالم وما زال يعاني منه حتى وقتنا الحاضر. فالناس لا يظهرون إعجابهم خشية ألا يكون هذا الإعجاب في غير موضعه، ويتباطأون في منح العطف حتى لا ينالهم الشر إما من الشخص موضوع عطفهم أو من جمهور اللائمين.

ويتذرع الناس لهذا الحرص بالأخلاق حينًا والحكمة حينًا آخر. وأدى ذلك إلى تخاذل الناس في إبداء عطفهم نحو أحدهم الآخر. ومن ثم نشأ شعور الكراهية نحو العالم لأن كثيرًا من الناس يفتقدون أشياء يمكن أن نعدها من الأسباب الهامة للحياة الميسورة.

وليس لنا أن نفترض في هذا الصدد أن من يصفهم الناس بالانحراف عن الخلق أرفع ممن لا يتصفون بهذه الصفة. أما في مجال العلاقة الجنسية فليس هناك ما يُمكن تسميته بالعطف الحقيقي، بل قد يكون هناك شيء من العداء. فكل من الجانبين يحاول ألا يمنح نفسه أو نفسها برمتها، كل يحاول الاحتفاظ بذاته الخاصة، وألا يمسسه شيء. ومن ثم فلا تكون العلاقة مثمرة. ومثل هذه التجارب ليس لها قيمة أساسية.

ولكني لا أقول بضرورة اجتنباها فذلك قد يعترض الطريق في سبيل تنمية العاطفة العميقة. فالعلاقات الجنسية ذات القيمة هي العلاقة التي لا يشوبها التحفظ، والتي تتلاشى فيها شخصية الفردين في شخصية جديدة متكاملة.

ولعل التحفظ في الحب دون جميع أنواع التحفظ هو أخطر الأسباب التي تحطم السعادة الحقيقية.

الأسرة

لعل أكثر الأنظمة اختلاطًا واضطرابًا هو نظام الأسرة، وذلك رغم أن عطف الآباء على الأبناء واحترام الأبناء للآباء يمكن أن يكون من أهم مصادر السعادة. والذي يحدث في عصرنا الحاضر هو أن علاقة الآباء بالأبناء في تسع حالات من عشر تسبب الشقاء للجانبين وفي تسع وتسعين حالة من مائة تعد مصدرًا للشقاء لواحد من الجانبين على الأقل.

ولعل تقصير نظام الأسرة عن توفير القيم الأساسية التي يفترض فيه توفيرها سبب عميق من أسباب شعور الاستياء الذي يغمر العصر الحاضر. فالرجل الذي يود أن تقوم علاقته مع أبنائه على أساس قويم وأن يكفل لهم حياة سعيدة ينبغي أن يتفهم معنى الأبوة على وجهها الصحيح، وأن يتصرف بعد ذلك في حكمة. ودراسة الأسرة موضوع لا تتسع له صفحات هذا الكتاب إلا بالقدر الذي يتصل به بفكرة تحقيق السعادة. وحتى في هذا المجال فإن حديثنا سيقتصر على نزوع الفرد نحو الرقي ما دام ذلك لن يؤدي إلى تغيير في تركيب المجتمع. أما فيما يختص بالطبقات الميسورة من المجتمع، فهناك سببان يشعر معهما النساء أن الأمومة عبء أشد قسوة مما كانت عليه من قبل. هذان السببان هما اشتغال النساء بالحياة العامة من ناحية، واختلال الحياة المنزلية من ناحية أخرى.

وكانت النساء قديمًا يتزوجن تهربًا من الضغط الذي قد يعانيه إذا صرن عوانس. إذ كانت العانس تعتمد في حياتها على أبيها في أول الأمر ثم على أخ لها يعولها على غير رغبته. ولم يكن لها ما يشغلها، كما لم تكن تتمتع بالحرية خارج منزل العائلة. كذلك لم يكن يتاح لها المخاطرة الجنسية، بل هي لم تكن لترغب فيها خارج الحياة الزوجية. وإذا حدث رغم هذه الضمانات أن فقدت إحداهن عفتها تحت إغراء أحد المغرمين، فإن موقفها سيصبح سيئًا للغاية.

أما العانس في عصرنا الحديث فقد لا ترى أن الموت هو خير مخرج لها من مثل هذه الموقف المتأزم. فإذا كانت على جانب من الثقافة، فلن تجد صعوبة في الحصول على عيشها، ومن ثم فيمكنها الاستقلال عن عائلتها.

ولما كان الآباء قد فقدوا سيطرتهم الاقتصادية على بناتهم فقد أصبحوا إذن أكثر تحفظًا في إبداء اعتراضهم على سلوكهن. فليس هناك ما يدعو إلى الإنحاء باللائمة على شخص لا يود الانتظار للاستماع إلى اللوم. ولذلك فإن الفتاة العاملة تستطيع الآن أن تتمتع بحياة ملائمة ما لم يكن ذكاؤها وجاذبيتها محدودين، وما لم تكن ترغب في إنجاب الأطفال.

أما إذا خالجتها هذه الرغبة فهي إذن مضطرة للزواج، ومن المحتمل في هذه الحالة أن تفقد وظيفتها كما أنها قد تشعر بعد الزواج براحة أقل مما تعودت عليه لأن راتب زوجها قد لا يزيد عن ذلك الراتب الذي

كانت تتقاضاه من قبل، ومع ذلك فهو ينفقه الآن على عائلة بأكملها، بينما كانت تنفقه من قبل لسد حاجات فرد واحد. ثم أنها بعد أن كانت تتمتع بالاستقلال، فقد أصبحت الآن تعتمد في ضروراتها الاقتصادية على إنسان آخر.

لهذه الأسباب نرى أن الفتاة العاملة تترد كثيرًا قبل الموافقة على الزواج. أما تلك المرأة التي تتخذ هذا القرار فإن ثمة مشكلة ستواجهها لم تكن تواجه من قبل سابقاتها من نساء الأجيال الماضية. هذه المشكلة هي تدهور الحياة المنزلية الذي يترتب عليه أن تصبح المرأة مرتبطة بمنزلها، وأن تقوم بأداء آلاف الأعمال التافهة التي لا تتناسب مع مقدرتها أو مرانها، وإذا لم تكن تقوم بها بنفسها، فإن أعصابها ستتحطم في حديثها مع الخدم الذين يهملون هذه الواجبات.

أما فيما يتعلق بالإشراف على الأطفال، فإنها ستجد من المحال أن تعهد بأطفالها إلى المربيات دون أن تتجشم المخاطر، أو أن تترك للآخرين الإشراف على أبسط وسائل الوقاية.

وعلى صحة الأطفال العامة، وذلك ما لم تتندب لذلك مربية دربت تدريبًا خاصًا في أحد المعاهد. وإذا كانت هذه المرأة ذات حظ سعيد، فلن يقدر لها أن تفقد كل جاذبيتها وثلاثة أرباع ذكائها، وكثيرًا ما يحدث أن يصبح مثل هؤلاء الزوجات مصدرًا للملل بالنسبة لأزواجهن وأطفالهن وذلك نتيجة لقيامهن بهذه الواجبات اليومية. فالمرأة التي تتحدث عن أعبائها المنزلية حين يأتي المساء ويعود الزوج من عمله تعد ثقيلة الروح،

أما تلك التي لا تتحدث على الإطلاق فهي شاردة الذهن. كما إن التضحيات التي بذلتها في سبيل أطفالها تظل دائمًا أبدًا عالقة بذهنها ولذلك فهي دائمًا تنتظر مقابلًا لها أكثر مما هي حقيقة به بالفعل. وانصرافها إلى التفاصيل التافهة يضيق من أفقها.

ولعل أشد ما يمكن أن تعانيه المرأة من افتئات، هو فقدانها لحب الجميع إذا قامت بواجبها نحو العائلة، بينما قد تتمتع بهذا الحب إذا فرطت في هذه الواجبات واحتفظت بجاذبيتها ومرحها. وكل هذه المشاكل في أساسها مشاكل اقتصادية. ومثلها مشكلة أخرى لا تقل عنها خطورة، ألا وهي الصعوبات الخاصة بالإسكان التي تترتب على ازدحام السكان في المدن الكبيرة. وقديمًا كانت المدن في العصور الوسطى أقرب إلى الأرياف.

ولكن معظم الناس حتى عهد قريب كانوا يعيشون في الريف.. كذلك لم تكن المدن فسيحة، بل كان من السهل الخروج منها، وكانت مليئة بالحدائق أما الآن فإن مجتمع المدينة في إنجلترا يطغى بصورة واضحة على مجتمع القرية وقد لا نجد نفس الظاهرة واضحة في أمريكا، إلا أنها بسبيل الانتشار. فمدينة كلندن أو نيويورك بلغت من الاتساع بحيث يمضي وقت طويل قبل أن يستطيع الإنسان أن ينفذ منها. لذلك يقنع سكان المدينة عادة بالسكن في شقة من الشقق التي لا يحلق بها أي شبر من الأرض. إذ لا يسمح لهم دخلهم المتوسط باستئجار مكان متسع.

وإذا كان ثمت أطفال فستزداد المعيشة داخل الشقق تعقيدًا. فليس هناك مجال للعب، وليس لآبائهم حيلة في الضجيج الذي يثيرونه. ولذلك لجأ أصحاب المهن إلى السكن في الضواحي. وقد يكون هذا حلًا بالنسبة لمشكلة الأطفال، ولكنه يزيد في تعب رب العائلة، ويقلل من الدور الذي يمكن أن يلعبه في سبيل تدعيم الحياة العائلية.

وليس لي أن أناقش هذه المشكلات الاقتصادية الضخمة، لأنها تخرج عن نطاق المسألة التي تهمنا الآن؛ وهي دراسة الوسائل التي ينتهجها الفرد لتحقيق السعادة.

وسنقترب من هذه المسألة حين نتناول الصعوبات النفسية التي تعترض العلاقة بين الآباء والأبناء في عصرنا الحاضر.

ولعل هذه المسألة ذات صلة وثيقة بالمشاكل التي أثارتها الفكرة الديموقراطية. فقديمًا كان هناك الأسياد والعبيد. وكان الأسياد يقررون ما يجب أداؤه، وكانوا على وجه العموم يحبون عبيدهم، لأن هؤلاء العبيد يعملون لإسعادهم.

أما العبيد فكانوا يكرهون أسيادهم، وإن لم يتخذ هذا الكره صورة جماعية كتلك التي يقول بها الديمقراطيون. على أن الأسياد لم يكونوا ليشعروا بهذا الكره وكانوا على كل الأحوال سعداء في حياتهم.

وبعد أن ضربت الديموقراطية أطنابها، تغير كل ذلك، فتوقف العبيد عن تقديم فروض الطاعة، وتردد الأسياد في قبول أشياء كانوا من قبل يعتبرونها حقًا مقررًا. وحدث انشقاق أدى إلى شقاء كل من الطرفين.

وأنا لا أهاجم الديموقراطية، لأن الاضطراب الذي وقع أمرًا ضروري الحدوث في فترة الانتقال هذه، وليس من المجدي أن يغمض الإنسان بصره عن أثر هذا الاضطراب في العالم أثناء التغير من حال إلى حال.

والتغير الذي طرأ على العلاقة بين الآباء والأبناء إنما هو صورة من صور انتشار الديموقراطية. فالآباء الآن ليسوا على ثقة من حقوقهم قبل أبنائهم، كما أن الأبناء لا يرون لزامًا عليهم تقديم فروض الاحترام لآبائهم.

وأصبحت فضيلة الطاعة الآن تقليدًا قديمًا، بعد أن كانت حقًا لا نقاش فيه. وأصبح الآباء المثقفون يتصرفون نحو أبنائهم في حيطة وحذر خشية الإضرار بهم بعد ما سمعوه عن التحليل النفسي، فإذا قاموا بتقبيلهم فقد يصاب الأطفال بعقدة أوديب، وإذا لم يفعلوا ذلك فقد يشعرون بالمرارة، وإذا طلبوا إلى أبنائهم فعل شيء، فقد ينتج عن ذلك تنمية الشعور بالخطيئة، وإذا لم يطلبوا إليهم شيئًا، فقد تربي لدى الأطفال عادات مرذولة.

وإذا رأوا طفلهم يمص إبهامه، يستنتجون من ذلك نتائج غاية في الخطورة، ولا يدرون ما يفعلون. ومن ثم فإن الأبوة التي كانت وسيلة ناجعة لممارسة السيطرة، انقلبت الآن إلى نوع من التخاذل والقلق والشكوك وأصبحت خلوًا من المتع السابقة، ويحدث هذا في الوقت الذي تضطر فيه الأم إلى تقديم التضحيات أكثر من ذي قبل، بعد أن أتيحت للمرأة هذه الحرية الجديدة في الإقدام على الزواج أو الإحجام عنه.

وفي هذه الظروف نرى أن الأمهات الحريصات يتطلبن القليل من أبنائهن. أما الأخريات فهن يطلبن الشيء الكثير. ذلك أن الأمهات الحريصات يكبتن مشاعرهن وينكمشن، بينما يبحث الأخريات عن عوض لما تجاوزن عنه من متع، والنتيجة أن الطفل في الحالة الأولى لن يشبع حاجته إلى العطف.

وفي الحالة الثانية ستصبح عواطفه سهلة الاستثارة. وفي كلتا الحالتين أن تتحقق هذه السعادة الطبيعية التي يوفرها الجو العائلي في أحسن حالاته.

وفي عصرنا الحاضر نرى أن أكثر الطبقات حضارة في الأمم الغربية آخذة في التلاشي. وقد تأخذ الدول الغربية مجموعها في التناقص خلال بضع سنوات قليلة اللهم إذا هاجر إليها بعض سكان الدول الأقل حضارة. وهؤلاء المهاجرون بدورهم سيصابون بالعقم بعد تشبعهم بالحضارة التي هاجروا إليها.

ومن الواضح أن حضارة لها هذه الصفة، هي حضارة غير مستقرة. وإذا لم تيسر الوسيلة للزيادة العددية في ظل هذه الحضارة، فما من شك في أنها إن عاجلًا أو آجلًا ستترك مكانها لحضارة أخرى يكون الدافع إلى الأبوة فيها قويًا بحيث يمنع من اضمحلال المجتمع.

وقد حاول القسيسون في كل دولة من الدول الغربية أن يحلوا هذه المشكلة عن طريق الوعظ وإثارة المشاعر. فهم يقولون من ناحية أن من واجب الزوجين إنجاب أكثر عدد ممكن من الأطفال، طبقًا لمشيئة الله، وذلك بغض النظر عن النواحي الصحية والنفسية في نمو هؤلاء الأطفال.

ومن ناحية أخرى يلح الوعاظ في الحديث عن المباهج المقدسة للأمومة، ويزعمون أن من الممكن أن تكون عائلة ضخمة من الأطفال المرضى وذوي العيلة من مصادر السعادة، وتؤيدهم في ذلك الدولة حين تطلب وقودًا كافيًا للمدافع، وإلا فكيف يمكن أن تستخدم كل هذه الأنواع من أسلحة الدمار المبتكرة إن لم يكن لتحطيم عدد كاف من بني البشر؟ ومن الغريب أن الأب كفرد يقبل على هذه الأشياء بالنسبة لغيره، أما بالنسبة لنفسه فهو يتعامى عنها. ولعل التركيب النفسي لهؤلاء القسيسين والمغالين في الوطنية تركيب خاطئ.

وقد ينجح القسس طالما هددوا الناس بويلات الجحيم، بيد أن قليلًا من الناس الآن من يأخذ مثل هذه التهديدات على محمل الجد، وإن كان التهديد بالجحيم هو أقل ما يمكن استخدامه للسيطرة على سلوك الإنسان في هذا المجال. ولكن الدول تتخذ وسيلة أخرى شديدة القسوة. فقد يوافق الناس على أن يقدم أبناؤهم هم هذا الوقود.

وكل ما تفعله الدول إذن هي أن تذر الفقراء يعمهون في جهلهم. وهو مجهود يجانبه النجاح دائمًا كما ثبت من الإحصائيات وذلك باستثناء أكثر الدول الغربية تخلفًا. فقليل إذًا من النساء والرجال من يلدون الأطفال يدفعهم إلى ذلك إحساسهم بالواجب نحو المجموع، حتى لو كان هذا الواجب أكثر اتضاحًا مما هو عليه.

وإنما يلد النساء والرجال لأنهم يؤمنون أن وجود الأطفال سيزيد في سعادتهم، أو لأنهم لا يعرفون وسيلة لمنع الحمل. ولعل السبب الأخير أكثر انتشارًا، وإن كان احتمال تأثيره قليلًا، ولكن ما تفعله الكنيسة

والدولة لا يمنع من استمرار الاضمحلال، ولذلك فقد أصبح من الضروري، إذا كنا بسبيل المحافظة على الجنس الأبيض، أن تكون الأبوة مرة أخرى مصدرًا من مصادر السعادة للآباء.

وإذا درسنا الطبيعة البشرية بغض النظر عن ظروف العصر الحاضر. فإنه من الواضح أن الأبوة من الناحية النفسية لها القدرة على توفير سعادة كبيرة دائمة. وقد يصدق هذا بالنسبة للمرأة أكثر مما يصدق بالنسبة للرجل، ولكنه ينطبق على الرجل أيضًا بصورة أكبر مما يتصور معظم المحدثين.

وتؤخذ هذه الحقيقة أمرًا مسلمًا به في كل الأعمال الأدبية في العصور السابقة. نرى هكوبا تهتم لأبنائها أكثر من اهتمامها لبريام، وماكدف يهتم لمقتل أبنائه أكثر من اهتمامه لقتل زوجته، ونرى النساء والرجال في العهد القديم يظهرون ميلًا شديدًا لإنجاب الذرية، وقد استمر هذا الاتجاه في الصين واليابان حتى عصرنا الحاضر.

وقد يُقال أن هذا الاتجاه يرجع إلى عبادة الأجداد. ولكني أعتقد أن العكس هو الصحيح، وهو أن هذه العبادة إنما هي انعكاس لرغبة الناس في استمرار عائلاتهم.

وإذا أشرنا مرة أخرى إلى النساء المشتغلات ذكرنا مرة أخرى أن دوافع الأمومة كانت قوية لديهن لدرجة ضحين في سبيلها بالشيء الكثير.

وإذا تحدثت عن نفسي بصورة شخصية، فقد وجدت أن السعادة الناتجة عن الأبوة أكبر من أي إحساس آخر شعرت به.

وإني أعتقد أنه إذا اضطرت الظروف الرجل أو المرأة إلى افتقاد هذا الشعور فغن ثمت حاجة ملحة ستبقى دون إشباعها، وهذه الحالة ستولد إحساسًا بعدم الرضا والتقلب تظل أسبابه مجهولة.

ولكي يحس الإنسان بالسعادة في هذا العالم، وخاصة بعد أن يذوي الشباب، ينبغي ألا يشعر المرء بأنه مجرد فرد معزول ستنقضي أيامه سريعًا، بل بأنه جزء من تيار الحياة الذي ينبثق من المنبت الأول ويجري نحو المستقبل المجهول.

وليس من شك في أن هذا يتضمن الفهم العميق للعالم والإغراق في الحضارة إذا كنا في مجال الحديث عن الناحية الواعية. أما إذا كان الأمر يتعلق بالعواطف الغريزية الغامضة فإنها من غير شك بدائي طبيعية، وعدم وجودها في ذاته هو الإغراق في الحضارة.

فالرجل الموهوب الذي يستطيع القيام بالأعمال الضخمة البارزة التي تخلده على مر العصور، هذا الرجل يرضي هذا الشعور عن طريق عمله، أما الرجال والنساء العاديين الذين ليس لهم مواهب خارقة، فليس لهم أن يحققوا ذلك إلا عن طريق أبنائهم.

أما أولئك الذين كبتوا في أنفسهم داوفع الإنسان، فقد فرقوا بين أنفسهم وبين مجرى الحياة، وعرضوا أنفسهم لخطر العقم. والموت هو نهاية كل شيء بالنسبة لهؤلاء، اللهم إلا إذا كان اهتمامهم بما هو خارج أنفسهم غاية في الزيادة. فهم لا يلقون بالًا إلى العالم الذي سيخلفهم، ومن ثم فكل ما يأتون من عمل يرونه تافهًا لا قيمة له.

أما بالنسبة للرجل أو المرأة من ذوي الأبناء والأحفاد، الذين يشعر نحوهم بعطف طبيعي فغن المستقبل له أهمية على الأقل في حدود حياة هذا الرجل أو المرأة، ولا يتأتى هذا من طريق التعلم الأخلاقي أو عن طريق التخيل وإنما يأتي طبيعيًا بدافع من الغريزة ذاتها. ولا يصعب على الفرد الذي استطاع أن يوسع نطاق اهتمامه إلى أبعد من حياته الشخصية، أن يمد نطاق هذا الاهتمام إلى مجال أوسع من ذلك بكثير.

مثله في هذا مثل سيدنا إبراهيم الذي أحس بالرضا حين أدرك أن ذريته سترث الأرض الموعودة ولو لم يحدث هذا إلا بعد أجيال عديدة. وهذا الشعور يجنبه الإحساس بالضعة الذي يحطم جميع المشاعر في الإنسان.

ومن الطبيعي أن أساس الحياة العائلية هو أن الآباء يحسون نوعًا خاصًا من العطف نحو أبنائهم، يختلف عن ذلك الذي يحسونه نحو أحدهم الآخر، أو نحو الأطفال الآخرين. حقيقة أن هناك بعض الآباء لا يحسون بعاطفة الأبوة نحو أطفالهم، أو أن يحس بعض النساء بعاطفة الأمومة نحو أطفال لا يمتون إليهن بصلة وذلك بنفس الصورة التي يحسون بها بهذه العاطفة نحو أبنائهم.

ومع ذلك فما زالت هناك الحقيقة الواضحة، وهي أن عاطفة الأبوة نوع خاص من الإحساس يُمارسه الفرد العادي نحو أبنائه أو أبنائها، ولا يحس به نحو الأفراد الآخرين. ويرجع أصل هذه العاطفة إلى ما قبل الجنس البشري.

ويبدو لي أن رأي فرويد في هذا الصدد لا يقوم على أساس بيولوجي سليم. وذلك لأن دراسة علاقة الأم في المجتمع الحيواني بوليدها، تدل على أن سلوكها نحوه يختلف كلية عن سلوكها نحو الذكر الذي تتصل به اتصالًا جنسيًا.

وإننا لنجد هذا الاختلاف الغريزي بين أفراد المجتمع الإنساني، وإن كان ذلك بصورة معدلة وأقل تحديدًا. ولولا وجود هذه العاطفة لما كان هناك داع للحديث عن نظام العائلة كناموس من نواميس المجتمع، إذ أنه في الإمكان على كل الأحوال أن يترك الأبناء تحت إشراف بعض من يحترف تربية الأطفال.

والواقع أن عاطفة الأبوة لها قيمتها بالنسبة للآباء والأبناء على السواء. أما بالنسبة للأبناء فإن قيمة هذه العاطفة ترجع إلى اعتمادهم عليها أكثر من اعتمادهم على أي عاطفة أخرى.

والمرء يحبه أصدقاؤه لصفاته الحميدة، وأحباؤه لسحره وجاذبيته فإذا تضاءلت هذه الصفات وهذه الجاذبية، فقد يذهب الأصدقاء والأحباء. ولكن الآباء يقفون إلى جانب أبنائهم في أوقات الشدة والمرض، بل حين يحل بهم العار إذا كانوا آباء بالمعنى الصحيح. ولقد نشعر بالزهو حين يقدر الناس صفاتنا الحميدة، ولكن معظمنا يدرك في قرارة نفسه أن هذا التقدير عرضة للذهاب.

غير أن آباءنا يحبوننا لأننا أبناؤهم. فتلك حقيقة لن تتغير أبدأ، ومن ثم فإننا نشعر بالأمن إلى جانبهم أكثر مما نشعر به مع أناس آخرين. وقد لا يكون لذلك أهمية كبيرة في أوقات النجاح، أما في ساعات اليأس فإن

عطف الآباء سيكفل لنا الأمن والعزاء اللذين لا نجدهما في مكان آخر.

وفي جميع العلاقات الإنسانية قد يكون من السهل تحقيق السعادة لجانب واحد وإن كان من الصعب تحقيقها لجانبين مشتركين في علاقة واحدة. فقد يشعر السجان بالمتعة في حراسة السجين، ويشعر بها صاحب العمل في تأنيب الموظف؛ وقد يجد الحاكم اللذة في القبض على رعيته بيد من حديد، وليس من شك كذلك في أن الأب المحافظ سيجد المتعة في استخدام العصا لتربية الفضيلة في نفس ابنه. كل هذه متع لها جانب واحد فحسب، وهي بالنسبة للشريك الآخر في الموقف أقل اجتذابًا.

ونحن نشعر الآن أن ثمت شيئًا لا يدعو إلى الرضا بالنسبة لهذه المتع. فنحن نعتقد أن العلاقة الإنسانية القويمة إنما تقوم على رضا الجنبين. وينطبق هذا على الأخص على العلاقة بين الآباء والأبناء.

ومعنى ذلك أن يحصل الآباء على مقدار من المتعة أقل مما كانوا يحصلون عليه من قبل، والأبناء بدورهم يلقون من العذاب على يد آبائهم أقل مما كانوا يقاسونه في الأجيال الماضية.

ولست أرى سببًا حقيقيًا يشعر معه الآباء بسعادة أقل في علاقتهم مع أبنائهم عما كانوا يشعرون به من قبل، وإن كان هذا هو الحال في الوقت الحاضر. ولست أرى كذلك سببًا لا يستطيع معه الآباء ألا يزيدوا من سعادة أبنائهم. ولكن تحقيق ذلك يتطلب – كما تتطلب جميع العلاقات المتساوية التي يهدف إليها العالم الحديث – شيئًا من الرقة والتهذيب، وتبجيل الأشخاص الآخرين، وهو أمر لا يشجعه العنف الذي

تتصف به الحياة اليومية. ولندرس أولًا سعادة الآباء من الناحية البيولوجية، ثم لندرسها بعد ذلك كما تظهر في ذلك النوع من الآباء الذين تأثروا بذلك الدافع الذي قلنا أنه أساس في عالم يقوم على المساواة.

والمتعة التي يستمدها الآباء لها أساسان. أولهما إحساس المرء بامتداده الجسمي، ومن ثم بامتداد حياته بعد موت الجسم. وقد يتصل الأمر مؤديًا بذلك إلى خلود الجنس.

وثانيهما امتزاج عامل القوة بعامل العطف. فالمخلوق الجديد لا معين له، وكذلك نجد الأب نفسه مدفوعًا لسد رغائبه، وهذا الدافع لا يرضي في الأب ناحية الحنان فحسب، بل حبه للسيطرة إلى جانب ذلك.

وطالما كان الطفل في حاجة إلى المساعدة، كانت العاطفة التي ينالها خالية من الأنانية، لأنها تهدف إلى حماية جزء ضعيف من أنفسنا. ولكن سرعان ما ينشأ صراع بين حب الأب للسيطرة، وبين رغبته في العمل لصالح طفله.

فبينما تجري طبيعة الأمور على أن يكون للأب السيطرة على ابنه، إلا أن من المستحسن أن ينشأ الطفل على روح الاستقلال بصورها المختلفة. وهذا يتعارض مع دافع السيطرة في الأب. وقد لا يشعر بعض الآباء بهذه المشكلة، ويتمادون حتى يصبحوا من الطغاة، فلا يجد الأطفال مناصًا من الثورة.

وبعض الآباء الآخرين يحسون بالمشكلة، ومن ثم يصبحون فريسة للعواطف المتضاربة. وهم بذلك يفقدون متعة الأبوة. فبعد ما بذلوه من عطف وعناية لأبنائهم، يذهلون حين يشب الأبناء على غير ما ارتضى الآباء، فقد يأمل الأب أن يرى ابنه جنديًا محاربًا فإذا به من دعاة السلام، أو كما فعل تولستوي قد يرغبون في أن يكون من دعاة السلام، فيشترك في فرقة "المئات السود". ولكن الصعوبة ليست في هذه النتائج التي قد تترتب بعد زمن طويل. فأنت إذا قمت بإطعام طفل يستطيع أن يطعم نفسه، إنما تقدم حب السيطرة على مصلحة الطفل، وذلك رغم ما يبدو لك من انك لا تود أن تكلف الطفل المشاق.

وقد تدفعك الرغبة في أن يظل اعتماد الطفل عليك أن تنفث فيه الإحساس بالمخاطر.

وإذا منحت طفلك العطف الكثير الذي تنتظر استجابة له فأنت بذلك إنما تحاول أن تشده إليك بأواصر العاطفة. ويتخذ دافع الامتلاك عند الآباء آلاف الصور كي يضلهم السبيل، وذلك إذا لم يتخذوا الحذر أو لم تنق قلوبهم.

والآباء المحدثون الذين يشعرون بهذه الأخطار، أحيانًا يفقدون الثقة في قدرتهم على معاملة أبنائهم، وقد تصبح بذلك فائدتهم أقل مما لو ارتكبوا الأخطاء نتيجة للسلوك غير المقيد. لأنه ما من شيء يسبب القلق للطفل أكثر من فقدان الكبير الذي يشرف عليه ثقته في النفس. فلأن يكون المرء نقي القلب خير من أن يكون حريصًا فالأب الذي تفوق رغبته الصادقة في تحقيق مصلحة ابنه حب السيطرة على إرادته، عليه أن

يتبع في ذلك دوافعه الذاتية دون أن يتقيد بأي كتاب عن التحليل النفسي ليبين له ما يجب اتباعه وما لا ينبغي. فإذا فعل ذلك فستقوم العلاقة بين الأب والابن على أساس متجانس من البداية إلى النهاية، ولن يترتب عليها أي شعور بالثورة من جانب الابن، ولا إحساس بالقلق من جانب الأب. ولكن ذلك يتطلب من الأب احترامًا لشخصية ابنه منذ البداية – لا من حيث المبدأ فحسب، سواء كان ذلك مبدأ أخلاقيًا أو عقليًا، وإنما ينبع هذا الاحترام من شعور عميق، وعن اعتقاد يكاد يكون قدسيًا، وأن يتأصل ذلك الشعور لدرجة تصبح معها عاطفة التملك غير ممكنة التحقيق تقريبًا. ومن المستحسن ألا يقتصر هذا الاتجاه على الأبناء فحسب، فهو أمر ضروري في العلاقات الزوجية، وفي الصداقة. وإن تحقيقها في الصداقة أقل صعوبة. وقد يسود هذا الاتجاه أيضًا العلاقات السياسية بين الجماعات الإنسانية في عالم خير، وإن كان هذا أملًا بلغ من البعد درجة يتعذر معها مناقشته الآن.

وإذا كانت الحاجة ملحة لهذا النوع من العطف، فغن الأطفال أحوج إليه من أي كائن آخر، وذلك نظرًا لحاجتهم إلى العون، وصغر حجمهم وضعفهم الذي يؤدي ببعض الجهلة إلى احتقارهم.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى المشاكل التي هي موضوع حديثنا في هذا الكتاب نستطيع أن نقول أنه يمكن تحقيق سعادة الأبوة عن طريق احترام شخصية الطفل كما أسلفنا. فالآباء الذين يتبعون ذلك الطريق لن يجدوا ما يحد من حبهم للسيطرة، ولن يصيبهم الذهول الذي يُعانيه الطغاة من الآباء حين يحصل أبناؤهم على الحرية.

ويتمتع الأب المتسامح بقسط من السعادة أكبر مما يتمتع به الأب الطاغية في أزهى فترات السيطرة الأبوية. فالحب المقرون باللين، والي تطهر من أدران العنف يهيئ للإنسان متعة أشد عمقًا وقدرة على استبدال معدن الحياة اليومية وبالنشوة العلوية، من أي عاطفة أخرى يمكن أن يحققها المرء في صراعه كي يقف على قدميه في هذا العالم المنزلق.

وحين أعلق هذه الأهمية الكبرى على العطف الأبوي، لا أعني – كما يتصور الناس غالبًا – أن على الأمهات أن يقمن بأداء أكثر ما يمكنهن أداؤه لأبنائهن. وذلك مبدأ كان الناس يجمعون عليه قديمًا، وكان إجماعهم هذا في محله في تلك الأيام التي لم يكن يعرف فيها عن تربية الطفل إلا الخرافات غير العلمية التي أورثتها النساء العجائز إلى الأجيال التي خلفتهن.

أما الآن فيمكن أن يوكل القيام على الطفل في بعض النواحي إلى بعض من تخصص في ذلك. وهذه حقيقة معترف بها بالنسبة لتعليم الطفل. فلا ينتظر مثلًا أن تقوم الأم بتعليم ابنها علوم الحساب، وذلك بالغًا ما بلغ حبها له.

ونحن نعترف بهذه الحقيقة بالنسبة لتثقيف الطفل وقراءته الكتب، فيفضل في ذلك تعليم الطفل على يد خبير متمرن لا على يد أم ليس لها هذا المران. ولكننا نتجاهل هذه الحقيقة بالنسبة لنواحي أخرى تتصل بتربية الطفل.

وليس من شك في أن بعض الأشياء يستحسن أن تقوم بها الأم، ولكن كلما نما الطفل، كلما وجد من الأشياء ما يتطلب إشراف إنسان آخر غيرها.

أما إذا اعترف للناس بهذه الحقيقة، فستوفر الأمهات مجهودًا يبعث فيهن الضيق، لأنه لا يتمشى مع كفاءتهن المهنية. بل إنه على المرأة التي أوتيت حظًا من المهارة المهنية، ألا تقيد نفسها دون الاستمرار في العمل رغم كونها أمًا، وذلك في سبيل مصلحتها مصلحة الجموع معًا.

وقد لا تستطيع أن تفعل ذلك خلال شهور الحمل الأخيرة، أو خلال فترة الرضاعة ولكن لا ينبغي أن يكون الطفل الذي زاد عمره عن تسع شهور عقبة تحول بين أمه وبين نشاطها المهني.

وإذا تطلب المجتمع من الأم أن تقدم لابنها تضحيات تخرج عن نطاق العقل، فإن هذه الأم – إن لم تكن قديسة – ستتوقع أن يقدم لها ابنها جزاء أكثر مما هو حق لها. والأم التي توصف عادة بالتضحية في سبيل أبنائها إنما هي في معظم الأحوال فريدة في أنانيتها نحو هؤلاء الأبناء، لأنه رغم أهمية الأبوة كعنصر من عناصر الحياة إلا أن هذا العنصر ليس الحياة كلها.

والأب الذي لا يشعر بالرضا، فهو منهوك العاطفة. ولذلك أصبح من الأهمية بمكان أن تواصل الأم هواياتها الخارجية، فالموقف في هذا الصدد يتفق في حالة الطفل وفي حالة الأم كذلك.

وإذا كانت الأم ذات موهبة خاصة في تربية الطفل، ولديها المعلومات التي تمكنها من الإشراف الكافي على الأطفال، فإن عليها أن تستخدم مهارتها على نطاق أوسع، وقد تمتهن الإشراف على جماعة من الأطفال من بينهم ابنها.

ومن حق الآباء ماداموا يقومون بالتزاماتهم نحو الدولة، أن يكون لهم رأي في كيفية تربية أطفالهم وفيمن يشرفون عليهم. ولكن ليس للأم أن تؤدي بنفسها ما تستطيع امرأة أخرى أن تؤديه بصورة أحسن منها.

ولا ينبغي أن تتردد الأمهات في أن يكلن أمر أبنائهن إلى النساء الأخر اللاتي هي أكثر منهن قدرة على تحمل هذا العبء وما دمن قد تمرسن به من قبل، وذلك إذا لم تستطيع هؤلاء الأمهات مواجهة مشاكل أبنائهن، فليست هناك غريزة إلهية تعلم المرأة الطريقة المثلى لمعاملة أبنائها.

والقلق الذي يظهرنه ليس إلا سببًا ظاهريًا تختفي تحته عاطفة الامتلاك. فكم من طفل تحطمت نفسيته على يد أم عاطفية جاهلة. ومن المعروف أن الآباء لا يتدخلون في شئون أبنائهم كثيرًا. ومع ذلك فإن الأبناء يحسون بالعاطفة نحو الآباء والأمهات على السواء.

وستتطور عاطفة الأمهات نحو أبنائهن في المستقبل لتصبح شبيهة بعاطفة الآباء نحو أبنائهم في الوقت الحاضر. وذلك إذا تحرر النساء من قيد العبودية كما سيتاح للأطفال الاستفادة من المعلومات العلمية التي يكتسبونها في سنيهم الأولى نتيجة للعناية بعقولهم وأجسامهم.

العمل

لا يُمكننا اعتبار العمل سببًا من أسباب السعادة. إذ أن أنواعًا كثيرة من العمل تؤدي إلى الإجهاد. وزيادة العمل يترتب عليها الإجهاد الشديد.

أما أنا فأعتقد أنه إن لم يزد العمل عن حد معين فإن أشد الأعمال مدعاة للألم أقل ألمًا من البطالة. وتقسم الأعمال إلى درجات مختلفة، تتفاوت في أهدافها بين مجرد إزالة السأم، وبين بعث أعمق المتع، وذلك طبقًا لطبيعة العمل، وقدرة العامل.

ومعظم الأعمال التي يقوم بها الناس ليست جذابة في حد ذاتها. ومع ذلك فإن لها مزاياها الكبيرة. فهي أولًا وسيلة لتمضية ساعات النهار دون الحاجة إلى التردد في اتخاذ رأي معين.

فمعظم الناس يشعرون بالحيرة في اختيار عمل جذاب يقومون بأدائه – وذلك إذا ترك لهم أمر ملء فراغهم. فإذا اختاروا عملًا معينًا، فهم يشعرون أن ثمة عملًا آخر قد يكون أكثر جاذبية.

وآخر ما توصلت إليه الحضارة هو تمكين المرء من ملء وقت فراغه بصورة مرضية، وقليل من الناس من وصل إلى هذه المرحلة بعد. فمسألة الاختيار في حد ذاتها مسألة متعبة.

فإذا استثنينا الموهوبين، فإن الناس يجدون الراحة دائمًا في أن يجدوا من يختار لهم الأعمال التي ينبغي أداؤها في كل ساعة من ساعات النهار، وذلك ما لم تكن هذه الأعمال غير ممتعة. والأثرياء المترفون يعانون السأم الشديد ثمنًا لتحررهم من العمل المضني.

وقد يجدون بعض التسلية أحيانًا في الصيد في أفريقيا، أو في الرحلة حول العالم، ولكن أنواع هذه التسلية محدودة وخاصة بعد فوات الشباب. ومن ثم فإننا نرى الأغنياء الأذكياء يجدون في عملهم كما لو كانوا فقراء، كذلك شغلت الغنيات من النساء أنفسهن بتوافه الأمور، وزعمن لأنفسهن أن أهميتها تهز أركان العالم.

لذلك كان العمل أمرًا محبذًا لكونه أولًا وقبل كل شيء وقاية من الممل، ولأن السأم الذي يحسه المرء وهو يقوم بعمل ضروري وإن كان غير ممتع، لا يعد شيئًا بالنسبة للملل الذي يحسه المرء إذا لم يكن لديه ما يشغل به نفسه.

أضف إلى ذلك أن العمل يزيد من قيمة أيام الأجازات حين تأتي. فما من شك في أن الرجل الذي يعمل سيقبل على الحياة في أيام فراغه بصورة أكثر من الكسول، وذلك ما لم يكن عمله يضعف من صحته.

والمزية الثانية لمعظم أنواع العمل المأجور، وبعض أنواع العمل غير المأجور، هي أن يتيح النجاح، ويهيئ الفرص لتحقيق المطامح.

ومقياس النجاح في معظم أنواع العمل هو الدخل الذي يدره، وسيظل الأمر كذلك في مجتمعنا الرأسمالي. ولكنه لا يصبح المقياس الطبيعي إذا كنا بصدد تقييم أجود الأعمال.

ذلك أن رغبة المرء في زيادة دخله، تجمع بين الرغبة في النجاح، والرغبة في توفير ظروف المعيشة التي يتيحها الدخل المرتفع. فمهما كان العمل مملًا، فلا يمكن احتماله كوسيلة من وسائل تكوين الشهرة في العالم بأسره، أو في الدائرة المحيطة.

ولعل من أهم أسباب السعادة أن يكون للمرء أهدافه المستمرة في الحياة، ويحقق الرجال ذلك المبدأ عن طريق عملهم. وربات البيوت أسوأ حظًا في هذا الصدد من الرجال، ومن النساء اللاتي يعملن خارج المنزل. فربة البيت لا تتقاضى أجرًا، ولا تتاح لها الوسائل للترقي، زوجها يأخذها يقدرها لأشياء أخرى يراها فيها غير عملها في المنزل.

ولا ينطبق هذا بطبيعة الحال على صاحبات الثراء اللائي يستطعن أن يملن بيوتهن، ويزين حدائقهن، وأن يكن ملتقى أنظار جيرتهن. ولكن هؤلاء النساء قلائل، كما إن الأعمال المنزلية لا تتيح البهجة والرضا التي تتيحها الأعمال الخارجية للرجال والنساء العاملات.

والرضا الذي يحسه المرء في قتله الوقت بالعمل، وفي إيجاد وسيلة لتحقيق طموحه مهما كان قليلًا، يأتي عن طريق العمل، كما إنه يكفي لأن يكون الرجل العامل أكثر سعادة في المتوسط من الرجل الذي لا عمل له. أما إذا كان العمل جذابًا، فإنه سيحقق نوعًا من الرضا يفوق مجرد إزالة السأم.

ويُمكن ترتيب أنواع العمل الجذاب في صورة هرمية، وسأبدأ بتلك التي يمل إليها الإنسان ميلًا خفيفًا، لا تنتهي بتلك التي تستغرق جميع طاقات الفرد الموهوب.

وهناك عنصران رئيسيان يجعلان من العمل شيئًا جذابًا. أولهما استغلال المهارة، وثانيهما البناء. فالفرد الذي أتيحت له مهارة خارقة في ناحية ما يجد المتعة في ممارستها حتى تصبح أمرًا طبيعيًا بالنسبة إليه، أو حتى يصل إلى درجة لا يستطيع معها الارتقاء بعد ذلك. ويبدأ هذا الدافع إلى النشاط منذ أيام الطفولة الأولى فالطفل الذي تعلم الوقوف على رأسه يمانع في الوقوف على قديمه.

وهناك أنواع كثيرة من الأعمال التي تهيئ نفس المتعة التي نجدها في ألعاب المهارة. وقد يجد المحامي أو السياسي في عمله ارتياحًا أعمق من ذلك الذي يشعر به في لعبة البريدج. ولا يقتصر الأمر في هذا المجال على ممارسة الفرد لمهارته فحسب.بل إنه يتضمن الانتصار على ند آخر.

وقد يجد الإنسان اللذة في الاضطلاع بالمعضلات حتى لو لم يتوفر عنصر المنافسة هذا. فلطيار العتيد لا يتوانى في المخاطرة بحياته. وذلك نظرًا للمتعة الكبيرة التي يحسها في مناوراته الصعبة.

وإني أعتقد أن الجراح الماهر يشعر بالرضا للدقة التي يجري بها عملياته. وذلك رغم الظروف المؤلمة التي تحيط بعمله. ويمكن القول بنفس الشيء بالنسبة للأعمال الأكثر تواضعًا. وإن كانت المتعة هنا تأتي بصورة أقل كثافة.

وليس من شك في أن الأعمال التي تتطلب المهارة تعد مصدرًا من مصادر المتعة، ما دامت هذه المهارة قابلة للتغيير أو للتنمية التي لا تنتهي إلى حد.

أما إذا لم تتوفر هذه الظروف فغن العمل سيفقد جاذبيته إذا وصل المرء إلى أقصى ما يُمكن أن تصل إليه مهارته. فالعداء الذي يحوز القصب في سباق طوله أميال ثلاثة، لن يستشعر اللذة من هذا العمل بعد تجاوز السن الذي يستطيع فيه أن يحكم رقمه القياسي السابق. غير أنه من حسن الطالع أن عددًا لا بأس به من الأعمال يتطلب المهارات المتجددة طبقًا لتغير الظروف، مما يسمح للمرء بالتقدم المستمر حتى يتوسط في العمر.

فهناك مثلًا بعض الأعمال كالسياسة التي لا يتقنها الرجال إلا إذا ناهزوا الستين أو السبعين. والسبب في ذلك أن هذه الأعمال تتطلب خبرة واسعة. ولذلك فإن رجال السياسة أكثر إحساسًا بالسعادة في هذه السن المتقدمة من الرجال الآخرين في نفس السن. وينافسهم في ذلك رجال الأعمال.

وهناك عنصر آخر للعمل الجيد أكثر أهمية من ممارسة المهارة كمصدر من مصادر الارتياح. هذا العنصر هو الناحية البنائية في العمل. فبعض الأعمال – ولا نقول كلها – تقوم على أساس دائم يظل شاهدًا على العمل بعد الانتهاء منه.

ونحن نستطيع تمييز البناء من الهدم على النمط التالي. فالبدء في عملية البناء يتم كيفما كان، وإن كان الأمر ينتهي إلى هدف محدد، أما في عملية الهدم فالمسألة على العكس من ذلك، فنحن نبدأ بهدف معين، ولا ينتهي الأمر إلى شيء محدد، بمعنى أن هدف الهادم هو أن يخلق حالة من الفوضى لا تنطوي على هدف بعينه.

وخير مثل لتوضيح هذا الفرق يمكن أن يؤخذ من عمليتي بناء وهدم العمائر. فالمرء يختط الخطة لبناء المبنى قبل البدء في عملية البناء، أما في حالة الهدم فإن المرء لا يستطيع أن يعرف الصورة التي ستكون عليها مواد البناء بعد أن تتم عملية الهدم. وغالبًا ما يكون الهدم ضروريًا كخطوة أولى نحو البناء.

وفي هذه الحالة يكون الهدم جزء من عملية البناء. ولكن يحدث أحيانًا أن يشترك المرء في النشاط الذي يهدف إلى الهدم دون أن يدخل في حسابه البناء الذي قد يتلو ذلك. ويزعم لنفسه أن يهدم في سبيل البناء، ويمكن دائمًا نزع الستار عن هذا الزعم وذلك بسؤاله عن حقيقة البناء التالي.

أما رده في هذه الحالة فسيكون غامضًا لا حرارة فيه، بينما كان حديثه عن خطوة الهدم محددًا وحماسيًا في نفس الوقت. وينطبق هذا على جمهور غفير من الثوار والعسكريين وغيرهم من دعاة العنف. والواقع أن الدافع لتصرفهم هذا هو الكراهية، وإن كانوا لا يشعرون بذلك. فهم يهدفون حقيقة إلى تحطيم ما يكرهون. وهم على حد كبير لا يبالون بما قد يترتب على ذلك.

وأنا لا أستطيع أن أنكر أن المرء قد يجد المتاع في العمل الهدام كما يجده في العمل البنائي. وقد تكون اللذة هنا عادمة في اللحظات المثيرة، ولكن المتعة ستكون أقل عمقًا. وذلك لأن نتيجة العمل لا تؤدي إلى الارتياح. فأنت تقتل عدوك، وبذلك تنتهي مهمتك، ولذة النصر تذوي سريعًا.

أما العمل البنائي فهو يشيع المسرة بعد الانتهاء منه. بل أكثر من ذلك، إن العمل البنائي ينتهي أبدًا إلى ذلك الحد الذي يشعر معه الإنسان بالاكتفاء. والأهداف التي تبعث الرضا هي تلك التي تقود من ناجح إلى نجاح دون الوصول إلى نهاية مقدرة. لهذا كله كان العمل البنائي مصدرًا أكبر للسعادة من العمل الهدام.

وقد يكون من الأصح أن نقول أن أولئك الذين يجدون اللذة في العمل البنائي يشعرون بالسعادة أكثر من هواة العمل الهدام. وذلك لأنه إذا كنت من دعاة الهدم فإنك ستجد بعض الصعوبة في استشعار اللذة في البناء بالصورة التي يحس بها رجل آخر.

وهناك أشياء قليل يمكن بها علاج عادة الكراهية، كأن تتاح الفرصة مثلًا للقيام بعمل له صبغة الأهمية. والارتياح الذي يحس به المرء مع النجاح في إحدى المهام البنائية الكبرى يعد من أحسن ما تقدمه الحياة، وإن كان هذا الارتياح لا يتاح إلا للفئة الموهوبة من الأفراد.

وليس ثمة ما يحرم المرء من السعادة التي يحسها بعد الاضطلاع بعبء هام من الأعمال، اللهم إلا إذا ثبت أن إنجازه للعمل لم يكن على الوجه الصحيح. وهناك صور متعددة لهذا النوع من الارتياح.

ولعل أرفع صورة هي تلك التي يحسها ذلك الفرد الذي اكتشف طريقة للري أحال بها الصحراء إلى جنة من الورود. كذلك يعد إقامة إحدى المنظمات عملًا ذا أهمية كبرى.

ويُمكن أيضًا أن نضرب مثلًا من أولئك الساسة الذين كرسوا حياتهم لاستنباط النظام من الفوضى؛ وخير مثال لهؤلاء في العصر الحاضر هو لينين. والأمثلة لهؤلاء واضحة أيضًا في الفنانين ورجال العلم.

وقد قال شكسبير عن شعره "إن هذا الشعر سيخلد ما عاش الرجال وتنفسوا، وما دامت العيون ترى". وليس هناك مجال للشك في أن هذا الخاطر كان عزاء له في ما لقي من مآسي.

وشكسبير في مقطوعته الشعرية يذكر أن معشوقته أعادت إليه الحياة، ولكني أرى أن مقطوعته الشعرية في ذاتها كانت أوقع أثرًا في هذا الصدد من الحبيبة ذاتها. وكبار الفنانين ورجال العلم يأتون من الأعمال ما هو محبب إليهم في ذاته. وهم حين يضطلعون بها يحصلون أيضًا على احترام من يجدر الحصول على احترامه.

وهذا يهيئ له فرصة السيطرة على أفكار الناس ومشاعرهم. بل إن لديهم من الأسباب ما يدعوهم إلى الاغترار بأنفسهم. وقد يتبادر إلى الذهن أن اجتماع هذه الظروف المواتية ستؤدي من غير شك إلى الإحساس بالسعادة. ولكن الأمر على العكس من ذلك. فمايكل أنجلو كان رجلًا شقيًا ممعنًا في الشقاء، ولم يكن لينتج قطعه الفنية لولا اضطلاعه بدفع ديون أقاربه المسرفين.

وغالبًا، ولا نقول دائمًا، ما ارتبط إنتاج الأعمال الفنية الكبرى ببعض أسباب الشقاء، وقد يبلغ هذا الشقاء من العنف بحيث يفكر الفنان – لولا شعوره بالرضا عن عمله الفني – في الانتحار.

ونحن لذلك لا نستطيع القول بأن أكبر الأعمال تخلق من الإنسان رجلًا سعيدًا، ولكن نقول أن هذا العمل يجعل من المرء أقل عرضة للشقاء. وربما كان رجال العلم أقل إحساسًا بالشقاء من أصحاب الفن، وأولئك الذين حققوا تقدمًا كبيرًا في العلم إنما هم رجال سعداء يستمدون سعادتهم أولًا وقبل كل شيء من أعمالهم.

ولعل أحد أسباب الشقاء الذي يعانيه المفكرون في العصر الحديث هو أن كثيرًا منهم – وخاصة فيما يختص بالأدب – لا يجدون الفرصة لممارسة مواهبهم بصورة استقلالية، بل يضطرون إلى أن يؤجروا أنفسهم لهيئات يشرف عليها الاستغلاليون الذين يطربون للإنتاج الغث الذي لا قيمة له. فإذا قدر لك أن تسأل الصحفيين في بريطانيا أو في الولايات المتحدة عما إذا كانوا يرضون عن سياسة الصحف التي يعملون بها، لوجدت أن القليل منهم هم الذين يوافقون على هذه السياسة.

أما الآخرون فإنهم يهدرون مواهبهم في سبيل أغراض قد يتحقق لديهم خطأهم، وذلك في سبيل لقمة العيش. ولا يؤدي هذا العمل إلى أي نوع من الارتياح. لأن الإنسان يضطر إلى الخشونة لدرجة لا يستطيع معها أن يجد الراحة في أي عمل كان.

وإني لا ألوم أولئك الذين يضطلعون بمثل هذه الأعمال، فلا بدليل لديهم منها إلا المجاعة وهي شيء خطير. ولكني أعتقد أنه في الإمكان تحقيق السعادة إذا اتخذ المرء له عملًا يشبع فيه دوافع البناء وذلك إذا أتيحت له فرصة الاختيار بين هذا العمل وبين عمل آخر يؤجر عليه أجرًا أكبر دون أن يقوم به لذاته.

وإنه لمن المحال تحقيق السعادة دون احترام المرء لنفسه، ومن الصعب على رجل يخجل من عمله أن يشعر باحترام النفس.

والرضا عن العمل البنائي، وإن كان مقصورًا على أقلية ضئيلة، إلا أنه من المستطاع تحقيقه على نطاق أوسع. وكل إنسان يجيد عمله يمكنه أن يستشعر هذا الرضا، كذلك كل إنسان يقوم بعمل نافع أو يتطلب المهارة الفائقة.

ومن أنواع العمل البنائي الذي يتيح الارتياح العميق إنجاب الأطفال الصالحين، والمرأة التي أنجبت الأطفال تحس أنها أضافت – بمجهودها هذا – شيئًا ذا قيمة إلى العالم لم يكن موجودًا فيه من قبل.

ويختلف أفراد المجتمع الإنساني في اتجاههم نحو اعتبار حياتهم وحدة متكاملة، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لبعض الرجال بل إنه من الضروري لتحقيق السعادة أن يرتاح الناس لهذا الشعور بالوحدة، وهناك آخرون يرون أن الحياة ما هي إلا سلسلة من الحوادث غير المترابطة، التي تسير دون هدف، ولا تشملها الوحدة.

وإني أعتقد أن النوع الأول من الرجال أكثر قابلية لتحقيق السعادة من الآخرين؛ لأنهم أقدر على خلق الظروف التي تهيء الرضا واحترام النفس، بينما سيعرض الآخرون أنفسهم لمهب الريح في هذا الاتجاه حينًا.

وفي ذلك الاتجاه حينًا آخر دون أن يستقروا على شاطئ فنظروا إلى الحياة على أنها وحدة متكاملة، مما يعد جزء أساسيًا من الحكمة والتقاليد السليمة، وينبغي أن تشجع هذه الفكرة ضمن برامج التغليم، ووجود الهدف الدائم لا يكفي وحده لتحقيق الحياة السعيدة، ولكنه أحد الأسس الهامة التي تقوم عليها هذه الحياة، وأول مظهر لدوام الهدف هو الاضطلاع بالعمل.

الهوايات الخارجية

لا أنوي في هذا الفصل معالجة الميول الأساسية التي تبنى عليها حياة الرجل، ولكني سأعالج تلك الهوايات التي يملأ الإنسان بها وقت فراغه؛ ليزيل عن نفسه عناء أعماله الأخرى ذات القيمة الجدية، فالزوجة والأطفال في حياة الرجل العادي، بالإضافة إلى عمله ومركزه المادي.

كل ذلك يشغل الجزء الأكبر من قلقه وتفكيره الجدي، وحتى لو كان له بعض مشاكل الحب خارج نطاق الزواج، فأن هذه المشاكل لن يكون لها أهمية في ذاتها، اللهم إلا في أثرها على حياته العائلية، كذلك لن أدخل في اعتباري الآن الهوايات المرتبطة بالعمل على أنها هوايات خارجية، فرجل العلم مثلًا ينبغي أن يظل دائمًا متابعًا للأبحاث في فرع العلم الذي تخصص فيه، وهو حين يتابع هذه الأبحاث فأن مشاعره وإحساساته ستكون في نفس الحرارة والعمق التي يتابع بها شيئًا يتعلق تعلقًا تامًا بمستقبله العلمي.

أما إذا قرأ بحثًا في نوع آخر من العلم لا يتصل بتخصصه فأن قراءته ستكون أقل تركيزًا، وأقل فحصًا ولكنها ستكون ليست بذات غرض معين، ورغم استخدامه للعقل في فهم ما يقرؤه إلا أن هذه القراءة تهيء الراحة من التعب؛ لأنها لا ترتبط بما يحمله من مسئوليات، فإذا استهواه كتاب ما، فأن هوايته له ستكون هواية خارجية، وهو أمر لا ينطبق

على قراءته في موضوع تخصصه، وسأحاول الحديث في الفصل الحالي من الكتاب عن تلك الهوايات التي يمارسها المرء خارج نشاطه الأساسي.

ولعل أحد الأسباب الهامة التي تقود إلى الشقاء والإرهاق، والتوتر العصبي هو ألا يكون للمرء هواية ليس لها أهمية عملية في حياته، والنتيجة لذلك هي وجود عدد قليل من الأمور البسيطة التي ينطوي كل منها على القلق والتوتر، ومن ثم فأنها لا تهيء الراحة للعقل الواعي، فلا يسمح للعقل بالهدوء إلا في وقت النوم بينما ينمو اللاشعور في بطء وتؤدة نحو الحكمة.

ويترتب على ذلك سرعة تأثر الإنسان وعدم اتزانه، وتوتره، وفقدانه مقاييس الحكم على الأشياء، وكل هذه ما هي إلا أسباب ونتائج للإرهاق، فكلما ازداد تعب الإنسان كلما قلت هواياته الخارجية، وكلما قلت هذه الهوايات كلما افتقد الارتياح الذي يترتب عليها ومن ثم زاد شعوره بالتعب.

ومن الجائز أن تنتهي هذه الحلقة المفرغة إلى الانهيار العصبي، وأهم ما يميز الهوايات الخارجية هو أنها لا تتطلب القيام بأية حركة، وذلك أن اتخاذ القرارات، وتنفيذ الارادة يؤديان إلى الكثير من الارهاق، وعلى الأخص إذا كان ذلك على عجل، ودون أي عون من اللاشعور.

ولعل أولئك الذين ينصحون بالنوم قبل اتخاذ أي قرار هام على جانب كبير من الحق، ولكن العقل الباطن لا يعمل خلال النوم فحسب، فقد يكون له أثره حين يكون عقل المرء الواعي مشغولًا بشيء معين، ولعل الرجل الذي ينسى كل شيء عن عمله حتى يحل اليوم التالي أكثر تعرضًا للنجاح من ذلك الذي يقلق باله سحابة النهار بهذا العمل – ويسهل تناسي متاعب العمل إذا كان للمرء هوايات خارجية أخرى غير عمله تشغله في وقت الفراغ.

ولعله من الضروري ألا تعتمد هذه الهوايات على نفس الملكات التي يعتمد عليها عمل المرء اليومي، فلا ينبغي ألا تتطلب هذه الهوايات اتخاذ القرارات الحاسمة، أو أن يدخل فيها العنصر المادي كهواية الميسر مثلًا، كما لا ينبغي ألا تكون هذه الهوايات مثيرة لعواطف المرء لدرجة تؤدي إلى الارهاق العاطفي وإلى انشغال العقلين الواعي والباطن.

وهُناك أنواع كثيرة من وسائل التسلية تتوفر فيها هذه الشروط، خذ مثلًا مشاهدة المباريات، أو ارتياد المسرح، أو لعبة الجولف، فهذه هوايات لا يلام المرء عليها، وقد يجد محب القراءة كل المتاع في كتاب لا يتصل بمهنته ومهما بلغت الأمور المقلقة فلا ينبغي على المرء أن يشغل بها نفسه خلال ساعات يقظته بأكملها.

والرجال يستطيعون أكثر من النساء تناسى أعباء أعمالهم، وتصبح هذه المشكلة بالنسبة لربات البيوت أكثر وضوحًا، حيث أن هؤلاء النساء لا يغيرن مكانهن طيلة اليوم، وهو التغيير الذي يحس به الرجال

حين ينتقلون من مقار أعمالهم إلى منازلهم فيكتسبون بذلك روحًا جديدة، وقد لا أكون مخطئًا حين أقول أن المرأة العاملة تختلف أيضًا عن الرجل، بنفس الدرجة التي يختلف بها الرجل عن ربة البيت، فهن يجدن الصعوبة كل الصعوبة في أن ينمين هوايتهن لأشياء لا تفيدهن فائدة عملية، فأغراضهن تسيطر على أفكارهن ونشاطهن، ونادرًا ما ينغمسن في هواية لا يستطعن تكييفها مع هذه الأغراض، وقد يكون هناك من تشذ عن هذه القاعدة، ولكني أتحدث هنا عن الأوضاع العادية، فالمدرسات مثلًا في مدارس البنات التي لا يعمل فيها أي من الرجال، إنما يقضين أمسياتهن في الحديث عن أعمالهن، أما في مدارس البنين فإن المدرسين لا يفعلون كذلك.

وقد يبدو للنساء أن ذلك الحديث يدل على إحساس أعمق بالمسئولية، ولكني لا أعتقد أنه يؤدي بمرور الزمن إلى تحسين نوع العمل الذي يقمن به، بل إنه قد يؤدي إلى ضيق في الأفق الذي ينتهي آخر الأمر إلى نوع من التعصب.

وللهوايات الخارجية منافع أخرى بالإضافة إلى أهميتها كوسيلة لتزجية الفراغ، فهي أولًا تقود المرء إلى تنمية إحساسه بضرورة التناسب، ذلك أنه من السهل أن يأخذ عليه عمله كل جوارحه، وأن يحصر نفسه في دائرته المُعينة لدرجة ينسى معها صغر الدور الذي يلعبه في النشاط الإنساني عامة كما ينسى أن ثمت أشياء عديدة في العالم لا تتأثر بما نقوم به من عمل.

وقد يسأل سائل عن السبب الذي من أجله ينبغي على المرء أن يذكر كل هذا، وهناك إجابات عدة على هذا السؤال، أولها أن على المرء أن يكون صورة صادقة للعالم تتفق مع ما يقوم به من نشاط، فالفرد منا لن يعمر في العالم طويلًا، وعليه خلال السنوات التي قدر له أن يحياها أن يجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الكوكب الذي نعيش فيه، وعن موضعه في العالم، وتجاهلنا لفرص المعرفة على ضآلتها أشبه شيء بعدم الاستماع إلى تمثيلية ما مع كوننا بين جدران المسرح، والعالم ملئ بالمآسي والمهازل، وبالأشياء البطولية والأشياء الغريبة، وأولئك الذين لا يهتمون بكل ذلك إنما يفتقدون إحدى المزايا الهامة التي توفرها الحياة.

أضف إلى ذلك أن الإحساس بالتناسب له قيمته، بل إن فيه بعض العزاء في كثير من الأحيان، فكلنا عرضة للاستثارة المتزايدة، أو التوتر البالغ، أو للإفراط في الاهتمام بذلك الركن الصغير الذي نعيش فيه من العالم، وهذه الفترة الزمنية البسيطة التي تنحصر بين ميلادنا وفاتنا. فتقدير المرء لنفسه أكثر مما يجب أمر غير مرغوب فيه؛ لأنه إذا عد دافعًا للجد في العمل، فلن يؤدي إلى تحسين نوعه، فقليل من العمل الذي يؤدي إلى الخير، خير من كثير ينتهي إلى الشر، وإن كان دعاة المشقة في الحياة ينصحون بغير ذلك.

ويتعرض أولئك الذين يهتمون اهتمامًا بالغًا بأعمالهم لخطر التعصب، فهم يدخلون في إعتبارهم عنصرًا أو عنصرين من النشاط، وينسون كل ما يتعلق بباقي العناصر، وهم يعتقدون أن أي خطر يترتب على هذا الاهمال إنما هو عديم الأهمية.

ولعل خير وقاية من الوقوع في هذا التعصب، هو أن تتسع مدارك الإنسان حول طبيعة الحياة وحول مكانه من هذا العالم، وقد يبدو أن ذلك شيء ضخم ليس من السهل تحقيقه ولكنه مع ذلك أمر له قيمته الكبيرة في ذاته إلى جانب فائدته في هذا الصدد.

ومن الناس من استطاع أن يدرك ولو لفترة من الزمن، الطريق المؤدية إلى عظمة النفس، وهذا الرجل لن يستمر في افحساس بالسعادة إذا ما عن له أن يتصف بالأنانية، أو أن يرضخ للملمات التافهة وأن يخشى دائمًا ما يخبئه له القدر، أما الذي تحقق له غتى النفس فأنه سيفتح نوافذ عقله على مصاريعها تسمح لرياح المعرفة بالهبوب من جميع أركان الكون، وسيدرك كنه نفسه وكنه الحياة والعالم أجمع بالدقة التي يسمح بها قصورنا البشري يتركز فيه كل شيء ذي قيمة يحويه العالم.

كذلك سيتحقق لديه أن الفرد الذي استطاع تصور العالم يعد – إلى حد ما– كبيرًا كالعالم نفسه، وسيجد السرور العميق في التحرر من المخاوف التي تقلق عبيد الظروف، وسيظل سعيدًا بالغ السعادة مهما تقلبت الأحداث في حياته الخارجية.

وإذا تركنا هذه التأملات الواسعة جانبًا، وعدنا إلى موضوعنا المباشر، وهو أهمية الهوايات الخارجية، فهناك اعتبار آخر يجعل من هذه الهوايات مصدرًا هامًا من مصادر السعادة.

وقد تجد الأحداث المؤلمة حتى في حياة أسعد السعداء، فقليل من الرجال – باستثناء العزاب – من لم يختلف مع زوجه، وقليل من الآباء من لم يشعر بالقلق البالغ لمرض أطفالهم، وقليل من رجال الأعمال استطاع تجنب الأزمات الاقتصادية، وقليل من أصحاب المهن من لم يواجه الفشل وجهًا لوجه أحيانًا، وفي مثل هذه الظروف يُمكن إدراك القيمة الكبيرة للهواية الخارجية، ففي هذه الأحوال حين لا يسنطيع المرء ألا يفعل شيئًا مهما بلغ الخطب الذي ألم به من الضخامة، ترى أحد الأفراد يتجه إلى لعبة الشطرنج، ويقرأ الآخر القصص البوليسية، وثالث ينسى نفسه في دراسة الفلك، ورابع يجد العزاء في القراءة عن الحفريات في بعض المناطق الأثرية.

وكل واحد من هؤلاء يسري بها عن نفسه، ويستسلم بذلك للمشكلة التي حلت به فأنه يتصرف تصرفًا يدل على الحماقة، وبذلك يصبح أقل صلاحية لمواجهة مشاكله حين تأتي اللحظة الحاسمة لاتخاذ قرار فيها، وتنطبق هذه الاعتبارات أيضًا بالنسبة للمصائب الفادحة التي لا يستطيع الإنسان لها حلًا، كوفاة أحد المقربين له، فلن يكتسب المرء شيئًا من الاغراق في الحزن لهذه الفجيعة.

ونحن لا نستطيع أن نتجنب الحزن، بل علينا أن نتوقعه وكل ما يمكن أن نفعله هو أن نبذل الجهد لنخفف من حدته،و الاستسلام التام للمآسي، يعد انسياقًا لا معنى له في العاطفة، وأنا لا أنكر أن الرجل قد تحطمه الخطوب، ولكني أقول أن على الرجل أن يبذل جهده لتجنبها وأن يتسلى عنها بما يشغل باله مهما بلغ من البساطة.

وذلك ما لم يكن لهذه التسرية أثر سيء أو مؤذي، كشرب الخمر، وتعاطي المخدرات، وهي الأشياء التي تهدف إلى تحطيم الفكر ولو لفترة من الزمن، والوضع الصحيح ليس هو تحطيم الفكر، بل تحويل مجراه إلى اتجاهات جديدة، أو على الأقل تحويله إلى اتجاهات تبعد عن المشكلة الحالية،و قد يصعب تحقيق ذلك في ظل حياة لا يمارس المرء فيها قليلًا من الهواية، مع امتزاج هذا القليل بالأسف والحزن.

ومن الحكمة كي يستطيع المرء احتمال الشرحين وقوعه، أن يعمل المرء خلال أوقات سعادته على تنمية مجال هوايته، حتى يجد العقل له ملاذًا يتيح له ظلالًا ومشاعر أخرى تساعده على احتمال الحاضر إذا كان مؤلمًا.

والرجل ذو الحيوية هو ذلك الذي استطاع من خلال الكوارث التي تعم به، أن ينمي اهتمامه بالحياة والعالم، بدلًا من أن يسمح لضربة واحدة من ضربات القدر بالقضاء عليه. إن كل عواطفنا تقع تحت رحمة الموت الذي قد يصيب أقرب أحبابنا إلينا في أية لحظة، ومن ثم فقد وجب ألا تتركز حياتنا بهذه الصورة الضيقة التي تؤدي إلى وضع معنى الحياة وهدفها بأسره في قبضة المصادفة.

ولهذه الأسباب مجتمعة كان من الحكمة في سبيل تحقيق السعادة أن يهدف المرء إلى تنمية بعض الهوايات الثانوية في نفسه إلى جانب تلك التي ينبى عليها أساس حياته.

الاجتهاد والاستكانة

قد لا يميل الناس لمبدأ الاعتدال، وما زلت أذكر في فترة الشباب أني كنت أحتقر هذا المبدأ تمام الاحتقار، فقد كنت في تلك الأيام أحب التناهي في كل شيء، ظنًا مني أن في ذلك نوع من البطولة،و قد لا تكون الحقائق جذابة في معظم الأحيان،والناس كثيرًا ما يؤمنون بالأشياء لما يجدون فيها من جاذبية، وذلك رغم قلة الشواهد الأخرى التي قد تزكي هذه الأشياء، وينطبق ذلك على مبدأ الاعتدال، فقد لا يجد الناس فيه شيئًا جذابًا، ولكنه مبدأ صادق في كثير من الأحوال.

ومن النواحي التي تصبح فيها المحافظة على هذا المبدأ أمرًا ضروريًا ناحية التوازن بين الاجتهاد في الحياة وبين الزهد فيها، ولكل من الاتجاهين من يؤيدهمت تأييدًا كاملًا، أما مبدأ الاستكانة فقد نادى به القديسون والمتصوفة، وأما مبدأ الاجتهاد فقد نصح به دعاة الكفاءة في العمل والمسيحيون ذوو العضلات[1]، وقد صدقت كل من المدرستين المتعارضتين إلى حد ما، ولكن ما قالت به كل منهما لم يكن الصدق كله، وسأحاول في هذا الفصل الموازنة بين الاتجاهين، وسأبدأ بالحديث عن مبدأ الاجتهاد.

---

[1] هي تسمية أطلقت على جماعة من المسيحين في القرن التاسع عشر تزعمهم تشارلس كنجسلي C. Kingsley نادوا بالملائمة بين التدين والرياضة البدنية.

إن السعادة ليست شيئًا يسقط في أفواهنا كما تسقط الفاكهة الناضجة نتيجة لبعض الظروف المواتية، ولعل هذا هو السبب الذي من أجله سميت كتابي "الطريق إلى السعادة"، ففي هذا العالم الذي تجتاحه الشرور التي يمكن تجنبها، والتي لا يمكن تجنبها، والملئ بالأمراض والاضطرابات النفسية، ومشاكل الفقر والخداع في هذا العالم ينبغي على الرجل أو المرأة التي تهدف إلى الحياة السعيدة، أن تلتمس السبل لمجابهة هذه الأسباب المتعددة التي تؤدي إلى شقاء الأفراد، وقد لا يتطلب الأمر في بعض الأحوال النادرة بذل المجهود.

فذلك الرجل ذو الطبيعة السمحة الذي ورث ثروة طائلة، وتوفرت له الصحة، قد يجد الحياة سهلة هينة ويدهش لما نثيره من حديث حولها، كذلك الفتاة حسنة الطلعة، نؤوم الضحى، إذا قدر لها أن تتزوج شابًا ثريًا لا يعمل على إجهادها، وإذا لم تكن تبالي بالسمنة بعد الزواج، فقد تجد المتعة في الراحة إذا كانت سعيدة لحظ مع أبنائها، ولكن هذه الأحوال نادرة معظم الناس ليسوا أغبياء، ولا يولد أغلب الناس وفيهم سماحة الطبيعة، وقد تعقدت طبائع الناس بحيث أصبحت الحياة الهادئة الرتيبة مدعاة للسأم، كذلك لم تعد الصحة مزية يثق كل امرئ في الاحتفاظ بها،و لا يعد الزواج دائمًا مصدرًا من مصادر السعادة.

ولهذه الأسباب مجتمعة أصبح من الضروري لتحقيق السعادة بالنسبة للرجال والنساء على السواء، أن يبذل الجهد في سبيلها، لا أن تعد هدية من عند الآلهة، ويلعب الاجتهاد في هذا الصدد دورًا كبيرًا

سواء اتخذ صورة النشاط الخارجي أو المجهود النفسي، وقد يشمل المجهود النفسي أخذ النفس بالزهد، ولكننا سنقصر حديثنا في الوقت الحاضر على النشاط الخارجي فحسب.

وقد يصبح بذل المجهود ضرورة واضحة لا تحتاج إلى تأكيد، وذلك بالنسبة للرجل أو المرأة التي تعمل لكسب عيشها، وإذا كان من الصحيح أن فقراء الهنود يحصلون على رزقهم دون مجهود عن طريق صدقات المتصدقين، إلا أن السلطات في البلاد الغربية لا تنظر بعين الرضا عن هذه الوسيلة من وسائل كسب العيش، أضف إلى ذلك أن الأحوال الجوية لا تساعد على اتخاذ هذه الوسيلة كما هي في البلاد الحارة الجافة، وفي الشتاء على وجه العموم يقل أولئك الناس الذين يفضلون التلكؤ في الشوارع على العمل في الغرف الدافئة، لذلك لا تعد الاستكانة وحدها في الدول الغربية أحد الطرق المؤدية إلى النجاح.

وهناك نسبة كبيرة من الناس في البلاد الغربية لا يكفيها لتحقيق الحياة الهنيئة الحصول على مجرد ما يسد نفقات المعيشة فهم يطلبون إلى جانب ذلك الحصول على ما يكفل لهم الإحساس بالنجاح. وقد يمكن تحقيق هذا الإحساس مع بعض الأعمال التي لا تدر ربحًا كبيرًا، وذلك كالقيام بالأبحاث العلمية، ولكن مقياس النجاح بالنسبة لمعظم الأعمال هو الدخل الذي تدره، ويقودنا الحديث الآن إلى ضرورة إنصاف المرء بشيء من الزهد لتحقيق النجاح في معظم الأحوال، ففي هذا العالم الذي يقوم على التنافس لا يمكن إلا لفئة قليلة أن تحقق النجاح الباهر.

وقد يكون الزواج مثلًا أمرًا يحتاج إلى المجهود، وقد لا يحتاج إليه تبعًا للظروف، فإذا قل عدد أفراد أحد الجنسين، أصبح الأمر لا يتطلب إلا مجهودًا قليلًا كي يتزوج فرد من هذا الجنس من يختار من الجنس الآخر، ويختلف الأمر بالنسبة للجنس الأكثر عددًا، ويتضح الأمر لكل من يقرأ إعلانات الزواج في المجلات النسائية في بلاد يزيد فيها عدد النساء على عدد الرجال، أما حيث يغلب عدد الرجال على عدد النساء، فإن الرجال يتخذون وسائل أكثر تهورًا كاستخدام الأسلحة، وهذا أمر طبيعي، ذلك أن البيئات التي يغلب فيها عدد الرجال عادة ما تكون من البيئات البدائية التي لم تعرف الحضارة بعد، ولست أستطيع أن أتكهن بما يمكن أن يحدث لو أن أحد الأوبئة قضى على معظم النساء فأصبح الرجال كثرة في انجلترا، لعلهم قد يعودون إلى عادات الفرسان في العصور الوسطى.

ولا يستطيع أي إنسان أن ينكر مقدار المجهود الذي يبذل للنجاح في تربية الأطفال. فالبلاد التي تؤمن بالاستكانة أو بما يسمى خطأ النظرة "الروحية" للحياة هي تلك البلاد التي ترتفع فيها نسبة الوفيات بين الأطفال، فتجهيز العقاقير والاشراف على الصحة العامة، وتناول الوجبات المناسبة كل ذلك لا يُمكن تأديته دون الانشغال بالأمور الدنيوية، وهي أشياء تتطلب توجيه النشاط إلى البيئة المادية المحيطة، فالذين يعتقدون أن المادة خيال لا وجود له قد يرون نفس الشيء بالنسبة للقذارة ومن ثم يترتب على ذلك وفاة أطفالهم.

ويُمكن القول بصفة عامة أن كل إنسان لم تمت فيه الرغبات الطبيعية، يهدف إلى نوع من السيطرة، وهو مطلب طبيعي مشروع، ويتوقف نوع هذه السيطرة على نوع العواطف التي تغلب عليه، فقد يرغب امرؤ في السيطرة على أعمل الرجال الآخرين، ويرغب آخر في السيطرة على أفكارهم، ويرغب ثالث في السيطرة على عواطفهم، كما قد يرغب أحد الناس في تغيير البيئة المحيطة به، ويرغب فرد آخر في السيطرة عن طريق النبوغ الذهني، وكل عمل من الأعمال العامة ينطوي على الرغبة في نوع معين من السيطرة، اللهم إلا إذا كان يهدف إلى الحصول على الثروة عن طريق الافساد، فذلك الرجل الذي يشقى لشقاء الإنسانية سيطلب السيطرة في سبيل العمل على تخفيف ألم الناس، وذلك إذا كان شقاؤه حقيقيًا، أما ذلك الذي لا يطلب أي نوع من السيطرة كلة، فهو ذلك الذي لا يكن أي شعور نحو المجموع، ولذلك كان علينا أن نقبل بعض صور الرغبة في السيطرة كصفة مميزة لأولئك الرجال الذين يكونون المجتمع الصالح، وترتبط الرغبة في السيطرة كصفة مميزة لأولئك الرجال الذين يكونون المجتمع الصالح، وترتبط الرغبة في السيطرة على اختلاف صورها ببذل المجهود، وذلك ما دامت لم تتحطم، وقد لا يكون هذا الاستنتاج غريبًا على عقلية الغربيين، ولكن هناك عددًا ليس بالقليل من سكان البلاد الغربية يبدون إعجابهم بما يسمى "حكمة الشرق" في الوقت الذي نفض فيه الشرقيون عن أنفسهم هذه "الحكمة"، وقد لا يأخذ هؤلاء الناس ما نقوله الآن حقيقة مسلمًا بها، ولذلك أصبح لزامًا علينا أن نقدم إليهم هذا الحديث.

وللاستكانة أيضًا دورها الذي تلعبه كي يشق الإنسان طريقه إلى السعادة، وهو دور لا يقل في أهميته عن دور الاجتهاد، فإذا كان الرجل الفطن لا يقف مكتوف الأيدي إزاء المشاكل التي يمكن معالجتها، فأنه أيضًا لن يضيع وقته وعواطفه سدى إزاء المشاكل التي تستعصي على الحل، كذلك تراه يكرس للمشاكل التي يُمكن تجنبها الوقت والمجهود المناسبين فحسب، بحيث لا يُؤثر ذلك على اهتمامه بالموضوعات الأكثر أهمية، وكثير من الناس من يثورون لأتفه الأسباب، وهم بذلك يستنفدون من الطاقة ما قد يُمكن استغلاله بصورة أكثر نفعًا، وليس من الحكمة في شيء حين يقوم المرء بأداء بعض الأعمال الهامة، أن يأخذ عليه العمل كل حواسه لدرجة تصبح معها فكرة الفشل نذيرًا دائمًا يهدد راحة باله.

وقديمًا علمتنا المسيحية الخضوع لإرادة المولى، وينبغي أن تسيطر هذه الفكرة على نشاط الناس حتى بالنسبة لأولئك الذين لا يستسيغون هذه العبارة.

والكفاءة في العمل قد لا تتناسب مع العاطفة التي نظهرها إزاءه، بل الواقع أنه كثيرًا ما تكون هذه العاطفة عقبة في سبيل اكتساب الكفاءة، وخير اتجاه يُمكن أن نتخذه هو أن نبذل جهدنا في أداء العمل، على أن نترك النتيجة للأقدار والاستكانة نوعان، أحدهما ينبع من اليأس، والآخر من الأمل الذي لا يهزم، وأولهما شر، وثانيهما خير، فذلك الرجل الذي مني بالفشل الذريع، والذي لم يعد له أمل في أي انتاج يذكر، وقد يبرر زهده هذا ببعض الحكم الدينية، أو بأن التأمل هو خير ما يُمكن أن

يهدف إليه الإنسان، ولكن مهما إتخذ من وسائل لتغطية هزيمته الداخلية، فسيظل دائمًا معدوم الإنتاج شقيًا في قرارة نفسه.

أما ذلك الرجل الذي يبني زهده على أساس من الأمل المتوثب فإن سلوكه يختلف اختلافًا كبيرًا، فالأمل إذا لم يتعثر، نما وازدهر وخرج عن نطاق الذات، فإنه مهما كان من نشاطي الشخصي، فقد يهزمني الموت، وقد يعتريني المرض وقد يتغلب على الأعداء وقد أرى أني لم اتخذ طريقًا سليمًا يؤدي بي إلى النجاح، فهناك إذن آلاف الوسائل التي قد تؤدي إلى تحطيم الآمال التي تدور في نطاق الذات.

أما إذا اتسع مجال هذه الآمال، فأصبحت تهدف خير الإنسانية جمعاء، وقدر للإنسان أن يفشل في تحقيقها فلن يكون شعوره بالمرارة في نفس الصورة التي يحس بها إذا لم يحقق آماله الذاتية فرجل العلم الذي يكرس جهده لبعض الاكتشافات قد لا يصل إليها بنفسه، وقد يضطر إلى التوقف عن العمل نتيجة لضربة يصاب بها، فإذا كانت لديه الرغبة العميقة في تقدم العلم، لا في مجرد المساهمة بشخصه في هذه الناحية، فأن يأسه لن يكون شبيهًا بيأس ذلك الرجل الذي يتصرف تحت تأثير الدوافع الأنانية، والمصلح الذي يدعو إلى نوع معين من الاصلاح في المدينة قد تتحطم كل جهوده نتيجة لقيام الحرب، وقد يضطر أخيرًا للاقتناع بأن ما دعا إليه قد لا يتحقق خلال حياته، ولكن ذلك لن يؤدي به إلى الغرق في لجنة اليأس، فهو ينظر إلى المستقبل البشر أولًا، لا إلى الجزء الذي يساهم به في بناء هذا المستقبل.

وقد عالجنا حتى الآن الأحوال التي يصعب فيها اتخاذ مبدأ الاستكانة، ولكن هناك أحوالًا أخرى يسهل اتخاذه فيها، وهي الأحوال التي قد لا ينجح المرء فيها في تحقيق أغراضه الفرعية، بينما قد يبشر هدفه الأساسي من العمل بالنجاح، فالرجل الذي يشغل عملًا هامًا قد يصيبه بعض الفشل نتيجة لشقائه في الزواج.

أما إذا شغل عمله كل انتباهه، فأنه سيستمر فيه بنفس الدرجة سواء كان ناجحًا في حياته الزوجية أو لم يكن كذلك. ومن الناس من لا يستطيع احتمال المشاكل الهينة التي تكون جزء كبيرًا من الحياة إذا سمحنا لها بذلك، فهو يأخذهم الغضب إذا فاتهم القطار، ويثورون إذا لم يقدم إليهم طعام الغذاء جيد الطهي، ويصابون باليأس إذا خرج الدخان من المدخنة، ويصبون اللعنة على النظام الصناعي بأسره إذا ضاعت أثوابهم في محلات التنظيف بالبخار، والطاقة التي يستنفذها هؤلاء الناس في هذه الترهات، قد تكفي لبناء امبراطوريات بأسرها وتحطيم أخرى فالرجل الحكيم لا يعلق أهمية كبرى على الغبار الذي تركته الخادم دون تنظيف، ولا على البطاطس الذي لم تقم الطاهية بطهيه، ولا على الهباب الذي لم يقم الماسح بتنظيفه من المدخنة، وأنا لا أعني أن الرجل الحكيم يترك هذه المشاكل دون حل إذ كان لديه من الوقت ما يتسع لها، وإنما أود أن أقول أنه يعالجها في هدوء.

فالقلق والثورة والضيق عواطف لا تخدم أي هدف، وقد يقول أولئك الذين تجتاحهم هذه العواطف أنهم لا يستطيعون التغلب عليها، ولست أثق في إمكان التغلب عليها بوسيلة أخرى غير الاستكانة الذي

أشرنا إليها آنفًا، ذلك أن نفس الآمال الكبار التي تساعد المرء على تحمل الصدمات الشخصية في عمله هي التي ستحمله على الصبر إذا فاته القطار أو إذا سقطت مظلته في الوحل، فهذه الوسيلة هي خير علاج له إذا ضاقت به الأحوال.

والرجل الذي استطاع التحرر من سيطرة القلق سيجد الحياة أكثر ابتسامًا عما كانت عليه حين كان يعاني الضيق بصفة مستمرة، فهو الآن يتخذ من لزمات أصدقائه وسيلة للتسلية، بعد الثلاثمائة تلك النكتة التي يحكيها عن أسقف تيرا دلفو يجو فأنه يسلي نفسه بعد المرات التي سردت فيها هذه النكتة، بدلًا من أن يحاول سدى أن يغير مجرى الحديث بنكتة من صنعه هو، وإذا قطع رباط حذائه في الوقت الذي يحاول فيه الإسراع للحاق بقطار الصباح الباكر، يدرك – بعد صيحات الاستنكار المناسبة – أن هذه الحادثة ليس لها في تاريخ الكون أهمية تذكر، وإذا جاء ضيف ثقيل أثناء زيارة له يطلب فيها الزواج من فتاة ما تراه يقول في نفسه أن الإنسانية كلها تعرضت لمثل هذه الكارثة من قبل، اللهم إلا أبونا آدم، ومع ذلك فقد كان له مشاكله أيضًا، والوسائل كثيرة كي يجد المرء العزاء عن مثل هذه المضايقات الصغيرة، عن طريق بحث وجوه للشهة بينها وبين ميلاتها، أو الموازنة بينها وبين غيرها وهلم جرا.

ومن الجائز أن لكل رجل أو امرأة متحضرة صورته التي يتخيلها عن نفسه، وقد يشعر بالضيق إذا ما أحس أن شيئًا ما شوه هذه الصورة، وخير ما يمكن عمله لتلافي هذا الضيق، هو أن يكون للمرء معرضًا لصور الذات بدلًا من الاكتفاء بصورة واحدة، وعليه أن يختار الصورة المناسبة

لمواجهة الحادثة موضوع البحث، وإذا كانت بعض هذه الصور تتسم بشيء من الفكاهة، فهذا حسن إذ أنه ليس من الحكم أن يتصور المرء أن يقضي طيلة نهاره بطلًا من أبطال المأساة، ولست أعني بذلك أن يتصور المرء نفسه شخصية هزلية في ملهاه، فقد يبعث ذلك على الضيق بصورة أشد، فاختيار الدور الذي يلعبه المرء في موقف معين يتطلب شيئًا من اللباقة، وإذا نسى المرء نفسه كلية دون أن يتكلف القيام بدور ما فذلك شيء يدعو لي الإعجاب حقًا، أما إذا كان التمثيل طبيعة ثانية فيه، فعليه أن يختار الدور المناسب، وأن يتجنب بذلك رتابة الحياة.

وكثير من ذوي النشاط من يرون أن أقل شائبة من الاستكانة، وأبسط حظ من الفكاهة قد يحطم الطاقة التي تدفعهم إلى العمل، والعزيمة التي بها يحققون النجاح، وإني أعتقد أن هؤلاء الناس على خطأ، فالعمل الجدير بأن يأتيه المرء يمكن أن يقوم به أولئك الذين لا يخدعون أنفسهم إما في أهمية العمل الذي يقومون به أو في السهولة التي يمكن بها تأدية هذا العمل.

ولعل من الخير لأولئك الذين يقومون بالعمل بدافع من خداع النفس أن يدركوا أولًا كيف يتحملون الحقائق قبل أن يستمروا في بناء مستقبلهم، ذلك أن حاجتهم إلى خلق الجو الأسطوري حول عمالهم ستؤدي إن عاجلًا أو آجلًا إلى أن يصبح العمل الذي يقومون به شيئًا مؤذيًا بدلًا من أن يكون نافعًا، وخير للإنسان ألا يفعل شيئًا بدلًا من أن يفعل شيئًا مؤذيًا، ونصف الأعمال المفيدة في العالم هدفها القضاء على الأعمال الضارة، والوقت الذي يقضيه المرء في تعلم كيفية تقدير

الحقائق لا يضيع سدى، والأعمال التي يقوم بها بعد ذلك ستكون أقل ضررًا من تلك التي يضطلع بها أولئك الذين يحتاجون إلى فضحهم أنفسهم بصورة مستمرة كوسيلة من وسائل التنشيط لطاقتهم، وتنطوي مواجهتنا للحقائق التي تتصل بأنفسنا على نوع من الزهد، وقد يكون في ذلك بعض المشقة أول الأمر، إلا أن الأمر ينتهي بالوقاية من الفشل الذي يتعرض له من يخدع نفسه، ولعل هذا هو السبيل الوحيد لتحقيق تلك الوقاية، وليس ثمت ما هو يثبت دائمًا بعدها عن الصدق، والاجتهاد هو خير وسيلة لتلافي ذلك، وهو شرط لا غناء عنه في سبيل تحقيق السعادة المأمونة الدائمة.

الرجل السعيد

تتوقف السعادة على الظروف المحيطة بالفرد، كما تتوقف أيضًا على الفرد ذاته، وقد تناول حديثنا في هذا الكتاب ذلك الجانب من السعادة الذي يتوقف تحقيقه على الفرد نفسه، وانتهينا إلى أن الحصول على هذا الجانب منها أمر ميسور، وكثير من الناس من يظن أنه ليس في الإمكان تحقيق السعادة إلا في ظل عقيدة من العقائد الدينية، كما يظن بعض من يعانون الشقاء أن شقاءهم هذا يرجع إلى أسباب فلسفية معقدة، وأنا لا أعتقد أن مثل هذه الأشياء تعد أسبابًا حقيقية للشقاء أو للسعادة وإنما تعد هذه الأشياء أعراضًا فحسب.

فالقاعدة العامة أن الشقي سيختار لنفسه عقيدة تنطوي على التشاؤم، بينما يختار السعيد لنفسه مبدأ ينادي بالسعادة، ومع ذلك فكل منهم يعزو شقاءه أو سعادته إلى مبادئه، وإن كان الأمر على العكس من ذلك، فثمت أشياء بسيطة في حد ذاتها تعد ضرورية لتحقيق السعادة لكل فرد، هذه الأشياء هي الطعام والسكن والصحة، والحب، والنجاح في العمل، والتمتع باحترام المجموع، ويرى بعض الناس أن عاطفة الأبوة أمر ضروري كذلك، وحيث لا تتوفر هذه الأشياء لا يستطيع إلا القلائل المتفردون دون تحقيق السعادة.

أما إذا توفرت هذه الأشياء – أو أمكن الحصول عليها ببعض المجهود، دون أن يؤدي ذلك إلى تحقيق السعادة، فمعنى ذلك أن المرء يُعاني اضطرابًا نفسيًا يتطلب لطبيب إذا كان شديدًا، وقد يستطيع المريض علاج نفسه إذا لم يكن كذلك، ويستطيع المرء أن يحقق السعادة إذا لم يكن في الظروف المحيطة به ما يعوق ذلك، وإذا كانت مشاعره وميوله تتجه نحو الخارج لا نحو الداخل.

وعلى ذلك فأن الغرض من محاولة الملاءمة بين ميولنا الشخصية واتجاهات العالم الخارجي، ينبغي أن يهدف إلى تجنب المشاعر التي يدور محورها حول الذات، وأن تحل محلها الميول التي تحول دون تركيز أفكارنا في أنفسنا، وليس من طبيعة الإنسان الشعور بالسعادة داخل السجن، والإحساسات التي تغلق علينا أنفسنا تعد أسوأ أنواع السجون، ومن أمثلتها الشعور بالخوف، والحسد، والإحساس بالذنب، والشعور بالضعة، والإعجاب بالنفس، فمن خلال هذه الأحاسيس ينصب تفكيرنا على أنفسنا، ولا نشعر بأي تجاوب مع العالم الخارجي، وكل ما يهمنا من هذا العالم المحافظة على شعورنا، وإشباع رغباتنا الذاتية، والخوف هو أهم الأسباب التي تدعوا الإنسان إلى تجاهل الحقائق، وإلى اصطناع هالة أسطورية يحيط بها نفسه، ولكن اللفحات الباردة تضربه من خلال هذه الهالة، ويدركه منها ألم أشد وأعنف من ألم ذلك الرجل الذي تعود مجابهة الحقائق، أضف إلى ذلك أن أولئك الذين يخدعون أنفسهم يحسون دائمًا بذلك في أعماق نفوسهم، وهم يعيشون في قلق خوفًا من

أن يضطروا أنفسهم يحسون دائمًا بذلك في أعماق نفوسهم، وهم يعيشون في قلق خوفًا من أن يضطروا يومًا ما إلى مواجهة الحقائق.

ومن النتائج السيئة التي تترتب على الانطواء ألا يخبر الإنسان الحياة في مظاهرها المختلفة، وإذا لم يكن لنا أن نصف عواطف المنطوي بالغموض، فأنه في نهاية الأمر سيصاب بالملل، لشدة التفاف هذه العواطف حول شيء واحد دون أن تغيره، والشخص الذي يعاني إحساسًا بالذنب إنما يعاني في حقيقة الأمر نوعًا من عشق الذات، فكل همه في هذا العالم المتسع هو أن يصبح رجلًا فاضلًا، وقد أخطأت الديانة المحافظة خطأ فاحشًا حين شجعت هذا النوع من الانغماس في الذات.

إن الرجل السعيد هو ذلك الذي يحيا حياة موضوعية، توجهها مشاعره الحرة وميوله الواسعة، والذي يحقق سعادته عن طريق هذه المشاعر والميول، وهي التي تجعل منه موضعًا لاهتمام الآخرين، والتمتع بعطف الآخرين في حد ذاته يعد من السباب القوية المؤدية إلى السعادة، أما إذا طلب المرء من الآخرين هذا العطف فإنه لن يحصل عليه، ويمكن أن نقول على وجه العموم أن الرجل الذي ينال عطف الآخرين هو ذلك الذي يمنحهم عطفه، وليست المسألة في الواقع مسألة حسابية لأنها لو كانت كذلك لكان العطف المتبادل مفتعلًا مزيفًا. ما الذي يستطيع أن يفعله إذن ذلك الرجل الذي يشقى بسبب انطوائه على نفسه؟ إن هذا الرجل إذا استمر في التفكير في أسباب شقائه فأنه سيظل دائمًا منطويًا

على نفسه ومن ثم فلن يخرج من الحلقة المفرغة التي يدور فيها، وإذا كان له أن يخرج منها، فأن ذلك سيكون حتمًا نتيجة لميل أصيل في نفسه، لا نتيجة لبعض الميول التي يتخذها كسبب من أسباب العلاج، وهناك الكثير من الوسائل التي يمكن اتخاذها لمجابهة هذه المصاعب إذا اهتدى المرء إلى تشخيص صحيح لمشاكله، فإذا كان الإحساس بالذنب هو الأساس في هذه المشاكل، سواء كان ذلك عن وعي أو عن غير وعي، فأنه يستطيع أن يقنع نفسه بالوسائل المنطقية أن هذا الإحساس لا أصل له، ويمكنه تغليب المنطق على إحساسه بالطرق التي سبق أن ذكرناها. وهناك احتمال كبير في أن ينمي المرء في نفسه الميول الموضوعية، إذا أفلح في القضاء على إحساسه بالذنب، بعد أن يكون المرء قد اقتنع بأنه ليس ثمت في ظروفه المحيطة ما يدعو إلى هذا الإحساس، أما إذا كان المرء يعاني الخوف النفسي فعليه أن يمارس التمرينات التي تهدف إلى اكتساب الشجاعة، ويعد الناس الشجاعة في الحروب منذ قديم الأزل من الفضائل الأساسية، كما كانت برامج التعليم تهدف إلى حد كبير إلى بعث روح الشجاعة في المعركة في نفوس الصبية والشباب، ولم يوجه الناس نفس الاهتمام للشجاعتين الأدبية والفكرية، ولهاتين الشجاعتين وسائل تدريبهما الخاصة، فتهيئ لنفسك الفرصة كي تواجه في كل يوم ولو حقيقة واحدة مؤلمة، والفائدة التي تجنيها من هذا المران شبيهة بتمرين الكشاف في حياته اليومية، ولتعلم نفسك أن الحياة جديرة بأن يحياها المرء حتى لو لم يكن متفوقًا على أصدقائه في الفضيلة والذكاء، وإذا ثابرت على هذا المران فترة من الزمن قد تمتد

لسنوات، فأنك حتمًا ستنتهي إلى القدرة على مجابهة الحقائق دون أن تنثني أمامها، ومن ثم يمكنك التخلص من الخوف النفسي الذي تعانيه، وتحديد الميول الموضوعية التي ستتابعها بعد أن تتخلص من انطوائك على نفسك أمر متروك لطبيعتك ومقدار تفاعلها مع ظروفك المحيطة، فلا تقل لنفسك "سأكون سعيدًا إذا غمست نفسي في هواية جمع طوابع البريد" وعليه فأنك تبدأ في جمع هذه الطوابع، ذلك أنه من المحتمل ألا تجد من نفسك ميلًا طبيعيًا نحو هذه الهواية.

والواقع أن الميول الأصيلة وحدها هيى التي ستصبح مجدية بالنسبة إليك، ولك بعد ذلك أن تؤمن أن ميولك الخارجية ستنمو في نفسك عندما تستطيع التخلص من الانطواء على الذات.

والحياة السعيدة هي نفسها الحياة الخيرة إلى حد كبير، وقد أخطأ الأخلاقيون المحترفون حين أكدوا إنكار الذات، ذلك أن إنكار الذات عن تصد يؤدي إلى الانطواء على الذات، وإلى الإحساس الدائم بالتضحية التي يقوم بها الفرد، ومن ثم فأن إنكار الذات على هذه الصورة لا يؤدي إلى الهدف الذي قصد منه، فنحن لا نهدف إلى إنكار الذات كغرض بعينه، وإنما نهدف إلى توجيه ميولنا نحو النشاط الخارجي الذي يؤدي بطبيعته، وبصورة تلقائية إلى نفس النتائج التي يهدف إليها الأخلاقي بوسائله الواعية.

والفرد الذي يمد يد العون لغيره تحت تأثير دافع ذاتي، لا يقل في عرف الفضيلة عن ذلك الذي إذا اعترضه موقف يتطلب المساعدة يسائل نفسه قائلًا "إن مديد المساعدة للمحتاج يعد نوعًا من الفضيلة، وأنا أريد أن أكون رجلًا فاضلًا، ولذلك يجب على أن أنقذ الطفل". بل يمكن القول أن الأخير أقل في المستوى الأخلاقي من الأول، وما ينطبق في هذه الحالة ينطبق في جميع الأحوال الأخرى. وثمة اختلاف آخر دقيق بين الاتجاه الذي أدعو إليه، وبين ذلك الاتجاه الذي يدعو إليه الأخلاقيون المحافظون، فهم لا يرون أن تضاف الأنانية للحب، وهم محقون بعض الشيء حين يطلبون ألا يكون الحب أنانيًا إلى حد معين، ولكن يجب أن تكون طبيعة الحب بحيث يرتبط نجاحه بتحقيق السعادة للفرد، فإذا طلب رجل يد امرأة للزواج على أساس من رغبته العميقة في التضحية من أجل سعادتها، وهو يفترض بهذا أن الفرص ستتاح له لممارسة إنكار الذات، فأني أشك كثيرًا في أن هذه المرأة سترضى عن هذا العرض، وليس من شك في أنه يجب علينا العمل لإسعاد من نحب، ولكن لا ينبغي أن يكون ذلك على حساب سعادتنا الخاصة، والواقع أن هذا التناقض الذي تحسه بين أنفسنا وبين العالم وهو التناقض الذي يستتر وراء فكرة إنكار الذات سيختفي حالما ننمي في أنفسنا الميول الخارجية الموضوعية نحو الأشخاص والأشياء، وعن طريق هذه الميول يحس المرء نفسه جزء من تيار الحياة، وهو في ذلك سيكون شبيهًا بكرة البليارد، له وحدته القائمة بذاتها، ولا يحس بصلته بالوحدات الأخرى إلا عند الاصطدام بها، ويرجع الشقاء في أساسه إلى بعض صور الانفصال

أو عدم الاكتمال، فهناك انفصال في النفس بين الشعور وبين اللاشعور، وهناك عدم التوافق بين الفرد والمجتمع، ويتم ذلك حين لا يتحد الجانبان في متابعة الميول والعواطف الموضوعية، والرجل السعيد حقًا هو ذلك الذي لا يعاني مثل هذا الغصام، ذلك الرجل الذي لا تنقسم شخصيته على نفسها، ولا يتخذ موقف العداء من العالم، والذي يحس أنه أصبح مواطنًا لجميع البشر في العالم، فهو يأخذ حظه مما أتاح له العالم، والذي يحس أنه أصبح مواطنًا لجميع البشر في العالم، فهو يأخذ حظه مما أتاح له العالم من متعة، ولا تهدده فكرة الموت؛ لأنه لن يحس بفاصل بينه وبين من سيأتي بعده، ذلك أن الإنسان يجد السعادة الحقة في هذا الاتحاد الغريزي العميق مع مجرى الحياة.



الفهرس